قفص اسمه أنا

رباب كسَّاب

قفص اسمه أنا / رواية
رباب كساب
الطبعة الثانية ، ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج
هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧
موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢- ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
حاتم عرفة
تدقيق لغوي :
حسام مصطفى إبراهيم
رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٥٢٨٦

قفص اسمه أنا

رواية

رباب كسَّاب

الطبعة الثانية

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع



(١)

حان الآن موعد أذان الفجر، نطقها مذيع الإذاعة قبـــل أنْ ينطلق صوت المؤذن هاتفًا الله أكبر الله أكبر معلنًا بدايـــةَ يـــومٍ جديدٍ من أيام الله على هذه الأرض.

كانت بداية يومٍ شتوي باردٍ حين بدأت الحركة تعمّ الدنيا وتملأ أرجاء المدينة الصغيرة، والتي ما هي إلا شارعان رئيسيّان تبدأ عند تقاطعهما المدينة ويتجه كلٌّ منهما في اتجاه، أحـــدهما الطريق السريع الرابط بين مراكز المحافظة والآخر هو قلب البلد حيثُ المدارس والمَحال والمصالح الحكومية، ويـــرتبط كلاهمـــا بشوارع وحارات صغيرة، ما إنْ تدخل إحـــداها حـــتى تجـــد نفسك في النهاية في الطريق الآخر، وفي نهايتـــهما يقطعهمـــا شارعٌ كبيرٌ ينتهي عند محطة السكة الحديد.

وهذه مدينة هادئة نوعًا ما، صخبها في النهار، وفي الليل - وخاصة الشتاء- تجدها خاوية إلا من بعض الـــشباب الـــذين يتسكّعون في طرقاتها، لا مصنع فيها ولا صناعة، جميع أهلـــها من القرى المجاورة جاءوا ليسكنوا بجوار أعمالهم في المـــدارس والهيئات الحكومية. وما يعنينا منها واحدٌ من شوارعها العديدة الصغيرة، يقع على يسار الشارع الذي هو قلب البلد، وذلـــك حين تدخل المدينة قادمًا من طنطا، إنه شارع الشهيد إبـــراهيم

أبو الروس -الذي كان يقطنه رحمه الله- وهو قصيرٌ ضيقٌ يتسع لسير سيارة واحدة فقط: بيوته متلاصقة متقابلة ليس فيها من التناسق شيء، بل لا تعرف ما هو التناسق، فهي بين طابقٍ أو طابقين لا تزيد، ألوانها مختلفة بل إنّ أغلبها تكاد لا ترى لونه من فعل الزمن. ويبدأ ببيت عم حلمي الحلاق الذي يتكوَّن من طابق واحد يعلو الطريق عنه فتترل له بدرجة سلم واحدة، وعم حلمي هذا غير كل الحلاقين المعروف عنهم الثرثرة وحب المعرفة، وليست المعرفة الثقافية والاطلاع بالطبع، وإنما معرفة أحوال الناس وأخبارهم والتندر بها أمام زبائنهم، كما أنهم مشهورون بالبرود، لكن عم حلمي عكس هذا تمامًا، فهو رجل رصين قليل الكلام لا يتحدث إلا إذا بدأه أحد بالحديث، ويرد بإجابات مقتضبة غير مستفيضة وكأنه يصارع ليسكت مرة أخرى، في حين أنّ زوجته سعدية تعاني صمته الدائم على الرغم من أنها تعلّمت منه قلة الكلام، ثم أي كلام تقوله بعد صراخها مع صغارها طيلة اليوم، عم حلمي لديه ثلاثة أطفال أحمد ومحمد وحنان، أعمارهم بين الخامسة عشرة والعاشرة.
ويقابل بيت حلمي الحلاق بيت الأستاذ أحمد عبد الفتاح مدرِّس اللغة الإنجليزية بمدرسة المدينة الثانوية، وهو مترلٌ من طابقين، طلاؤه حديث حيثُ إنّ الأستاذ أحمد ورثه عن والده رحمه الله، وبعد عودته من الإعارة هدم البيت وبنى عمارة

حديثة، زوجته أمينة مدرّسة لغة فرنسية بنفس المدرسة، لديهما طفلتان، آيات وأميرة، وعمرهما بين الثامنة والسادسة.

ويجاور منزل الأستاذ أحمد منزلٌ كبير، مكوّن من طـــابقين، يشغله الحاج عبد الله أبو الروس صاحب أكبر ورشة نجـــارة في المدينة، والتي خرجت منها كل موبيليات العرائس في المدينـــة، بل في المركز كله، وفى الطابق الأول تسكن زوجة أخيه الشهيد إبراهيم الذي استُشهد في حرب أكتوبر تاركًا إياهـــا عروسًـــا جديدة، حاملاً في شهرها الخامس، أي أنه مات قبل أن يـــرى ابنه النور، وقد أسمته أمه على اسم والده، وظل الفتى يعيش في كنفها، حتى تزوّج وسكن في شقةٍ لا تبعُد عنها كثيرًا.

وفى الطابق الثاني من نفس البيت الحاج عبد الله وأسرته التي تتكون منه وزوجته سامية وابنه الأكبر سعيد وابنتيـــه ميـــادة ومنار، ثم الصغير كريم الذي وُلد على يد زوجة عمـــه كريمـــة فتيمنوا بها وأسموه كريم.

ويعتبر الحاج عبد الله من أغنياء المدينة وينفق الكثير علـــى أبنائه، إلا أن حظهم لم يكن وافرًا في التعلـــيم، كـــابن أخيـــه المحاسب، فابنه سعيد وصل الإعداديـــة و لم يكمـــل، وميـــادة حصلت على الدبلوم بصعوبة، ومنار وكريم مازالا في المدارس ومتعثران أيضًا.

في مقابل بيت الحاج عبد الله، يقبع بيت الأسطى عليوة سائق النصف نقل التي يُقل فيها الركاب بين المدينة وإحدى القرى المجاورة، يسكن مع زوجته آمال وحدهما، فليس لديهما أبناء في بيت من طابق واحد مظهره رث من الخارج إلا أنه مؤثث جيدًا ومرتب بعناية فائقة. وإلى جوار منزل عليوة، يوجد منزل الأسطى محمود النجار الذي يعمل لدى الحاج عبد الله أبو الروس، مساحته صغيرة جدًا، يخيل إليك أنك لا تستطيع تحديد متى بُني لفرط قِدَمه، مكوّن من طابقين يسكن فيهما ويأمل في المستقبل أن يعيش في الطابق الأول، ويترك لابنه الطابق الثاني ليتزوج فيه، رغم ضيق المساحة، والأسطى محمود من أمهر النجارين لدى الحاج عبد الله، فهو يُجزل له العطاء إلا أنه لا يكاد يكفيه ويستره هو وأولاده الأربعة، وأكبرهم هي صفاء الطالبة بالفرقة الأولى بكلية الحقوق، يليها سيد وعزت وسمية، وهم في مراحل التعليم المختلفة، وفي الإجازة الصيفية يعمل سيد وعزت مع أبيهما في الورشة، أما زوجة محمود وتدعى سيدة، فامرأة جميلة يشغلها جمالها والاهتمام بزينتها وإكثار الأساور الذهبية حول معصمها عن أي شيء في الدنيا، وهي سيدة شديدة الأناقة، وهذا سبب رقة حالهم ومعيشتهم الضيقة رغم دخل زوجها المرتفع لأنها امرأة مُسرفة بشكل كبير.

وفي مقابل بيت محمود، منزل آخر رث للغاية، صغير منخفض عن الشارع تنزل له درجتين عاليتين، ضيقٌ، لونه لا تعرف إنْ كان رماديًا أم أنه كان أبيض فلا أحد يدري، يسكن هذا البيت سلامة الكمساري بهيئة النقل العام، والذي برقبته ستة من العيال يذخر بهم البيت الضيق، وكأنه كُتب على سلامة هذا أن يعيش حياته محشورًا بين أجساد البشر سواء في الأتوبيس أو في البيت، وأكبر أبنائه فتحي يزامل صفاء ابنة الأسطى محمود في كلية الحقوق الفرقة الأولى أيضًا، يلي فتحي سماء طالبة الثانوية العامة ثم أمل في المدرسة الثانوية التجارية ذات الخمس سنوات، في الصف الثاني، يليها فريد في الإعدادية، ثم فوزي في الابتدائية، وأخيرًا إيمان في الصف الأول الابتدائي. بالرغم من المعاناة المادية التي يعيشها سلامة فهو يُعد أسعد مَنْ يسكن هذا الشارع، بل إنّ الود الذي يربط بينه وبين زوجته وأولاده ينعكس على هيئته، فتجده دائم الابتسام، صبوح الوجه مشرقًا، وكأن لا شيء يُعكر صفو حياته، لا دروس أبنائه التي تضلعه، ولا مصاريف الجامعة لابنه البكر، لا شيء إطلاقًا. ويجاور منزل سلامة، منزل آخر، يقتنيه السعيد جبر البقّال الذي يقع محله أسفل منزله، فيخدم أهل الشارع والأحياء المتاخمة له، والتي تتقاطع معه من الخلف، وهي دنيا أخرى منفصلة بنفسها وأهلها عن باقي المدينة، وتنتهي بيوتهم

عند شريط السكة الحديد.

عم سعيد كما اعتاد الجميع مناداته يُعتبر أكبر سُكّان الشارع سنًا هو وزوجته فايزة، له ولدان، ولكنهما لم يعودا ولدين، وإنما رجلان، تزوجا منذ سنوات ولهما أبناء وحياة كاملة، وكلٌّ منهما يعيش في بلد عربي، حيثُ يعمل طارق مدرسًا في الكويت، وسامح مهندسًا في عمان، بينما يعيش والداهما في وحدة قاتلة يتغلبان عليها بفتح دارهما لكل معارفهما وأقاربهما، ولا يبخلان على أحد، ويفكان ضيقة المعسر منهم، وكل من يقصدهما لا يعود خائبًا، وقد حجّا بيت الله ويعتمران كل عام، وكل أملهما أن يعود ولداهما للحياة بجوارهما.

في مقابل منزل عم سعيد منزل آخر تظهر عليه النعمة وبحبوحة عيش صاحبه وهو منزل عيد السيد الميكانيكي، واحدٌ من أغنياء العالم الحديث، بيته من طابقين، وعلى الرغم من أنّه مؤثث بأثاث غالٍ منفق عليه، إلا أنه يفتقر إلى الذوق والتنسيق، فعيد وزوجته نجاة لم تطأ قدماهما أرض مدرسة ولا يعرفان شيئًا سوى أنهما يعملان، كلٌّ له عمله، فهو يعمل بورشته التي مقرها على الطريق السريع يؤمها الكثير والكثير ممن يعلمون كم هو ماهر في حرفته، وهي تعمل في المنزل مع

أطفالها الأربعة الذين أتوا متوالين، يفرق بين كل واحد منهم عامٌ واحدٌ، وهم يتعلمون في مدارس خاصة، ويدرسون اللغات بينما الأب والأم من الجُهال.

هؤلاء هم سكان شارعنا وتلك هي منازله التي بدأ يستيقظ معظم سكانها مع أذان الفجر، فعم حلمي الحلاق يحرص على صلاة الفجر في الجامع، بينما الأستاذ أحمد عبد الفتاح يصلي الفجر ثم يتجه إلى الحجرة التي يعطي فيها الطلبة الدروس الخصوصية، حيثُ توجد مجموعة يُدرّس لها قبل موعد الدراسة دائمًا.

أما الحاج عبد الله فهو نادرًا ما يصحو في الفجر، حيثُ إنه لا يذهب للورشة قبل العاشرة، وعليوة السائق رغمًا عنه يصحو في هذا الموعد حتى يُجهز السيارة ثم ينطلق ليستقبل الركاب المتنقلين على الخط الذي يعمل عليه.

في حين أن عم سعيد البقّال منذ أنْ عرف زيارة بيت الله الحرام، وهو لا يترك صلاة في الجامع مطلقًا بل إنه أحيانًا ما يؤم المصلين.

بينما يستيقظ عيد الميكانيكي من نومه في الثامنة ليذهب إلى ورشته في التاسعة بينما صبيانه يفتحونها قبل حضوره بساعة كل يوم.

لم يتبق من سكان الشارع غير سلامة الكمساري ومحمود النجار والاثنان يستيقظان مع أذان الفجر ويحرصان على صلاته في الجماعة حتى في أيام الشتاء، مثل هذا اليوم الذي اشـــتدت برودته وتساقط الأمطار الخفيفة منذ منتصف الليل إلا أنَّ لكل منهما مشهدًا يختلف عن الآخر. الزمان وقد حددناه من قبـــل وقت صلاة الفجر بالضبط، المكان منزل الأسطى محمود حيثُ يَرقد الرجل إلى جوار زوجته التي تصحو كل يوم في العاشـــرة أو الحادية عشرة، غير مهم متى تستيقظ ولا تحب أنْ يوقظهـــا أحد قبل أن تقوم هي بنفسها، ولكن زوجها يـــستيقظ كـــل صباح في مثل هذا الوقت، فما إن تأتي الساعة الرابعة والنصف، حتى تجده يتململ في نومه، ويتقلّب على جانبيه إلى أنْ يصحو مع صياح المؤذن ((الله أكبر))، فتبدأ حركته في الحجـــرة وفي المنزل، وهذا يقلق السيدة زوجته، فتُسمعه كلمـــتين لاذعـــتين اعتاد على سماعهما دائمًا فلم يعد يبالى، ويخرج ليصلى وبعـــد الصلاة يذهب إلى الفرن ليحضر العيش الطازج ثم يعود لمنزلـــه ليوقظ أطفاله، ويُعد لهم إفطارهم حتى يذهب كل منـــهم إلى مدرسته، وكذلك ابنته صفاء في أيام دراستها حيثُ إنَّ لها ثلاثة أيام دراسة وثلاثة لا توجد محاضرات بها، ولكنـــها اعتـــادت الاستيقاظ المبكر مثل أبيها، وكلما حاولت أنْ تُعدّ هي الإفطار

بدلاً منه، يُثنيها عن ذلك ويقول لها: لا تحرميني متعتي الوحيدة، ويطبع قبلة على وجنتيها ويعطيها سندوتشًا لتأكله.

وفى الثامنة إلا الربع ينطلق إلى عمله حيثُ يفتح الورشة ويبدأ العمل حتى يأتي صاحبها في العاشرة.

المشهد الثاني في نفس الزمان، ولكن المكان هو مترل سلامة الكمساري حيثُ يرقد الرجل إلى جوار زوجته وهو يغطّ في نومٍ عميق بينما زوجته تهم أنْ تستيقظ، فهي تصحو في تمام الرابعة، تشغل نفسها بأي شيء حتى تسمع صوت المؤذن، فتذهب إلى حيثُ ينام زوجها وبيدٍ حنون تربت كتفه وهي تقول أبو فتحي اصحَ هتتأخر على الشغل.

وتظل تُكرر على مسامعه تلك الجملة حتى يصحو ويذهب لصلاة الفجر، ويعود كما عاد محمود مُحملاً بالعيش والفول والطعمية الساخنة، ويتناول إفطاره، وفى السادسة ينطلق إلى عمله، بينما زوجته التي اعتادت الاستيقاظ المبكر منذ كانت صبية في قريتها، وكأن ساعتها البيولوجية قد ضُبطت على هذا الموعد بالضبط، تظل تعمل بالبيت وتعد إفطار أولادها وتوقظهم حتى يتناولوا إفطارهم ويذهبوا لمدارسهم الواحد تلو الآخر، فهي لا تدعهم يخرجون جملة مع بعضهم أبدًا، فهي تخشى عليهم من عيون الحاسدين، إنهم ستة ما شاء الله.

(٢)

أوشكت الساعة أنْ تقارب السابعة والنصف حين أنهى فتحي ارتداء ملابسه وجلس بجوار شباك الحجرة التي يتشارك فيها وإخوته، كان الشباك يرتفع عن أرض الشارع مسافةً بسيطةً لا تزيد عن الأربعين سنتيمترًا، بحيث إنْ مدَّ أحدٌ قدمه عَبْرهُ صار في الشارع، كان الشباك مستطيل الشكل، طويلاً يَشغل تقريبًا نصف الجدار، فتلك البيوت القديمة كانت نوافذها على هذا الشكل لتعطى إحساسًا أكبر بالانطلاق والحرية، ومنفذًا لدخول أكبر كمية من الهواء إلى داخل المنزل.

جلس فتحي إلى جوار نافذته ينتظر أنْ تُفتح نافذة الجيران التي تشبه نافذته تمامًا وتقابلها مباشرة، وأخيرًا تنفس الصعداء، فلقد فُتحت وأطلت منها صاحبتها وابتسامتها العريضة تملأ وجهها الذي يُشع بهاءً وضياءً.

قابل فتحي ابتسامة صفاء بابتسامة أكثر إشراقًا وقال: صباح الخير.

بادلته التحية فبادر وسألها: هتخرجي إمتى؟ هتتأخر؟

قالت: هستنى إيمان وسارة..لسَّه بحوش.

ثم نظرت إلى مبدأ الشارع لتجدهما أمامها، فقالت له: جم أهه، شخرج دلوقتي، وخرجت صفاء والتقت زميلتيها وقبل أن

تصلا إلى مترلها تبادلن التحية وسرن سويا، وخـــرج خلفهـــن فتحي كعادته كل يوم، سار حتى لحق بهن، نظر إليهن نظـــرة سريعة ثم أدار وجهه بسرعة، وكذلك فعلت هي، وتخطـــاهن بخطوته الواسعة حتى التقى أشرف زميله على ناصية شـــارعه، وسارا سويًا حيثُ محطة القطار، لمْ يضطر أي منهم إلى قطـــع تذكرة، فكلهم لديهم اشتراكات بالقطار.

كان أشرف مع صفاء وفتحي بنفس الكلية، بينما كانـــت إيمان وسارة في كلية التربية النوعية، والجميع كانوا على علمٍ بما يختلج في صدريهما من حبٍ كبير نما مع الزمن.

لم يكن باستطاعة أي منهما أنْ يسير إلى جوار الآخـــر في طريقهما إلى الكلية فالتقاليد والعرف يمنعان ذلك منذ أنْ حلت الأنثى محل الطفلة والرجل زحف حثيثًا إلى نفس الطفل الصغير، حتى أقيمت المتاريس بين اثنين لم يفترقا بتاتًا إلا في ساعة النوم، فأصبحا يتلهفان الوصول إلى الكلية ليجلسا سويًا ويتحـــدثان معًا حتى في قاعة المحاضرات.

حين تنظر إليهما تشعر أنْ كلا منهما يُكمل الآخـــر، وأنَّ بينهما شبهًا كبيرًا ومن يراهما لأول مرة يعتقد أنهما إخوة.

سبقها فتحي إلى الدنيا بخمسة عشر يومًا ومنـــذ ولادتهمـــا وهما معا، وبعد ولادتهما بثلاثة أشهر ولدت ميادة ابنة الحـــاج

عبد الله، فصار الثلاثة معًا يلهون ويلعبون، وفى المدرسة هم في نفس الفصل، كان من المنتظر أن تصبح ميادة أقرب صديقات صفاء وموضع سرها، إلا أنَّ ميادة لم تترك للحب أو للصداقة سبيلاً للدخول إلى قلبها، فمنذ أنْ بدأت الفتاة تعي وتفهم وصدرها يفور بالحقد والغيرة منهما، فهما يتفوقان عليها دراسيًا، متقاربان بشكل كبير عنها، يكفى أنَّ الكلمة نفس الكلمة تخرج من فمهما في نفس اللحظة، رأياهما واحد في كثير من الأحيان، لذا فكلما مرّ يومٌ، شعرت بالابتعاد عنهما واتساع الهوة بينها وبينهما، لذا وجب عليها التميز عنهما، وكيف لا تتميز وأبوها من الأغنياء، فكانت تتفاخر أمامهما بملابسها الجديدة دائمًا والفاخرة نوعًا والنقود التي معها تشترى بها ما تشاء وقتما تشاء، بينما لم يكن في استطاعة فتحي وصفاء في أغلب الأحيان أن يمتلكا حتى ثمن زجاجة المياه الغازية، وإذا تجمع ثمنها الضخم -بالنسبة إليهما- اشتريا الزجاجة واقتسماها سويًا، فلم يكن يطيب لأي منهما الاستمتاع بشيء دون الآخر حتى وإن كان قطعة حلوى.

وما زاد الحقد في قلب ميادة أكثر وأكثر، أنَّ صفاء فتاة دمثة الخلق رقيقة المعشر ويُشاركها فتحي صفاتها، لذا كانا يحظيان بحب من يعرفهما حتى أطفال الشارع الأصغر منهما، في حين عُرف عن ميادة عصبيتها المفرطة وزهوها بنفسها

وتفاخرها وسخريتها من الآخرين، فكان الكـــثيرون يُـــؤْثرُون الابتعاد عنها وعدم اللعب معها، ولكن فتحي وصـــفاء كَانـــا يقنعوهم بعكس ذلك ويتحملان سيطرتها وغطرستها لأنهما إنْ تخليا عنها وتركاها لن تجد من يشاركها اللعب لعزوف الجميع عنها.

وظلا معها هكذا، متسامحين إلى أبعد الحدود، حتى أتى يومٌ منذ أربع سنوات، وبالتحديد حين كانوا في الرابعة عشرة مـــن عمرهم، جميعًا بالطبع، كان يومًا صيفيًّا حـــارًا، وفى الإجـــازة الصيفية اعتاد فتحي منذ أن كان في العاشرة أنْ يعمل في ورشة والد ميادة فترة النهار، وفى هذا اليوم عاد الحاج عبـــد الله في المساء ليجد ميادة تبكي وتولول وأمها تسب وتلعن وتتوعـــد، فانزعج الرجل وسأل: إيه اللي جرى؟ لم يجبه أحد فاستـــشاط غضبًا وصاح قائلاً: ما تردي إنتي وهيّ.

لم تستطع ميادة الإجابة بينما انطلقت أمها كالمدفع قائلـــة: الواد فتحي لما جه بالحاجة اللي إنت بعتها كان عايز يبوســـها بالعافية.اشتعل الرجل غضبًا وقال: إيه؟ يبوسها بالعافيـــة؟!!! وإنتي كنت فين؟!!

أجابت على الفور: فوق السطح بأكل الطيور، ماشفتوش، أنا نزلت لقيت بنتك مفطورة من العياط.

وخرج الرجل من بيته مسرعًا وشرر الغضب يتطاير منـــه، يسب ويلعن ويتوعد هو الآخر، وانطلق إلى بيت سلامة أبـــو

فتحي، رأته صفاء من النافذة وهو يدق باب سلامة بقوة ففتح له الرجل وعلى وجهه ابتسامة وهو يرحب به، ولكن عبد الله دخل عنوة وأخبر سلامة بما حدث، فأخذ يعتذر للحاج عبـــد الله بشدة، فهو لم يجد شيئًا يُبرر به خطأ ابنه الجسيم، ومـــشى عبد الله بعد أنْ أخبر سلامة إنه لو رأى هذا الولد في الـــشارع أو في الورشة أو حتى قابله صدفةً فلن يحدث طيب.

لم يكن هناك أحدٌ أكثر غضبًا من سلامة، فحين علم بمـــا فعله ابنه شعر بغُصة ومرارة وتوقع سوء المصير، ففي هذه السن يفعل هذا، إذن بعدً عدة سنوات وحين يصير رجـــلاً كيـــف سيكون حاله؟ بالتأكيد سيكون شخصًا منحرفًا يسكن خلف أسوار السجون، إنه لمْ يَكن يريد لولده البكر هذا المصير، إنـــه يريده أن يكون شيئًا، لذا انطلق نحو حجرة فتحي الذي جلس داخلها يرتعد من الخوف، وهبَّ الفتى واقفًا حين دخل أبـــوه الحجرة وشرر الغضب يتطاير من عينيه فسارع الفتى يقـــول: والله ما عملت حاجة دي كدابة أنا ادتها الحاجة ونزلت علـــى طول يا بابا والله ما عملت حاجة.

كانت صفاء ترقبهم من النافذة وسمعت كل شيء.

ولكن سلامة لم يستمع لابنه، وصفعه صفعةً قوية أوقعتـــه على الأرض، وحلّ حزام بنطاله، فلقد كان لتوه عائـــدًا مـــن عمله ونزل بكل ما فيه من قوة على جسد الفتى النحيل الـــذي ظل يُقسم أنه لمْ يفعل شيئًا وأنها كاذبة.

لم يستطع أحدٌ الاقتراب من سلامة وهو في أوج غـــضبه، حتى زوجته لْم تتمكن من أنْ تحول بينه وبين ابنــــه في تلـــك اللحظة، ولأنها أيضًا غاضبة من سوء فعل ولدها، كما لم تشفع صرخات الولد لديه حتى يكف.

وأخيرًا كَفّ سلامة عن ضرب ابنه، وترك الحجرة ودخــــل إلى حجرته، وتبعته زوجته وهي تقول: أنا مش هدافع عنــــه، بس مش ممكن يكون بريء، وبجد معملش للبنت دي حاجة؟

وقبل أنْ يرد عليها ترامى إلى مسامعها صوت ابنها فأنصتت للصوت جيدًا.

فلقد قام فتحي من على الأرض وصعد إلى سريره أســــفل الشباك ليجد صفاء أمامه وعيونها تفيض بالدمع فقال: والله يــــا صفاء ما قربت منها، ولا عملت لها حاجة. دي كدابة.

وجذبت أم فتحي زوجها ليستمع إلى هذا الحوار هو الآخر حين قال فتحي: أبويا مش عايز يصدقني وهو اللـــي مــــربيني صدقيني أنت يا صفاء.

قالت صفاء وهي لا زالت تبكي: مصدقاك يــــا فتحـــي، وعارفة إنك لا يمكن تعمل حاجة زى دي.

- أمال بتعيطي ليه؟

- عشان إنت اتظلمت، وملكش ذنب.

- طب عشان خاطري بطّلي عياط.

- حاضر. بس اضحك أنت الأول.

- مش قادر.

- والنبي، عشان خاطري.

وابتسم الفتى رغم ألمه وبادلته هي الابتسام، ثم قالت: هدخل.. أحسن أمي بتنده عليّ.

وهنا قالت أم فتحي: عرفت يا سلامة إن ابنك عمره ما يعمل كده، لأنه ببساطة ما بيطيقش ميادة، وصفاء عنده بالدنيا، ولا يمكن يعمل حاجة تزعلها منه أبدًا.

قال سلامة: يمكن تكوني على حق، ثم صمت قليلاً وقال: قومي قولي له يجي يتعشى معانا.

قالت: مش هيرضى.. أنا عارفاه كويس.

قال سلامة: بس روحي اندهي له.

ذهبت أم فتحي حيثُ يرقد ولدها على سريره وقالت: يلا يا فتحي عشان تاكل مع أبوك وإخواتك.

قال الفتى بصوت واهن: لأ مش عاوز آكل.

ـــ قوم يا حبيبي عشان خاطري.

- قلت مش عايز آكل.. أنا هنام.. مش جعان.

ذهبت إكرام إلى زوجها تخبره بعزوف ابنهما عن الطعام، وتركته لتذهب إلى المطبخ لتأتي بالعشاء، بينما ذهب الرجل لحجرة ولده، فما إن رآه حتى اعتدل من رقوده، فجلس سلامة إلى جواره وقال: يلا قوم عشان تتعشى معانا.

- مش عايز، مش جعان.

- قوم يا فتحي بقول لك.

- أنا ما عملتش حاجة، والله ما عملت حاجة عشان تضربني، صدقني ما عملتش حاجة.

- مصدقك يا حبيبي.. بس هي ليه تعمل كده؟

- مش عارف.. طول عمرها حقودية.

وأخذ الرجل ولده في حضنه، وضمه إليه بشدة، وقال له: أنا آسف.

فبكى الفتى وهو يقول: يعني إنت مسامحني؟

- طبعًا. أنا عملت كده عشان خايف عليك، مش عشان أرضي أبوها، وبعدين فيه راجل بيعيط يا وَلَه؟

وجذبه من يده ليخرج به حيثُ يجلس إخوته وأمه الـــذين تهللوا حينما صالح أبوهم فتحي، بعد أنْ عَم الهم والغـــم كـــل سكان المترل، وبعد انتهائهم من تناول العشاء، جلسوا جميعًـــا بعض الوقت، ثم دخل سلامة حجرته مع زوجته فقال لها: إنتِ عارفة إيه اللي مضايقني بجد؟

إكرام: إيه يا سلامة؟

سلامة: إن البنت صفاء الصغيرة دي تصدقه وإحنـــا أبـــوه وأمه اللي مربيينه وعارفينه كويس ما نصدقوش!

إكرام: إحنا عملنا كده بسبب خوفنا عليه وغيرتنـــا علـــى مستقبله.

سلامة: لكن مديناش نفسنا الفرصة نسمعه زى صفاء.

ضحكت إكرام وقالت:الحب بقى.

سلامة: حب إيه في سنهم دي؟

إكرام: يا سلام يا خويا.. قال يعنى ما كنتش بتحبنى مـــن وإنت في سنه دي. مش قلت لي كده؟

سلامة: وإنتِ مش كنتِ بتقعدي تبصي عليا في الرايحـــة وفى الجاية؟

إكرام: غلطانة، أنا اللي كنت بحبك.

سلامة في انزعاج وقد ذهبت ابتسامته: كنتي!!! ودلوقت يا أم فتحي؟

إكرام في دلال: بحبك أكثر يا أبو فتحي.

وضحكا بشدة حتى خشيا أنْ يسمعهما أطفالهما.

ومنذ ذلك اليوم قاطع فتحي وصفاء ميادة و لم يتلفّظا معها بأية كلمة وإن كان حتى إلقاء التحية.

مرت الأيام كئيبة متعبة، إحساس فظيع بالظلم يجتاح نفس الفتى الصغير، تعلّم طعم المرار وهو في تلك السن، إلا أنه بعد أسبوع فقط، حدث شيء لم يكن متوقّعًا على الإطلاق، فلقد كان سلامة وزوجته وأولاده يجلسون كعادقم بعد رجوع سلامة من عمله أمام التليفزيون، في تلك الليلة الصيفية الجميلة سمعوا دقًا على الباب، فقام فريد ليفتح الباب، فإذا به وجهًا لوجه أمام الحاج عبد الله، فدهش الفتى حتى إنه لمْ يستمع إلى الحاج وهو يسأل عن أبيه الذي ما إن ترامى إلى مسامعه صوت الحاج عبد الله، حتى قام إليه على الفور، ورحّب به، فقال الرجل ووجهه إلى الأرض خجلاً: آسف يا سلامة.

تعجّب سلامة وقال: آسف على إيه يا حاج؟

ـــ ظلمت ابنك، والهمته من غير ما أتحقق من كلام بنتي، عماني الغضب.

- يعني إيه الكلام ده؟

- يعني ابنك بريء وبنتي هي الكدّابة، أنا عرفت الحقيقة منها بنفسها.

- صحيح يا حاج؟

- صحيح ومن بكره إنْ شاء الله يرجع الورشة ينوّرها وربنا يخليهولك.

- ربنا يخليك يا حاج ده إنت شِلت من على قلبي هم كبير.

- ربنا ما يجيب هم يا سلامة ويحفظ الود بينا.

وانصرف عبد الله تاركًا البيت المهموم سعيدًا فرحًا، وجرى فتحي نحو حجرته، ووقف في النافذة ونادى صفاء بالإشارة المتفق عليها بينهما، فخرجت بسرعة إليه وقالت: في إيه يا فتحي، خير؟

- خير يا وش الخير، الحاج عبد الله جه واعتذر لي، وقال إن بنته كدبت عليه.

- صحيح الكلام ده؟

- صحيح يا صفاء، بس أنا مش عارف إيه اللي خلاها تغيّر موقفها!

- عندك حق، إيه اللي خلاها تغيّر كلامها؟

لكن لم يشغلهما الأمر طويلاً، فالفرحة أنستهما أي كلام.

وفى اليوم التالي ذهبت صفاء لمترل فتحي وهى متهللة فرحة، فقالت لها أمه: - - خير إيه اللي مفرّحك كده يا بنتي؟

وسألها فتحي السؤال ذاته فقالت: عرفت الحقيقة وإيه اللي خلّى ميادة تغيّر كلامها وتقول الحق.

صاحت أم فتحي: إيه يا صفاء، اتكلمي بسرعة، قولي.

- أبويا هو السبب.

قال فتحي: إزاي ده؟

صرخت صفاء: ما تقاطعنيش بقى، وصمتت برهة ثم أكملت قائلة: أبويا شافها مرة واقفة مع واد ساكن في أول البلد ما خدش في باله، وسكت، وبعدين شافها مرة ثانية، وبعد الكلام اللي قالته عنك، شافها تالت مرة، فلم يسكت، ذهب حيثُ كانت وشدّها من دراعها، وساعة الواد ما شافه جرى بسرعة وقال لها: شوفي بقى شفتك تلات مرات مع الواد ده، وهروح أقول لأبوك، خافت ميادة وقالت له: لأ.. في عرضك يا عم محمود.

قال لها أبويا: عايزاني ما أقولش؟ روحي قولي الحقيقة لأبوكي.. قولي له إنك كدبتي، وافتريتي على فتحي.

قالت: بس................

قال: من غير بس.. بقول لك لتقولي لأبوكي الحقيقة، لا أروح أقول لأبوكي علي اللي أنا شفته.. وإنتي عارفة إن أبوكي بيصدقني، وراحت قالت له، وجه اعتذر لك.

صاحت أم فتحي في فرح: ربنا يخليكي يا وش الخير، ده إنتي تستاهلي حاجة حلوة على الخبر الحلو اللي زيك.

قالت صفاء وقد احمر وجهها في خجل: شكرًا يا خالتي.

نظر إليها وقال: طول عمر الخير بيجي وراها، وفي إيدها،وطول عمرها بتسعدني وتفرّحني.

- بجد يا فتحي.. بفرحك؟

- طبعا.. لأنك الحاجة الحلوة في حياتي.

ازداد خجل الفتاة، وانصرفت على الفور قبل أن تأخذ الحاجة الحلوة التي دخلت أم فتحي لتجلبها لها، فأرسلتها إليها مع ابنتها الصغيرة.

(٣)

في الكلية، جلس فتحي إلى جوار صفاء في المدرج، وفتحا صفحة جديدة ابتدءاها بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)، وكتبا التاريخ (العشرون من فبراير، عام ألف وتسعمائة........)

كان أول يوم لهما في الفصل الدراسي الثاني من عامهما الجامعي الأول.

منذ بداية دراستهما في الكلية وهما لا يفترقان، فهو إلى جوارها في كل محاضرة، يتابعان ما يقوله الأستاذ في الكتاب، أو حين يكتبون خلفه، فهما يكملان الكلمات من بعض، حتى في المساء يجلسان أحايين كثيرة في إعادة كتابتها بخط واضح وبنظام حتى تسهل مذاكرتها بعد ذلك.

من يتطلّع إلى وجه صفاء قد لا يشعر بالراحة لأول وهلة، ومن يتعامل معها يتعجب من استكانتها الواضحة، ولين عريكتها، لأنّ وجهها ينطق بقوه غريبة، قوة خفية لا تظهر في تصرفاتها مما يُثير تعجب الآخرين، فعيونها واسعة عميقة حاجباها غليظان متصلان بشكل يُعطيها القوة التي تؤهلها لتكون شخصية قيادية، جبهتها العريضة وشفتاها الغليظتان بعض الشيء وشعرها الذي لمْ يكن طويلاً ولم يكن ناعمًا، قالت لها مرة إحدى زميلاتها إنّ جمالها من النوع المثير وليس

من النوع الهادئ الذي يستمتع المرء بالنظر إليه مدة طويلة، إنها ذات جمال يريد معه المرء اقتناصها دون تردد.

لكنها لم تُعر هذا الكلام انتباهًا، فإنّ ما يتردد داخلها وما تشعر به أبدًا لا تُحدث به أحدًا، حتى فتحي، كل ما يدور في نفسها ملكها وحدها، وهى لا تقول إلا ما تريد أنْ تقوله، وغير ذلك فهي لا تُفصح عن شيء.

إنها كيان مستقل بذاته، صندوق مغلق على محتوياته، وبداخله مفتاحه، لا يحقّ لأحد أنْ يفكر حتى بمحاولة اختراقه.

لها معتقداتها الخاصة، وأفكارها، وآمالها، وكل ذلك لها وحدها، فهي تساير مجتمعها في كل ما يطلبه منها، تسير وفق تقاليده، بل وتشارك في إحيائها، كأنها فرد ممن صنعوا تلك التقاليد، رغم أنّها من الداخل غير ذلك، فهي على اختلاف كبير مع الناس، ومع الشارع، ومع التقاليد، وإنْ كانت تتصرف بعكس ذلك، وهذا ليس لأنها لا تمتلك الجرأة لمواجهة الآخرين بمعتقداتها ورغباتها، ولكن لأنّ هناك شيئًا بداخلها هي، تعرفه هي وحدها يحول بينها وبين البوح بمكنوناتها.

انتهت المحاضرة، وخرج الطلبة من المدرج، وبقى فتحي، لأنّ صفاء مازالت جالسة، قال لها: يلا مش هتخرجي؟

-لا هستنى شوية.

- ليه؟

- إيمان وسارة هيعدوا عليّ دلوقتي.

- بس إحنا لسه ورانا محاضرات.

- مش هحضر باقي المحاضرات هخرج معاهم.

ــ فيه إيه يا صفاء من إمتى بتسيبي محاضرة؟

- إيه يا فتحي؟ طلبة الحقوق كلهم مــا حــدش بيهمّــه الحضور، وإنت عارف، حتى وانْ غبت، مش هيلاحظ حــد إنك غايب.

- طب هتروحي فين؟

- مش عارفة إحنا هنتمشى ونشوف المحلات.

- هشوفك في المحطة.

- هقابلك على قطر تلاتة ونص، وصمتت برهــة قبــل أن تواصل حديثها: أهم وصلوا، باي يا فتحي.

ــ باي، وصمت برهة ثم أردف مناديًا: صفاء.

- نعم.

- خلي بالك من نفسك.

ابتسمت ثم انصرفت.

ودارت رأس فتحي، لم تكن صفاء هكذا من قبل، لم تكن أبدًا لتترك محاضرة ودائمًا تذاكر، ما الذي حدث؟! أسئلة كثيرة دارت برأسه لم ينقذه منها سوى مجيء أشرف وخروجهما لشرب الشاي، خرج فتحي مع أشرف وذهنه مشغول بأمرها حتى إنّ أشرف سأله عن سر شروده فأخبره.

فقال له أشرف: إيه يا فتحي؟ ما تسيبها يا أخي تخرج مع صاحباتها..حلْ عنها.. إنت ما بتزهقش؟

-أنا؟! أنا أزهق من صفاء؟!!! أبدًا، طب أزهق إزاي، حد يزهق من نفسه؟ من دمه اللي بيجري في عروقه؟ من الهواء اللي بيتنفّسه؟

- يا سلام يا سيدي.. إيه يا ابني ده كله؟ ده إنت شوية، شوية هتقول فيها شعر!

كان فتحي يرى الدنيا بعينيها، أحلامه كلها معها، لْم يعرف غيرها، ولم يهوَ سواها، إنها كل عمره الصغير.

وفي الثالثة كان في محطة القطار، وبعد قليل جاءت هي بصحبة إيمان وسارة، أسرع إليها قائلاً: حمد الله على السلامة.

-الله يسلمك، أما يا فتحي شوفنا شوية حاجات تجنن!

-انبسطي؟

- جدًا، كان أحلى يوم.

أخرج فتحي من جيبه باكو بسكويت، وأعطاه لها، فرفضته قائلة: لا يا فتحي أنا أكلت.

-أول مرة ترفضي حاجة بديها لك.

-إنت زعلت؟ مش قصدي يا توحة.

لم تتغير صفاء كما ظن فتحي، فهي كما هي، وإنما هي في سبيلها لإطلاق ما ظَلَ حبيسًا في عقلها وقلبها، ولكن مـــازال الوقت مبكرًا لذلك، فهي بعد لم تقرر متى يحين الموعد.

وصل القطار إلى المدينة ووصل كلٌ إلى بيته.

وما إنْ ولج إلى بيته حتى تهللت أسارير أمـــه، وأخذتـــه في حضنها قائلة: حمد لله على السلامة، يلا يا حبيبي على ما تغير هدومك أكون حطّيت الأكل.

دخل فتحي ليستبدل ملابسه، وضع كتبه على تلك المنضدة الصغيرة التي يذاكر عليها، ثم خلع قميصه، وبنطلونه، والبلوفر الصوف وعلّقهم بعناية، فهو برغم قلة عدد ملابسه، إلا أنّـــه يُحافظ عليها، ويحرص على أنْ تكون مُنسّقة، وأنيقة، فيبـــدو مظهره جيدًا، وارتدى ملابسه المنزلية ثم فتح الشباك رغم برودة الجو في شهر فبراير وانتظرها.

دخلت البيت وهى تقول: سلامٌ عليكم، قالت أمهـــا وفى يدها مبرد تقليم الأظافر: وعليكم الـــسلام، حمـــد الله علـــى

السلامة.. يلا غيّري هدومك، الأكل في المطبخ، سخنيه، وكلي، وواصلت تقليم أظافرها.

دخلت حجرتها، ألقت بكتبها على مكتبها ثم غيّرت ملابسها، ونثرتها على السرير، وارتدت بيجامتها وهمت أن تخرج إلى المطبخ ولكنها تراجعت حيث ذهبت إلى الشباك وفتحته، ليطالعها وجه فتحي بابتسامته الهادئة وهو يقول: هبّض المحاضرات، وهجيبها لك.

- شكرًا يا فتحي.

-أمي بتنده عليا عشان آكل.. ما تيجي تاكلي معايا.

-أنا هدخل أسخّن الأكل ما تيجي إنت.

- لو معجبكيش الأكل هستناكي.

ودخل كل منهما ليتناول طعامه.

مازال فتحي منشغلاً بأمرها، أما هي فقد بدأ رأسها يدور، منذ فترة تفكر وتفكر، وقد حان الأوان لرفع راية العصيان والتمرد، بات حثيثًا رغبتها في إظهار آمالها، وطموحها الذي ظلّ مكبوتًا داخلها، تريد الخروج للنور وللحياة، وهي تُحجّم نفسها بقدر ما تستطيع، لم تكن تريد أنْ يتهمها الآخرون بأنها متمردة، غير راضية بمعيشتها، ومعيشة أهلها، نساظرة إلى مَن يفوقونها غنىً ومكانة، لم تكن تريد أنْ يظنها الناس منذ صغرها هكذا، لذا فلقد حرصت على الكتمان، حتى عن أعز الناس.

ولكن ماذا تفعل حتى تصل إلى ما تربو إليه، وما تتمناه؟ إنَّ طموحها ليس في المال وإنما في مكانة اجتماعية مرموقة، ولم يَكن يشغلها كونها ابنة عامل في ورشة نجارة، كل هذا لم يكن يشغل بالها، إنَّ ما تفكر فيه حقًا، ويحيّرها هو كيف لها أنْ تبدأ الطريق لتصل لمرامها؟ كانت تدور مع صديقاتها في الشارع وكل ما تفكر فيه هو كيف تنطلق؟ كيف تواجه الجميع برغبتها؟ وكيف تواجه فتحي الرومانسي الحالم الطيب طيبة أبيها؟!!

أبوها وأمها السبب الرئيسي في دفعها للتمرد، فحب أبوها لأمها يجعله يصبر على أفعالها وتبذيرها، وقوتها الواضحة المهيمنة عليه، لقد تعلّمت من أمها الكثير والكثير، تعلمت أن تكون في قوتها، وعنفوانها وصلابتها، وأهم ما تعلمته وأتقنت طوال السنوات الماضية تعلمه، هو ألا تكون كأمها في لامبالاتها، في إهمالها، في تبذيرها، وورثت عن أبيها رغمًا عنها أنْ تعطي مثلما تأخذ، لأن الأخذ على الدوام هو الأنانية بعينها، لكن والدها البسيط اعتاد العطاء دون النظر إلى ما يأخذ، أما هي فقد وعت الدرس، وأصبحت تُعطى بقدر ما تأخذ، فلا تكون مدينةً لأحد ولا أحد مدين لها، ولكن الأهم هو أنْ يكون كل شيء يخدم نفسها وحدها.

بعد الانتهاء من طعامها، جلست تُعدّ خطتها للوصـــول إلى ما تأمل، واهتدت إلى أنَّ أول الطريق هو الانفتاح على المجتمع الجديد الذي دخلته، و لم تفكر لحظة أنْ تكتشفه ظنًا منها أنهـــا مازالت في مرحلة انتقالية، دون أن تعرف أنَّ قـــدمها وطـــأت بالفعل أول درجة في السلم، ولابد أنْ تـــصعدها، والـــسبيل الوحيد هو عدم الانغلاق على مجتمع شارعها الضيق ومدينتها الصغيرة.

إنَّ الكلية بها من كل مكان في الجمهورية طلبة وطالبات، لَمِ لا تحاول الولوج إلى عالمهم ولو حتى من بعيـــد، لابـــد مـــن الخروج من دائرة فتحي وسارة وإيمان وأشرف، لابد مـــن أن يكون هناك صلات بالآخرين وعلاقات تفتح الطرق المغلقـــة وتسهّل الدروب العسيرة، وتقرّب الآمال البعيـــدة، وحينمـــا وصلت إلى تلك المرحلة، سمعت دقات على بـــاب حجرتهـــا، دقات تعرف صاحبها قدر معرفتها بنفسها فقالت: ادخل يـــا فتحي.

دخل وهو يبتسم ويقول: أنا قلت نبيّض المحاضرات ســـوا، وأعوض الوقت اللي غبتي فيه النهارده.

قابلت كلماته بابتسامة لم يعرف مغزاها ثم قالـــت: يـــلا نكتب يا رايق.

وصمتت قليلاً قبل أنْ تُكمل حديثها: إلا ما سمعتش حاجة عن نتيجة أعمال السنة النهارده؟

- بيقولوا لسه أسبوعين كمان، إيه؟ خايفة؟

- يعني.

- طول عمرك بتقلقي من النتيجة، بس أنا واثق إنك هتنجحي، وبتقدير، وبعدين دي امتحانات أعمال سنة.

- تقدير إيه يا ابني، إنت مسمعتش إن مفيش حد بياخد تقدير في الكلية دي أبدًا؟ وإن معظم الطلبة يا إما مقبول يا إما شايلين مواد والباقي بيعيد السنة!

- نفسي تبقى متفائلة.

- وأنا نفسي تبقى واقعي.

- هو حرام نحلم؟

- الحلم مش حرام، بس نكون قادرين نحققه، أو على الأقل تكون حساباتنا بتقول إن ممكن تحقيقه.

- حسابات إيه في الأحلام يا صفاء؟

- لازم تحسب يا فتحي، المجتمع اللي إحنا عايشين فيه بيقول إنك إن ما درستش كل شيء بعناية، وبجد مش هتقدر تحقق أي شيء.

- كان من باب أولى تخشى تجارة، مش حقوق.

- حوّل كل كلامنا لهذار وأنا بتكلم بجد.

- جد إيه يا شيخة سيبنا نعيش سننا.

لم يكن برأس فتحي ما برأس صفاء، و لم يستطع التوصل من كلامها إلى ما تريده أنْ يصل إليه، هي تعلم أنّ إيصاله إلى تلك المرحلة التي وصلت إليها أصعب مما تتخيل، لأنه ببساطة غير مؤمن بما تعتقد، لذلك فهي ستحاول ولكن دون أنْ تتأخر عما رسمته لنفسها، حتى وإنْ اضطرت لعمل شيء غير متوقع.

وفي أثناء جلوسهما سويًا، ترامى إلى مسامعهما صوت شجار وصياح، فلقد كانت كريمة أرملة شقيق الحاج عبد الله تصيح بصوت جهوري في أطفال الشارع الذين مسحوا أيديهم المتسخة في غسيلها المنشور، ولأنها تسكن في الطابق الأول، فغسيلها قريب من الأرض، ولهذا دائمًا ما كانت تجده متسخًا، من فعل الأطفال، ولكن تلك المرة رأتهم بعينيها، كانوا أولاد جودة السمسار وشوقي العلاف الذين يقطنون الشارع الخلفي.

وما إنْ سمعا صياح كريمة حتى هبَّا إليها ليساعداها، رغم استياء صفاء من تفاهة مشاكل الشارع وخناقهم المستمر والمشاجرات المنتشرة بسبب جارة نشرت غسيل فوق غسيل جارتها، أصوات الأطفال العالية حين تلعب في الشارع وصياح

أحد الجيران لأنها تزعجه، وقد يكونون جيرانًا آكلين نائمين سويًا ويتشاجرون أمام كشك العيش لرغبة أحدهم أنْ ينصرف أسرع من جاره، الكثير والكثير، وكأن الدنيا خلت من المشكلات حقا لنتشاجر حول التفاهات التي بقليل من النظام سوف يتم التغلب عليها، فلو حددت الجارات يومًا لكل جارة للغسيل، لما نشرت إحداهما على غسيل الأخرى، وإذا أرادت واحدة خرق النظام لسبب طارئ فيجب عليها استئذان جارتها أولاً.

وإذا فتحنا مراكز الشباب للصبية والبنات على حد سواء لممارسة الرياضة واللعب، لما سمعنا جارًا يصيح في طفل لأنّ صوته يزعجه، ولو علّمنا أطفالنا أنّ لكل فرد منا حرية شخصية يجب أنْ ينالها دون أنْ يضر بها غيره، وأنّه يجب أنْ يحافظ على ملكيات غيره، كما يحافظ على ممتلكاته، لما سمعنا عن عبث أحد بأشياء غيره.

ولكنه الناس في بلدنا أصبحوا ينسون مشكلات بلدهم التي تغرق في بحور من التأخر والتخلف، ينسون غلاء الأسعار، ورداءة الصناعة المحلية، وغزو المنتجات الأجنبية لسوقنا المصري وفرض نفسها علينا، نسوا انفتاح أسواق التجارة العالمية، وعدم وجود ضوابط على الاستيراد الذي من مضاره أنْ نغرق أكثر وأكثر، ومن الممكن بل من المؤكد أنْ تنهار صناعاتنا أمام

السيل المتدفق من الخارج ناتج التكنولوجيا الحديثة إذا لم نتطور بدرجة تفوق كل شيء، متحدين الوقت والموارد والزمن، نسينا كل هذا و لم يعد يشغلنا سوى تلك المشكلات الصغيرة التي تملأ حياتنا!

أفاقت من شرودها على صوت كريمة وهي تقـــول لهـــا: افتحي المية شوية يا صفاء عشان الهدوم تنضف.

- كده كويس يا خالتي؟ ده فيه شعوب مش لاقيـــة الميـــة وإحنا بنبعترها يمين وشمال!

رد فتحي: صفاء، خالتك كريمة مـــش حِمـــل مناقـــشات معاكي.

- وهو أنا اتكلمت؟ أنا بقول الحـــق، بكـــره يجـــي يـــوم ومنلاقيش نقطة المية وساعتها بس هنفوق ونعـــرف إن إحنـــا السبب لأننا ما حافظناش على نعمة ربنا.

قالت كريمة في عفوية:يا بنتي ربنا الرزاق.. ثم إحنـــا فـــين وبكره فين؟

قالت صفاء وقد أخذتها الحمية: بكره قريـــب قـــوي يـــا خالتي.. بكره بتاع ولادي وأحفادك اللي في يوم مـــن الأيـــام هيبقى نفسهم يسألونا إنتم سبتوا لنا إيه؟ السؤال اللي بتـــسأله كل الأجيال اللي سبقوا، بس الأجيال اللي جاية حياتها هتبقى أصعب، لأن الزمن كل يوم بيصعب عن اليوم اللي قبله، الموارد

بتقل، وقيمة البني آدم بتقل، وربنا يا خالتي هيسألنا إنتم عشتم في الدنيا اللي وهبت لكم فيها كل النعم عملتوا بيهـا إيـه؟ استمتعتم بيها ومتعتم غيركم ولا كنـتم أنـانيين وخـدتوها لروحكم؟

صرخ فتحي فيها: صفاء بالراحة إنتي مش في مؤتمر سياسي!

قالت صفاء في حدة: الأسرة دولة..وشارعنا مجموعة دول، لابد من التنسيق بينها حتى تسير الأمور وفق النظام المتفق عليه، ومدينتنا الصغيرة هي العالم الذي نحيا بـه، وفي ظـل العولمـة الجديدة يجب أن يكون هناك تواصل واتصال داخل العالم بمـا يضمن للفرد حياته وعدم التجني عليه.

قالت كريمة: إيه اللي بتقوليه ده يا بنتي أنـا مـش فاهمـة حاجة.

قال فتحي: معلش يا خالتي، دي بس تخاريف قبل النـوم، سلام يا خالتي كريمة، نشوفك الصبح وعليكي خير.

وأخذ صفاء من يدها وخرج وحينها قالت: أنا بخرَّف يـا فتحي؟!

قال مصالحًا لها: أنا مش قصدي..بس هي الست البسيطة دي إيه فهمها الكلام اللي بتقوليه؟

-لازم تفهم، وغيرها يفهم، كفاية جهل وأمية، الزمن الجاي مش بتاع الجهل اللي إحنا فيه ده، ده محتاج وحوش وغيلان.

- يا صفاء حرام عليكِ..أنا نفسي تعيشي سنك وتبطلي تحسسيني إن إحنا في غابة، الدنيا جميلة يا صفاء عيشي واستمتعي بيها.

- بكره يا فتحي تعرف وتؤمن غصب عنك باللي بقوله، وساعتها هتبقى مش مهيأ ليه، وهتعرف معنى الندم.

- ربنا ما يجيب ندم تصبحي على خير.

- وإنت من أهله، قالتها ولسان حالها ينطق خسارة.

(٤)

أتى صباح جديد يُمحو يومًا مضى ويزيد يومًا في أعمـــار أهل الشارع، وفى موعده تماما -ككل يوم- استيقظ فتحـــي وقابل أمه بابتسامة هادئة وهو يرد صباحها، وبعد أنْ اغتـــسل وتوضأ وصلى، كان لابد له أن يُلقى تحية الصباح على نـــصفه الثاني، ولكنها لم تكن فتحت الشباك بعد، فتسرب الألم والقلق لنفسه، فقام ليرتدى ملابسه وهو يسأل نفسه: لماذا تأخرت في صحوها اليوم؟! وإنْ كانت قـــد صـــحت فلمـــاذا لم تفـــتح الشباك؟!! ووسط تساؤلاته سمع صوت أمه يناديـــه ليتنـــاول إفطاره، ولكنه لم يلبِ نداءها، كان في انتظار صفاء لتلبى نداء قلبه الملتاع.

وأخيرًا فتحت الشباك، فتحت الدنيا كلها أمامه وهى تقول له: صباح الخير.

فرد تحيتها ثم قال بلهفة: قلقتيني عليكي.. فيه إيه؟

- مفيش بس كنت بردانة فمقدرتش أفتح الشباك.

-هنركب قطر ثمانية ونص النهارده؟

-إن شاء الله، يلا خش افطر، عشان مانتأخرش.

ودخل الاثنان وجلس فتحي ليتناول إفطاره، ثم قال لأمـــه: أمه، نفسي آكل فطير النهارده.

ردت الأم بحنان بالغ:عيني يا ضنايا هتيجي تلاقيه، حظك حلو ستك لسَّه باعتة زبدة امبارح من البلد.

- ربنا يخليكي ليّا.

-ويخليك يا حبة قلبي.

وفى الثامنة خرجت صفاء مع زميلتيها وخلفها فتحي الذي قابل أشرف وسار الكل باتجاه المحطة.

وفى الكلية أصرّت على الجلوس إلى جوار بعض الفتيات اللاتي تظهر عليهن بعض مظاهر النعمة، وتعجب فتحي جدًا ولكنه جلس إلى جوارها و لم يسأل، كان عليها لفت نظرهم إليها بأي شيء، وهداها تفكيرها أهن لن يلجأن إليها ولن يقبلوا معرفتها إلا إذا كان هناك شيء سيستفيدون به من ورائها، وبالطبع هي لا تملك شيئًا.

وتداركت أها تملك ما لا يملكونه، المحاضرات الكاملة في كل مادة، فهي لا تترك كلمة يقولها الأستاذ إلا وتسجّلها، وما يفوتها يُكمله لها فتحي، إهن وأصدقاؤهن الشباب لا يفعلون شيئًا سوى الهذر والضحك والجلوس في حديقة الكلية وأكثر المحاضرات لا يحضروها وإنْ حضروها فهم غير منتبهين. وبالفعل حدث ما توقعت، لاحظوا أها لا تترك كلمة إلا وتسجلها، وفكرت الفتيات في شيء واحد هو التحدث إليها

حتى يستطعن أخذ المحاضرات منها ونقلها، وبعـــد المحاضـــرة سألنها عن اسمها وفتحن حوارًا معها، وكانت صـــفاء في أوج سعادتها، فهي على أول درجة من درجات السلم، ويكفى أنها فكرت جيدًا ووصلت إلى ما أرادت.

قال لها فتحي: صفاء فيه إيه؟ عايزة إيه من البنات دول؟

-هعوز إيه يعنى، لازم تتعرف على الناس كلها، ويبقى لك صداقات مختلفة.

- من إمتى؟ ما إحنا بقى لنا ترم كامـــل في الكليـــة، ومـــا اتعرفتيش على حد، اشمعنى دلوقتي؟

- كل وقت وله أدان، والتيرم اللي فات أول ترم في الكلية، في مكان جديد تمامًا عليك، يعني كان لازم تبص وتشوف كل اللي حواليك وتتعرف على المكان الأول، وبعد كده تاخد أي خطوة، البنات دول مجتمع غير مجتمعنا، بيئة غير بيئتنـــا ومـــن حقنا نتعرف على حياتهم حتى وإن مدخلنهاش.

- ولزومه إيه المشوار ده كله؟

- هتعرف بعدين أنا قصدي إيه.

- بس دول بيعرفوكي مصلحة ليهم.

- صدقني أنا اللي قصدت كده لأني عارفة إزاي هـــستفيد منهم.

- حاسس إني مش فاهمك.

- بكره هتفهمني كويس.

وقبل أنْ تُكمل حديثها، سمعا صوت أشرف وهو ينـــادى فتحي، فذهب فتحي إليه، واستدارت هي لتواجـــه صـــديقاتها الجدد وقالت إحداهن: على طول إنتِ وهو مع بعض.. إيه؟ هو الجو بتاعك؟

ضحكت صفاء ضحكة هادئة وقالت: أكتر من كده.

ارتسمت الدهشة على وجوههن جميعًا وهن يقلن في نفس اللحظة: يعني إيه؟!!

-إيه؟ فكركم راح فين؟ كل الموضوع إنْ إحنـــا جـــيران، البيت قصاد البيت، اتولدنا في نفس الشهر، طول عمرنا مـــع بعض، عايشين كأننا في بيت واحد، حتى الكلية ما افترقنـــاش فيها، وكأننا اتخلقنا عشان نعيش مع بعض.

وبدأت الحوارات تتطور، وتأخذ جميع المسارات في جميـــع المواضيع، وتعرفت على أصدقاء الفتيات الشباب، كما عرفت وظيفة والد كل واحد، وكل واحدة، فسهر والدها مستـــشار وأمها مدرّسة، وداليا والدها طبيب وكذلك أمها، لمى والـــدها ضابط بالقوات المسلحة وأمها ربّة منزل، شريف والده تـــاجر قطع غيار سيارات وأمه ربة منزل، عماد والده محامي كبير لـــه مكتب في طنطا من أكبر مكاتب المحاماة.

كلٌ كان فخورًا وهو يذكر مهنة والده، حتى هي كانـــت فخورة وهي تقول: أبويا نجار وأمي ست بيت.

نعم لم تخجل و لم تتجمّل، إنها يومًا لم تتذمر لكـــون أبيهـــا بسيطًا، لم تشك حظها و لم تتمرّد عليه، إنها تريـــد أنْ تكـــون نفسها وليس عيبًا أن تتمنى أن تكون شيئًا، وتصنع لنفسها مجدًا طالما باستطاعتها تحقيقه بطرق شريفة لا ضير منها.

قالت سهر برقة مصطنعة: نجار؟!!

ردت صفاء بحدة: أيوه نجار، نجار فنان كمان، أبويا بيطلع من تحت إيده تحف موبيليا، مفيش حد في مهارة أبويا ولا زيه، واللي ممكن يبقى زيه فتحي لأنه متربي على إيديه في الورشـــة وشرب منه الصنعة وهو صغير.

قالت داليا: ومالك زعلتي كده ليه؟ سهر مـــش قـــصدها حاجة وحشة.

ردت صفاء بكياسة: عارفة بس أنا حبيت أقول لكم إنـــه صنايعي مفيش أخوه، وإن أنا مش خجلانة من مهنته البسيطة.

وأغلق عماد هذا الحديث قائلاً: الواحد مننا مش بأهله المهم إحنا هنكون إيه بعد كده، صحيح أهلنـــا نـــاجحين ولـــيهم مراكزهم، لكن يا ترى هننجح زيهم أو حتى نحـــافظ علـــى نجاحهم واسمهم.

قالت لها: ما بلاش مواضيع سخيفة بقى المهم مين اللي شاف الفيلم الأجنبي اللي جه امبارح في التليفزيون؟

رد شريف بسرعة: آه كان تحفة، رهيب.

قالت صفاء: أنا شفته.

عماد: احكوه، أنا ما شفتوش.

وجلسوا ليسمعوا قصة الفيلم، وصفاء وحدها هي من كانت تفكر، لم يكن هناك وقت لعدم التفكير، لابد أن تشغل عقلها جيدًا وتفكر.... وتفكر وتبلور حاجتها من هؤلاء، وإلا تكررت حكايتها كما يحدث في أفلام التليفزيون للولد الفقير الذي يصاحب أبناء الأغنياء، فإما ينحرف ويسقط في بئر الجريمة، وإما يصبح ثريًا، ويحاول إفقارهم، وجعلهم دائمًا في حاجة إليه، كما كان في حاجة إليهم في محاوله لإشباع عقدة النقص لديه!

لم يكن هذا ما تقصده من محاولة التعرف على أمثال هؤلاء، لذا يجب عليها العمل سريعًا حتى لا تظل بينهم كالنغمة النشاز.

ظلت تفكر حتى وصلت بيتها، ولم تُجب على أسئلة فتحي حول علاقتها الجديدة، تركته في حيرة.

ودخل فتحي البيت متجهمًا، واستقبلته أمه في حضنها وبابتسامتها الجميلة وهي تقول: عملت لك الفطير اللي نفسك فيه يا حبيبي.

- تسلم إيديكي، هغير هدومي وآجي حالاً.

وبدّل فتحي ملابسه وفتح الشباك ونادى صفاء بإشـــارتهما المعهودة كانت هي الأخرى قد بدّلت ملابسها قال لها: تعـــالى بسرعة.

- ليه فيه إيه؟

- بس تعالى حالاً.

وذهبت صفاء لديهم، لتجد صينية الفطير أمامها فـــصاحت قائلة: الله! فطير؟! ده أنا كان نفسي فيه.

قال فتحي: ما رضتش آكل من غيرك وأنا عارف إن إنـــتي بتحبيه.

وجلس الاثنان وامتدت يدها ويده لنفس الطبق في نفـــس الوقت، وما إن أكلت أول قضمة حتى قالت: تسلم إيديكي يا خالتي... أستاذة والله.

وأرسلت أم فتحي لبيت صفاء مع ابنتها الصغيرة فطيرة حتى يأكل منها إخوتها كما أكلت هي.

وأكلت بنهم شديد هي وفتحي، ثم بعد أن انتهت، حملت الأطباق إلى المطبخ وأعدّت بنفسها الشاي، وجلـــسوا جميعًـــا يشربونه وهم يشاهدون مسلسل التليفزيون.

بعد طول تفكير وصبر مال عليها فتحي وهو يقول: مـــش هتجاوبي على أسئلتي؟

-أسئلة إيه؟

- ليه اتعرفتي على الشلة دي؟

- يا فتحي سبق وقلت لك إنك لازم تتعرف على كل الناس.

- صفاء أنا عارف إنْ ما فيش حاجة بتعمليها إلا ولها سبب.. إيه السبب؟ وبعدين إنتِ ما تقدريش على مصاريفهم، ثم أنا مش طايقهم.

-إذا كان على السبب، فيه فعلا سبب، بس أفضّل أحتفظ بيه للوقت المناسب، أما مصاريفهم، فدي سهلة، لأني مش هقضى معاهم معظم الأوقات، أما عنك إنت، فأنا فاهمة كويس اللي جواك، أنا معاك يا فتحي مش مع حد تانى، ويوم ما هفكر في حد مش هيبقى واحد من الناس دي.

- لكن أنا قلقان.

- إياك تقلق، قلقك يعنى عدم ثقتك فيّا.

- مش فيكي إنتِ فيهم هم.

- مالكش دعوة بيهم، بس نصيحة مني ما تقفلش على نفسك الدايرة وتيجي في يوم ما تعرفش سبب ضيقك، افتح كل يوم شباك في مكان، اتعرف على كل الناس، إنت هتبقى محامى، والمحامى علاقات.

(٥)

مرت عدة أيام حاولت فيها كسب ود العديد والعديد من الزملاء، وفتحي في حيرة من أمره، إنه يشعر بها لأول مـــرة في عمرهما القصير تبتعد وتبتعد حتى صارت أيامه حزينة ولياليـــه باكية، كان يشعر باغتراب وهي إلى جواره، وما أصعب شعور المرء بالغربة وهو يحيا على أرضه وفي وطنه، لقد كانت هــي الوطن، وهي المعنى لهذا القلب الشاب النابض بالحب.

لم تكن صفاء تفكر بأحد غير فتحي، ولكن الحب في حياتها درجة ثانية، لم يكن هو أولَ اهتماماتها وإنما هو بعد طموحها، ولكن إن قالت إنّ في حياتها حبًا ورجلاً لكان فتحي.

ولكن من يقول له هذا؟ مَن يخبره بأنّ ظنونـــه خطـــأ، وأنّ قلبها لمْ يتحول؟ مَن يخبره؟ مَن يُخرجه مِن حيرتـــه؟ لم يكـــن أمامه سوى المواجهة ولا شيء غيرها، وفي هذا اليـــوم كـــان لديهما ساعتان بين أولى المحاضرات وثانيها، وقد عقد العـــزم على مفاتحتها بالأمر مهما تكن العواقب والنتائج.

وما إنْ انتهت المحاضرة حتى التفّت حولها مجموعتها الجديدة مما جعله يشعر بالحنق والضيق فناداها، فاستأذنت منهم وأتـــت إليه.

قال:عايز أكلّمك في موضوع مهم.

- خير؟ قالتها وقد بدت على وجهها الدهشة من أسـلوب حديثه وتجهمه.

- مش هينفع هنا، تعالى نقعد في حتة بعيد عن هنا، وخرجا سويًا وقد زادها تجهمه قلقًا.

جلس فتحي معها بعيدًا عن تجمعات الطلبة وقـال وهـو يحاول جمع كلماته المشتتة: بدون أي مقدمات.. إنتي عارفة إني بحبك.

- صحيح عمرك ما قلتها لي.. لكن عارفة.

- وإنتي؟

- إنت عارف.

-لا مش عارف.

ـــ إزاي مش عارف بعد كل حياتنا اللي قـضيناها مـع بعض.

- يمكن يكون تعود لكن مش حب.

-أنا عمري ما فكرت في حد غيرك، إن كـان ده قـصد كلامك من الآخر.

- لما إنتي عارفة إن فكرى وصل لكده ليه سبتيني في النـار دي لوحدي؟

-لأني كنت واثقة إنك عارف قد إيه بحبك.

- يبقى ليه بتبعدي عني بالشكل ده؟

-لأني بحب نفسي.

- يعني إيه مش فاهم؟

-لأني عايزة أكون حاجة، أبقى شيء مهم فبحبها وبحـاول أحصل لها على أي شيء تعوزه.

- وأنا اللي واقف في طريقك؟

-لا يا فتحي، بس إنت مش قادر تفهمني ولا حتى تعمـل زيي.

- وصداقاتك الجديدة هي اللي هتوصلك؟

-هستفيد من وراها في شيء واحد ممكن يكون أول درجة في سلم نجاحي.

- وأنا فين من ده كله؟

-إنت اللي مش عايز تشاركني.

- وإنتي.. ليه مبتصارحنيش باللي جواكي واللي إنتي عايزاه؟

-لأن الوقت مش مناسب، وبعدين أنا فاكرة إننا واحـد، وإننا بنفكر في نفس الشيء في نفس اللحظة لكن طلعنا كـل واحد مننا في وادي.

نظر إليها نظرة مليئة بالألم، يغزوها سؤال واحـد فهمتـه بالطبع، وهو أين أنا في حياتك وفي مخطط نجاحك؟

ولأنها فهمته ربتت يديه في حنوٍ بالغ وقالت: ما تقلقش من جهة قلبي لأنه عمره ما هيعرف غيرك.

لمستها كانت كالمخدر سريع المفعول، سرى في جسده فاستكان، وذهب عنه غضبه، وقاما من جلستهما ليذهب هو لأشرف صديقه وتذهب هي لأصدقائها الجدد.

قابلتها سهر بضحكة خبيثة قائلة: ساعة لقلبك وساعة لصاحبك.

ردت صفاء وهي تبتسم: لازم نرضي جميع الأطراف.

قال عماد وعلى وجهه الدهشة: إنتِ صحيح بتحبي الواد ده؟

ارتسمت على ملامحها بعض مشاعر غاضبة وهي تقول: وماله بقى الواد ده؟

تدارك عماد خطأه وقال: ما قصدتش بس أنا حاسس إن إنتِ حاجة وهو حاجة تانية!

قالت في حدة: فتحي راجل تحبه وتتمناه أي واحدة وما تندمش لأنه راجل في زمن قلت فيه الرجالة.

وصمتت برهة فشعرت أنها كانت تتكلم بحدة قد تُفسد عليها مخططها فأردفت قائلة وهي تحاول الابتسام: القلب وما يريد يا عماد.

جملتها الهادئة الأخيرة جعلته يرد عليها قائلاً: بس مش عارف ليه أنا شايفك مع واحد تاني خالص؟ شخص له مكانة وطلة تأسر أول عينك ما تقع عليه.

قالت داليا في ضيق، وقد أغضبها حديث عماد مع صفاء وإلحاحه عليها وكأنه يعرض عليها حبه بدلاً من فتحي، وهي التي تهواه وتخجل من مصارحته: ما قالت لك القلب وما يريد وإنه في نظرها راجل، ما تفهم بقى.

سهر: بس بقى، إحنا هنتخانق؟

- شريف: صحيح إيه اللي بتعملوه ده؟ وبهدوء شديد قالت صفاء: شوفوا يا جماعة فتحي بعيد عنكم، وأنا فعلاً بحبه ودي مشاعري وانتم أصدقائي وأنا اللي معاكم هتقبلونى على كده أهلا وسهلا، وإن كان لحد رأى تاني ممكن يقولوا دلوقت.

شريف:هو حد قال حاجة؟ إنتي صاحبتنا وده المهم.. ثم إحنا أصحاب وبس.

ونظرت صفاء في ساعتها وقالت: المحاضرة، هتبدأ كمان ربع ساعة، أسيبكم عشان ألاقى مكان كويس أقعد فيه.

سهر: أنا مش هحضر أصلى مواعدة ماما تقابلني ونخرج نشترى شوية حاجات.

داليا: وأنا مليش نفس أحضر وهروّح.

عماد: استني يا صفاء أنا جاي وياكي هحضر المحاضرة.

شريف لعماد وصفاء: خدوني معاكوا.

انصرفوا في اتجاه قاعة المحاضرات ما عدا سهر وداليا بالطبع

قالت سهر لداليا: مكنش فيه داعي تظهري غضبك بالشكل ده من عماد.

- إنتي شوفتي كان بيكلمها إزاي، هو ماله تحب فتحي ولا تحب قرد حتى؟

- مجرد كلام يا داليا.

-لأ. هو مهتم بيها.

- حتى لو، مجرد اهتمام بشخصية من نوع جديد هاياخد وقته ويروح على طول مش أكتر، وإنتي شوفتي هي متمسكة بفتحي قد إيه.

- ما يمكن يكون كلام وشغل حركات وساعة عماد ما يشاور لها تلاقيها تحت رجليه.

- ما أعتقدش وهتشوفي.

وانصرفتا كلٌ إلى طريق.

وفي داخل قاعة المحاضرات، جلست صفاء إلى جوار فتحي الذي رآها تدخل القاعة في صحبة عماد وشريف دون البنات، فاشتعلت نيران الغيرة تمزقه.

بدأت في الكتابة وراء الدكتور بينما فتحي يجلس صامتًا محدقًا في كرّاسه، دون أن يُحرك ساكنًا، فقالت له في صوت خفيض: ما بتكتبش ليه؟

- مليش نفس، مش قادر.

ـــ مالك فيه حاجة بتوجعك؟

- لا مفيش،كان يود أن يقول لها: قلبي يؤلمني، وأنت السبب، لكنه اكتفى بتلك الإجابة المقتضبة.

سمعته وواصلت الكتابة قبل أنْ تجد فرصة تتابع فيها حديثها معه قائلة: ومين يكملني وإنت ساكت كده؟

رد عليها والغيرة تملأ صوته: واحد من اللي إنتي جاية وياهم.

ـــ آه فهمت، طيب يا فتحي.

وانتهت المحاضرة وانصرفت جموع الطلبة.

قالت صفاء: باقي ساعة على معاد القطر ومش عايزة أركب للمحطة ما تيجي نمشي.

- زى ما تحبي.

وفى الطريق قالت: أنا عارفة إنك زعلان.. بس لحد إمتى هفضل أأكد عليك إني بحبك وإني لا يمكن أحب حد غيرك؟

- خايف أصدقك، وآخد صدمة عمري بعد كده.

- واسمعني طول عمري بصدقك.
- لأن عمري ما عملت حاجة تخليكي ما تصدقيش اللي بقوله.
- ولا أنا كمان.
- متأكدة؟
- طبعًا، يا فتحي الناس اللي إنت قلقان منهم دول صحيح إحنا ممكن نكلمهم، نصاحبهم، لكن نحبهم ونجوز منهم، صعب، ما ينفعوناش، همّ حاجة وإحنا حاجة تانية، تعرف إنت تعبتني قوى عايزني أصرخ في الشارع وأقول بحب فتحي يا ناس، أكتبها وأسجلها في الشهر العقاري؟
- لأ مفيش داعي.
- يا سلام يا واد يا تقيل.
- أنا لا تقيل ولا حاجة ده أنا ميت.
- بعد الشر عليك يا حبيبي.
- قلتي إيه؟
- بعد الشر عليك يا حبيبي.

كانت تلك أول مرة تنطق فيها هذه الكلمة، فطار عقل فتحي معها ووضع يده في جيبه فخذلته نقوده فظهر الألم على وجهه فقالت: فيه إيه؟ وبطلع فلوس ليه؟

ـــ لازم نحتفل..بس على قد دول.

- نحتفل؟! وإنت كنت محتاج إنْ أقولك حبيبي؟ طب ليه أنا ما طلبتش تقولها لي؟

-لأنك عارفة قد إيه بحبك.

- وإنت ما كنتش عارف؟

- كنت عايز أتاكد.

وتوقفا عند محل الحلويات، وابتاعا علبتي آيس كـــريم ووقفـــا يتناولانها وعيونهما لا تكف عن الحديث، حديث من القلب إلى القلب.

مضى يومان بعد ذلك اليوم، وبدأ الاثنان برنامجهما المعتاد، وما إن وطأت قدماهما أرض الكلية حتى انتابها قلق، فلقد تردّد على ألسنة البعض أن اليوم موعد إعلان نتيجة الامتحانات التي أجراها الدكتور سيد أستاذ المنظمات الدولية لمادته،وكـــذلك باقي امتحانات المواد الأخرى والتي سوف تـــضاف نتائجهـــا للتقدير النهائي للمواد آخر العام وما إن عرفت صـــفاء حـــتى شعرت بالبرد يسري في جسدها وازداد قلقها، حاول فتحـــي تهدئتها، وأخيرا عرفت صفاء تقديراتها التي كانت تشير لكونها من الأوائل بينما هو من أهل المقبول هو وأشرف.

فرحتها لم تكن لها حدود. إنّ نجاحها هذا يثبت لهـــا إنهـــا قادرة على تحقيق ما هو أكبر بالجهد والمثابرة.

لم تفرح صفاء بتقديرات المواد التي ظهرت نتائجها كقـــدر فرحتها بتقدير مادة المنظمات الدولية فلقد حـــصلت عليهـــا بتقدير ممتاز، في حين رسب فيها شريف وسهر، وحصل فيهـــا كل من فتحي وعماد على تقدير جيد، وحصل أشرف وداليـــا على تقدير مقبول. فرح فتحي من أجلها أكثر مما فرح لنفسه.

وقبل انتهاء أولى محاضرات هذا اليوم بقليل دخـــل القاعـــة أحد العمال، وتوجه ناحية الأستاذ، ومال عليه قائلًـــا بـــضع كلمات ثم انصرف. وفجأة سمعت صفاء اسمها يتـــردد علـــى لسان الأستاذ فقامت مندهشة، فأبلغها أنْ تـــصعد لتحـــدث

الدكتور سيد عبد السلام أستاذ القانون الدولي، أو بمعنى أصح الأستاذ الذي درس لهم مادة المنظمات الدولية بعد المحاضرة، صعدت وهى متوجسة خيفة، وأوصالها ترتعد وتبعها فتحي لينتظرها عند خروجها ليطمئن.

قابلها الأستاذ بابتسامة ووجه متفحص لها، وصافحها ودعاها للجلوس وهنأها على النتيجة قبل أن يقول: أتعرفين؟ أنا أدرس هذه المادة منذ سنوات طويلة، و لم أعط لأحد فيها امتياز قبل عشر سنوات، ولكن إجاباتك أجبرتني أنْ أضع ممتاز بدرجة خمسة وتسعين في المائة، ودا محصلش قبل كده رغم إنه مش الامتحان النهائي.

اتسعت ابتسامة صفاء وهى تسمع حديثه وقالت: متشكرة يا دكتور.

قال لها: ترتيبك الثاني تقريبا أليس كذلك؟

- لسه ماعرفتش.

- من الآن اجتهدي يمكن يكون لك نصيب، وتكوني أستاذة زميلة.

- العفو يا دكتور.

- ليه لأ؟ كل شيء بالاجتهاد بينحقق، وأما أشوف هتعملي إيه في امتحان آخر السنة وكمان مادة القانون الدولي اللي هدرسها لكم العام القادم إن شاء الله.

-ها أكون عند حسن ظنك يا دكتور.

- عايز أسألك إيه رأيك وإحساسك تجاه القانون الدولي؟

- أول ما فتحت كتاب المنظمات حسيت بشيء غريـــب. حاجة بتدفعني إني اقرأ، واقرأ كويس وأتمعن في الكلام، أنا مش بدرس قوانين لفض منازعات بين شخصين، أو عدة أشخاص، أو قوانين تحكم في قضايا السرقة والقتل،وما شـــابه، وكلــها خصومها محدودة، وإنما أنا أمام شيء أكبر من هذا، كيانـــات كبيرة، دول متكاملة وشعوب ومصائر من خلال وضع قوانين تنظم العلاقات والعمل بين دول العـــالم ككـــل، وإن الفـــرد المخطئ هنا ليس شخصًا بعينه وإنما هو أُمة بأسرها.

- أتعلمين يا بنيتي إن هذا كان إحساسي حينمـــا درســـت تلك المادة لأول مره واستهوتني حتى أصبحت أستاذًا لها.

- كم أتمنى أن ادرسها وأتخصص فيها!

- ليس بعيدًا على الله، ذاكري واجتهدي فلكـــل مجتهـــد نصيب.

- إن شاء الله، متشكرة يا دكتور.

قالتها وانصرفت لتجد فتحي أمامها يسألها: ماذا حدث؟

- مفيش كان عاوز يعرف مين دي اللي حـــصلت علـــى تقدير ممتاز في مادته.

إنَّ نجاح صفاء بتلك التقديرات كان دافعًا للكثيرين — وليس أستاذها فقط — ليتعرفوا عليها ومبشرا لمستقبلها بالكلية، جميع الطلبة كانت بهم رغبة لمعرفة تلك الفتاة التي احتلت المرتبة الثانية، حتى عبد الله الذي كان يظهر عليه منذ البداية أنه متفوق فهو مَن كان يسأل الأساتذة ويستفسر عن كل شيء ويناقش ويجلس في المكتبة كثيرًا. سعى لمعرفتها.

أما هي فكانت في المحاضرات أشبه بالمقعد الذي تجلس عليه لاحس ولا حركة من أي نوع، فقط تكتب المحاضرات وتسجل كل كلمة ينطق بها الأستاذ وغير ذلك لا تفعل، لقد أتى عبد الله ليعرف من تلك التي سوف تنافسه على احتلال مكانه وسحب البساط من تحت أقدامه.

ووجدت نفسها بين الكثيرين، وقبل أن تشعر بأنها تائهة وسط هذا الجمع وأنها ستكف عن التفكير، أخذت نفسها من بينهم وتركت الكلية كلها وخرجت دون أن تنتظر فتحي كعادتها، انطلقت إلى البيت، وكل ما تفكر فيه هو كيف لها أنْ تصرف هذا الجمع الغفير عنها، وتلك العيون المتطفلة التي تتطلع إليها، وسوف ترمقها أينما ذهبت، تلك الشهرة لم تكن ببالها، فهي تود أنْ تؤدى كل شيء بتؤدة ورويـة، ودون علم أي مخلوق، فهي دائمًا لا تُشهد أحدًا ما تفعل، هكذا ستكون كل العيون عليها ستفقدها خصوصيتها ورغبتها الصامتة في عمل أي شيء دون معرفة الآخرين، كان لابد أنْ تعيد حساباتها من

جديد وأن تفكر عليها أن تعمل على اســتعادة حياهتــا قبـــل انفلاتها من بين يديها.

على الجانب الآخر كان هناك فتحي الذي يبحـــث عـــن نصفه المفقود، عن حلمه الذي يشعر به يتسرب من بين يديـــه دون أن يفعل شيئا، اشتد قلقه عليها لقد بحث عنـــها في كـــل مكان و لم يجدها، فانطلق على غير هدى، و لم ينتظـــر موعـــد القطار، ذهب في الأتوبيس لبلدته، وبخطوات واسعة متعجلـــة كانت أشبه بالعدو اخترق الشارع الرئيسي للمدينة حتى وصل شارعهم دخله وهو على نفس سرعته،طرق باب بيتـــها دون تردد، وبقوة حتى فتح الباب وكانت هي فاتحته فانطلق فيهـــا كالمدفع: في إيه يا صفاء، إزاي تمشي من غير ما تقولي لي؟ أنا تعبت من اللف عليك، القلق كان هيموتني.

-أنا آسفة، قالتها وصمتت.

-هوده اللي عندك وقدرت تقوليه؟

لم تُجب، وظلّت على صمتها ثم تركته، ودخلت فـــدخل خلفها وهو يقول: صفاء المفروض النهارده نكون فرحانين، ده إحنا ناجحين، وإنتي بالذات المفروض تكوني أكتـــر واحـــدة فرحانة، دا لو حسبنا تقديرات المواد اللي ظهرت بس تبقـــي تقريبا التانية، ولا إنتي زعلانة وكان نفسك تبقى الأولى.

لم تعرف بماذا تجيبه؟ كل الكلمات محبوسة في حلقها، تأبى الخروج، ثم ماذا تقول؟ إنه لن يفهمها، لن يفهم رغبتها المُلحة

في العمل في صمت وفى التوحد الذي تهواه، ثم هي نفسها لا تفهم، كيف كانت تدعوه للانفتاح على الناس ومعرفتهم! وفجأة حينما تجدهم إلى جوارها تخشاهم؟ وكيف لإنسانة تتمنى أنْ يكون لها مكانة اجتماعية مرموقة ومنزلة في مجتمعها تخشى الشهرة والناس؟ أم أنها تخشى أنْ تكون موضعًا لاستغلالهم ولا مجال لاستفادتها منهم؟

وبينما هي مستغرقة في التفكير قاطعها فتحي قائلا: صفاء ردى على حرام عليكي.

- مفيش يا فتحي، أنا بس تعبت من كل الناس اللي كانت حواليّ،هربت منهم بعد ما حسيت إنهم طابقين على نفسي.

- بقى كده يا شيخة؟ وتضيعى علينا فرحة النجاح.

- صحيح. ألف مبروك يا توحة. بس مش لو كنت سمعت كلامي وذاكرت شوية كنت جبت تقدير.

- يا ستي. المهم إن أنا نجحت وخلاص، وكفاية على نجاحك إنتِ يا حبيبتي.

قالها والابتسامة تملأ وجهه فبادلته الابتسام، وصمت برهة ثم قال لها:على فكرة أنا عندي ليكي هدية بمناسبة نجاحك، بس يا رب تعجبك.

-هدية ليّ أنا؟

-أيوه صنع إديه وحياة عينيه هروح أجيبها وآجي.

وذهب فتحي ليحضر هديته التي عكف على صنعها أيامًا حتى ظهرت بهذا الشكل البديع، كانت هديته عبارة عن ميدالية مفاتيح من الخشب مكتوب عليها اسمه واسمها بتناغم وخط بديع ومفرغة بحيث يظهر الاسم فقط وكأن الحروف رصت إلى الجوار بعضها في الهواء، بالإضافة إلى قطعة فنية بالخشب أيضا مصنوعة بمنشار الأركت. كان يعشق الخشب، ويشعر بالألفة وهو يتعامل معه، وكأنه قطعة منه، وهو ليس صانعًا ماهرًا فقط وإنما فنانٌ فهو يصنع أشكالًا مصغرة ونماذج تماثل تلك الكبيرة التي يصنعها في الورشة بنفس الإتقان والجمال فتمثل قطعًا يمكن تزيين البيوت بها كإكسسوار يضيف جمالًا للمكان.

وما إن رأتها حتى بُهرت بجمالها ورقتها ودقة صنعها،وأخرجت هي الأخرى هدية له اشترتها منذ أيام واحتفظت بها، ساعة جميلة الشكل رخيصة الثمن جدًا، ولكن لقد ادخرت ثمنها بصعوبة فلقد كان يجب أن تشتريها لأن ساعته كُسرت منه و لم يُجدِ معها الإصلاح.

فرح فتحي بهديتها،وشكرها عليها كما شكرته على هديته، وأعدت لهما أمها طعام الغداء وتناولاه سويًا.

وكانت فرحة العائلتين كبيرة حتى أنَّ أم فتحي أخذت تزغرد حتى تجمع أهل الشارع في بيتها وهنأوا فتحي وصفاء على نجاحهما وشربوا الشربات الذي أحضره أبو صفاء الفخور

بابنته المتفوقة، على الرغم من أنها ليست نتيجة نهائية. لم يمض أسبوعٌ على نجاحهما في امتحانات أعمال السنة التي اعتبروها كأنها امتحانات آخر العام وانطلاق الزغاريد من فم أم فتحي حتى تردد في الشارع صوت زغاريد أخرى، خرج جميع أهل الشارع ليعرفوا مصدرها وبالفعل حددوا مكانها فهي صادرة من بيت الحاج عبد الله، يا ترى ماذا حدث؟ الجميع يترقب وما هي إلا سويعات وانتشر الخبر، فلقد تمت قراءة فاتحة ميادة إلى سيد تاجر الماشية الكبير وابن تاجر الماشية وحفيد تاجر ماشية فالمهنة متوارثة في العائلة عبر أجيال بعيدة، وسيد هذا شابٌ وسيمٌ نوعا في الثالثة والثلاثين من عمره، عُرف عنه كرهه لفكرة الزواج، أو الارتباط بأي امرأة حتى شاهد ميادة فتغيرت كل أفكاره وسعى شاب الثلاثينيات للارتباط بميادة التي لم تكمل التاسعة عشر ربيعًا من عمرها، ولكنه شاب لقطة كما قال الجميع، وسيضمن لميادة الحياة التي تتمناها والتي تعشقها حياة البذخ والاستعراض.

لم يذهب فتحي مع أبيه ليبارك و لم تذهب صفاء فالجميع يعلمون ما بينهما وبين ميادة، و لم يلومهما أحد، يكفي أن يتذكر فتحي ما حدث منها وما ناله من ورائها حتى يقشعر جسده فهو لا يطيق مجرد سماع اسمها.

وحينما أتت أم ميادة لمنزل أم فتحي لتريها شبكة ابنتها كانت صفاء مع فتحي يكتبان المحاضرات وما إن وقعت عيناهما على الذهب حتى اتسعتا عن آخرهما فهما لم يريا أبدًا تلك

الكمية من الذهب التي تقدر بخمسة عشر ألفا من الجنيهـــات، لقد عقدت ألسنتهما فلم ينطقا ولو حتى بكلمة مبروك.

وانصرفت أم ميادة فقال فتحي كلمة واحدة:حظوظ.

قالت صفاء:عندك حق هي الدنيا كده حظوظ.

- بس تفتكري كل الدهب ده والفلوس اللي بـــالكوم دي هتضمن لها السعادة ولا حتى ضحكة من القلب؟

-إنت مالك بتتكلم زى الناس المتواكلين اللي دايما باصـــين لروحهم إنهم في أحسن حال رغم إن هما مش كـــده؟ ومـــن جواهم عايزين الأحسن لكن مش قـــادرين والآخـــر يقولـــوا كلمتين زى اللي قلتهم بالضبط.

- مش عارف أنا متلخبط.

- وإيه سبب اللخبطة.

- حاسس إنْ الدنيا ماشية بالمقلوب.

- ليه؟

- ليه واحدة بصفات ميادة السيئة تـــرتبط بإنـــسان غـــنى ويضمن لها حياة مرتاحة رغم إن هي ما تستاهلش؟

-أولاً وقبل أي شيء ربنا وحده الأعلـــم والأدرى بلمـــاذا يحدث هذا وله حكمة من ذلك، ثم إنت ما سمعتش المثل اللـــي بيقول الطيور على أشكالها تقع، مش يمكن يكون هـــو زيهـــا بالظبط.

وبعد فترة صمت قطعتها صفاء:ما تشغلش بالك وخلينا في اللي إحنا فيه إحنا مشوارنا طويل.

وعادت أيام صفاء تسير على وتيرتها السابقة برغم محاولة الكثيرين التقرب منها ليستفيدوا منها في معرفة المهم في المحاضرات، ونقل ما كتبته وما شابه. حتى عبد الله منافسها أصبح يحدثها كثيرًا ويحاول معرفة ما كتبته وما سجلته ويقارنه بما سجله هو ليضمن أنها لم تعرف شيئًا أزيد منه، وفي إحدى المرات كانت تجلس مع فتحي فأتاها كعادته متطفلًا بأسلوب سمج فظ، قال لها: تعرفي لحد دلوقت مش عارف برضه إنتي إزاي جبتي التقديرات دي؟

فتحي:وإنت مالك يا أخي؟

عبد الله: أصلها لئيمة ومش باين عليها، يعني لا بتناقش ولا بتسأل، إيه فاهمة كل حاجة؟

صفاء: لأ طبعا مش فاهمة كل حاجة، بس كل شيخ وله طريقة.

عبد الله: وطريقتك إيه بقى؟!

صفاء:دي حاجة تخصني لوحدي.

عبد الله: طب إزاي جبت امتياز في المنظمات؟

صفاء: جبتها.

سمع عبد الله كلمتها، وهو يهم بالانصراف وفي عقله يقول: إيه البت الغريبة دي؟ أكيد مجنونة.

وبعد انصرافه ضحكت صفاء بشدة، وشاركها فتحي ضحكها وهما في نفس الوقت يتعجبان، فهما لم يصادفا مثل تلك الشخصية من قبل.

قالت صفاء بشيء من الحزن: تعرف إن فيه فرق بين إنك تسعى لمعرفة شخص وإن الناس تفرض نفسها عليك؟

فتحي: أكيد فيه فرق لما تسعى إنك تعرفي إنسان يبقى راجع إنك عايزاه يدخل حياتك، أما لما حد يفرض نفسه عليكي، ممكن تتقبليه وتقبلي وجوده، وممكن وجوده يكون له ثقل الجبل فلا تقبليه.

صفاء: ده غير الناس اللي مستكترة عليك النجاح، ومستغربين البت الفقيرة اللي دايما قاعدة مع الواد بتاعها دي تنجح وتجيب تقدير، إش حال إنها امتحانات أعمال السنة!

فتحي: إيه اللي بتقوليه ده؟

صفاء: سمعت الكلام ده بودني يا فتحي من اتنين بيتكلّموا وسخروا مننا بشكل وحش، وبعدها جم ياخدوا مني المحاضرات ينقلوها!

فتحي: ما كنتيش تديها لهم.

صفاء:مكنش ممكن.

فتحي:معلش بُكره يعرفوا قيمتك.

عادت صفاء مع فتحي إلى بيتها وقد أخذت عهـــدًا علـــى نفسها ألاّ تشغل بالها بأحد، سوى فتحي بالطبع، ودراســـتها، ولا تعيّر انتباهها إلى أي مخلوق، أيًا كان، فقط من ســـعت إلى معرفتهم ومن سوف تسعى هي لمعرفتهم بعـــد ذلـــك، أمـــا متسلقوها فسوف تهملهم قدر الإمكان.

وحاولت جاهدة أنْ تعيد حياتها إلى وتيرتها الأولى، وخاصة بعد أن بلورت حاجتها من أصدقائها الجدد الـــذين اختـــارت منهم واحدًا فقط، هو الذي يجب أنْ تحافظ على الآخرين مـــن أجله، وهذا الشخص هو بالطبع عماد الذي يُعَد والده من أكبر المحامين في المحافظة، ويعد سُلمًا جيدًا للتسلق، وبحاسة الأنثـــى عرفت أنّ عماد مهتم بها، لذا فلا يجب أن تضيّع منها الفرصة.

أما من وجهة نظر عماد، فقد ظن أنها تحاول نسيان فتحـــي وتقترب منه، وقال في نفسه: "طول الصبر يبلغ الأمل"، لكنه لا يعرف أنّه مجرد دَرَجة سلم سوف تصعد عليها صفاء في محاولة جادة للوصول إلى العلياء.

وانقضت الأيام يومًا يتلو الآخر، وهي تتيقن من أنها سوف تنتصر وتحقق آمالها، واقتربت الامتحانات واشـــتدت حاجـــة زملائها إليها، وبخاصة مجموعتها المقرّبة، وعلى رأسهم عمـــاد الذي كان يأخذ منها المحاضرات في كل المواد.

لم تتأخّر صفاء عنهم في شيء وأعطت دون تـردد حـتى انتهت الامتحانات وفى آخر يوم، طلبت من عماد أنْ تُحادثـه على انفراد.

طارت الدنيا بعماد، فظن أنها لانت له، وعزم أمره على أن يفاتحها ويخبرها بحبه، فجلس معها وهو باسم منشرح الـصدر وقال: خير يا صفاء؟

قالت: خير إن شاء الله، صمتت برهة ثم قالت: عماد إحنا أصدقاء من مدة، صحيح هي مش كبيرة، بس أنا حاسة إنهـا كافية جدًا عشان نبقى أصحاب.

- طبعًا.. طبعًا يا صفاء.

-أنا طالبة منك خدمة.

-اطلبي اللي إنتي عاوزاه وأنا تحت أمرك.

-عايزة اشتغل عند والدك.

تعجّب عماد بشدة وقال: ده إحنـا لـسّه في سـنة أولى، تشتغلي إيه عند بابا وإنتي ما بقتيش محامية؟

-أي حاجة إن شا الله سكرتيرة، أي شيء أنا عاوزة أتعلّـم كل حاجة عن المهنة دي من دلوقتي، مش عايزة أضيّع وقـت، ومش مشكلة مرتب وفلوس، أنا مش محتاجة الفلـوس، أنـا عاوزة أتعلّم بس.

-أنا هكلم بابا طبعًا، بس أنا مقدرش أوعدك، بس هبلغك رده إزاي وإنتِ معندكيش تليفون؟

-إديني نمرة تليفونك، وأنا هتصل بيك بعد تلات تيام من دلوقتي.

أخذت صفاء نمرة التليفون وهي مستبشرة خيرًا، ولكن دون أن تضع أملها كله في هذا الموضوع، حتى لا تهزمها صدمة الرفض.

وفي الطريق إلى منزلها، سألها فتحي عن سبب وقوفها مع عماد منفردين، لم تُجبْ صراحة وإنما قالت: هتعرف اللي بخطط له بعدين.

وظلت في حالة قلق شديد، ولا أحد يشعر بها، بينما فتحي منذ الصباح في الورشة، وعندما يعود لا يفهم شيئًا منها ولا يعرف ماذا أصابها، ثلاثة أيام على تلك الشاكلة قبل أن تتصل بعماد وتعرف نتيجة أول اختبار في الحياة بالنسبة لها، أخبرها عماد أنَّه قال لوالده كل كلمة نطقت بها، ولكنه لم يوافق موافقة صريحة، وإنما طلب مقابلتها في مكتبه، وأعطاها عنوان المكتب وحدد لها الموعد.

وفي اليوم التالي، تزيّنت صفاء، وارتدت أفضل ملابسها وتأكدت من حُسن مظهرها ووقارها فهي لابد أن تظهر بمظهر جيد يقنع الرجل بها.

لم تخبر أحدًا عن وجهتها حتى والدها أخبرته أنها على موعد مع صديقة لها في طنطا، وذهبت لمقابلة والد عماد في مكتبه، في عمارة راقية بشارع المديرية، استقلّت المصعد إلى الدور الرابع حيثُ المكتب كان ثالث شقة بالدور الذي به أربع شقق، وجدت بابه مفتوحًا ووجدت عماد في مقابلتها، سلّم عليها ودعاها للدخول لمقابلة المحامي الكبير سعيد الصعيدي، رجل على أعتاب الخمسين من عمره، وسيم، طويل، ممتلئ الجسم، لديه هيبة رهيبة ووقار كبير، وتزيده الشُعيرات البيضاء المتناثرة في شعره وسامة فوق وسامته، حيّته ودعاها للجلوس.

قال: عماد كلمني عنك كتير، وقال إنك طالبة متفوقة، وقال لي إنك عايزة تشتغلي معايا في المكتب.

راقت لها كلمة (معايا)، فهي أفضل كتير من تشتغلي عندي، وشعرت بأنه رجل جدير بالاحترام، فقالت بعد صمت لم يدم كثيرًا: صراحة يافندم أنا حبيت المهنة، ونفسي أتعلم كل شيء عنها، وأطلع سلمها من أوله بحيث لما أتخرّج أكون على أتم استعداد للعمل فيها والنجاح أيضًا.

- تفكيرك ده كويس جدًا بالنسبة لواحدة في سنك، عماد عمره ما أبدى لي رغبته في تعلم أي شيء.

ـــ يا فندم قربه من حضرتك ومعيشته معاك تحت سقف بيت واحد كفيلة بأنْ تعلمه الكثير والكثير.

راقته إجابتها، وشعر أنها سوف تكون مكسبًا لـــه فقـــال: المرتب هيبقى صغير.

-أنا صحيح مش غنية، لكن الحمد لله مستورة، وما تهمش فلوس خالص، زى ما قلت لحضرتك: أنا يهمني أتعلّم، يعـــني المفروض أنا اللي أدفع فلوس مقابل الخدمـــة العظيمـــة اللـــي حضرتك هتقدمها لي.

نظر الرجل إلى ابنه وقال: إنت لازم لك مكافأة على الهدية الجميلة اللي إنت جبتها لي.

ضحك عماد وقال: إن كان كده إيدك بقى عليها.

ضحكوا جميعا، ثم توجّه سعيد إلى صفاء بـــالكلام وهـــو يقول: في انتظارك من الغد، وأيام الدراسة ستعملين بعد الظهر.

ارتسمت على وجهها ابتـــسامة رضـــا وانتـــصار في أولى جولاتها، وشكرت الرجل شكرًا كبيرًا في غير ابتذال ووعدت بأنها ستكون عند حسن ظنه.

وخرجت من عنده وهى منتشية، سعيدة، تكاد تطير مـــن الفرح، وفى الطريق مرت على الورشة لتخبر أباهـــا بعودتهـــا، حيث إن لديه عملاً كثيرًا وكان يعرف أنه سيظل في الورشـــة للعشاء.

قالت لأبيها: مساء الخير..أنا لسه راجعة دلوقتي.. مش عايز مني حاجة.

- تسلمي يا ضنايا.. مع السلامة.

- ما تتأخرش.. عشان هاقولك موضوع مهم أما ترجع.

- فيه إيه؟

-أما ترجع.

ومالت على فتحي وقالت: أول ما تروّح تنده لي عشان عاوزاك.

كانت تعلم أنَّ فتحي لن يطيق الانتظار، وتعلم أيضًا أنَّه ينصرف من العمل قبل أبيها، لذا فهناك متسعٌ من الوقت لإخباره.

وكما توقّعت، بمجرد أنْ وصلت للبيت وبدّلت ملابسها حتى رأته وراءها، وعلى باب المنزل وقفت تحدثه: أنا هشتغل من بُكره.

اتسعت عينا فتحي عن آخرهما من جراء ما سمعه وقال: تشتغلي؟!! ليه؟ وإيه؟ هو إنتي محتاجة تشتغلي؟ ومن امتى فكرتي في الشغل؟

- حيلك.. حيلك عليّ وأنا هاجوبك على اللي إنت عاوزه.. فكرة الشغل من زمان في بالي، لكن المهم هو إيه الشغل المناسب؟ ولما لقيته ما اترددتش.. هشتغل في مكتب سعيد الصعيدي المحامي أبو عماد زميلنا، أنا اللي طلبت منه ده.. عرفت ليه كنت واقفة معاه؟

- كل ده من ورايا يا صفاء؟

-لا من وراك ولا حاجة أنا ما بحبش أقول حاجة قبل مـــا تتم.

-وهتشتغلى إيه في مكتب المحامى؟

-أي حاجة.. المهم أتعلم المهنة كويس.

- وطبعا سي عماد معاكي هناك.

-لأ.. عماد ما بيشتغلش هناك.

- ديك الساعة هيحلو الشغل، ده ما هيـــصدق، ولا مـــا تعرفيش إنه بيحبك؟

- بيحبنى؟! قالت بتصنع عدم المعرفة.

-آه. اللي بيحب بيعرف اللي بيحب زيه.

- بدل ما تفكر في الكلام الفارغ ده، فكر تعمل زيي وتبنى مستقبلك معايا.

-أنا مليش مستقبل في المحاماة.

-أمال ليه بتدرس الحقوق؟

- مجرد شهادة تتعلق على الحيط.

-إنت عارف كويس إن كلية الحقـــوق مـــاكنتش ضـــمن أولوياتي، ولا على قائمة رغباتي، لكن لما بقت هي اللي قدامى،

يبقى خلاص أطوّع نفسي لتقبلها وأطوعها لي عشان أنجح وأبقى حاجة فيها.

- وأنا ما أقدرش على كده.

-إنت حر يا فتحي.

- طبعًا حر.

صمت برهة ليسيطر على انفعاله، قبل أن يقول في وداعة: صفاء خلي بالك من نفسك.

كان لابد لها أن ترد بشيء تكسبه به وتكسر حدة غضبه، فقالت وابتسامتها تعلو وجهها: أنا ما بخافش وإنت جنبي.

ابتسم لها وقال:بحبك.

اعتلت حمرة الخجل وجهها ونظرت إلى الأرض وهي تقول: وأنا كمان، ودخلت بيتها مسرعة.

وأخذت تعدّ نفسها لمفاتحة والدها حين يأتي من عمله.

وأخبرته بما أخبرت به فتحي، ووافق الأب حينما رأى حماسها الكبير ورغبتها الأكيدة في هذا العمل، كما أنّه لا يستطيع أنْ يرفض لها طلبًا، واستعدت صفاء لبداية الرحلة الطويلة.

في الثامنة من صباح اليوم التالي، استيقظت وكلها حيوية ونشاط، والبشر ينطق من وجهها، انتّقت أفضل ملابسها وارتدمّا على عجل، تدندن بإحدى الأغنيات الخفيفة، حين

سمعت إشارة فتحي سارعت على الفور تفتح الــشباك وهــي تغلق آخر أزرار بلوزتها، طالعته بابتسامة عذبة، قابلها بمثلــها، وقد نطقا في نفس اللحظة: صباح الخير.

- قلت أشوفك قبل ما تمشي.

-أنا كمان كان لازم أشوفك قبل ما أمشي عشان اعــرف إن يومي هيبقى جميل.

- يا سلام بتعرفي تضحكي عليّ كويس.

-أنا؟!! بقى كده؟

- ميعادك هناك إمتى؟

-الساعة ثمانية ونصف.

- تحبي أوصلك؟

- ليه هو أنا صغيرة؟

- عشان أطّمن عليكي.

- اطمن واعتبر نفسك معايا، كفاية كلام بقى هتأخر.

- ماشي يا ست الموظفة.

ذهبت صفاء للعمل أول يوم، مصحوبة بدعاء والدها وحبيبها، دخلت المكتب، والخوف يملؤها كعادة أي إنسان يُقدم على شيء جديد، لم يكن الأستاذ بالمكتب، فاستقبلتها السكرتيرة والمحامون العاملون مع الأستاذ سعيد، أبدى الجميع ترحيبًا بها، حتى السكرتيرة التي سوف تشاركها صفاء العمل بدت متعاونة، وأخذت تعلّمها كل شيء، من حفظ الملفات وتصنيفها حسب نوع القضية، وترتيب مواعيد الأستاذ، وتسجيل مواعيد الجلسات، وما شابه، حتى كتابة المذكّرات على الحاسب الآلي.

أسبوع كامل مضى عليها في العمل وهي تتعلم في صمت وتشاهد وتخزّن كل شيء في عقلها، بدت للجميع مطيعة وصفحة بيضاء بحاجة لأن يملأها الجميع، كلٌ يكتب فيها بخطه وأسلوبه، لم تتذمر و لم تتحاذق، لقد أعطتهم هذا الإحساس، حتى تستفيد من الجميع وتستقي منهم خبراتهم دون أنْ يضن بها أحد عليها، لقد نالت إعجاب الجميع، ورعايتهم واعتبروها فتاة مدهشة جيدة بكل المقاييس، واعتز الأستاذ بذكائها، كان يظهر عليه بوضوح أنه يفهمها ويعرف أنها عكس ما أظهرت، لكن صفاء بالفعل يصعب فهمها، أو إدراك ما تفكر فيه بسهولة، لذا لم يرقها إقناع الأستاذ لها بالفعل بأنه يفهمها، ولكنها بالرغم من ذلك، لم تزد من تصرفها كأنها بالفعل

صفحة بيضاء وإنما كانت صفحة مُلئت في ظرف أيام ببعض المعلومات، بل إنها تظهر له ما تتعلمه بشكل جيد، مضافًا إليه بعض لمساتها، فصار بحق معجبًا بها وبذكائها.. واليوم الجمعة إجازتها، كما أنها إجازة فتحي من الورشة، دعتها أم فتحي لتعدّ معها الفطير الذي تحبه، ويحبه ولدها أيضًا، وذهبت صفاء لتجد فتحي في استقبالها، بينما أمه بالمطبخ تعد العجين، قال لها: وحشتيني قوى.. أسبوع كامل معرفش أكلمك فيه كلمتين على بعض.

- ما إحنا بنشوف بعض كل يوم الصبح.

- وهو ده كفاية؟ أنا نفسي أقعد معاكي وأكلّمك كتير، أنا عمري ما حسيت إنك بتوحشيني بالشكل ده إلا دلوقتي، واقترب منها وطبع قبلة على وجنتها، فاضطربت وابتعدت وأظهرت بعض الغضب وهى تقول: إيه ده؟ عيب يا فتحي.. كانت المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك، ولكن فرط شوقه غلبه وأخرجه عن إدراكه، تلك أول مرة يفترقان فيها كل تلك المدة دون أن يجلسا سويًا، ويتسامرا، وأشعره غضبها بالخجل من نفسه فأخذ يعتذر لها بشدة إلى أن قبلت اعتذاره وأخذت منه زجاجة المياه الغازية التي أحضرها خصيصًا من أجلها ورجعت الابتسامة الصافية لوجهيهما.

مازال الوقت باكرًا على موعد صلاة الجمعة، فجلس فتحي معها ومع أمه وهما يصنعان الفطير فقال لها: بس هتحكي لى عاملة إيه في الشغل؟

روت له صفاء مجمل أحداثها، فجمعت الأسبوع بكامله في بضع كلمات ليس إلا، ولكن دون أن تُشعره بألها تخفي عنه شيئًا، فلا تثير بذلك حفيظته، واطمأن قلب فتحي من ناحية عملها.

مرت بها الأيام وهي تُثبت كفاءتها كل يوم عن سابقه، وقد بدأت في قراءة ملفات القضايا القديمة جيدًا، لتعرف ملابسات كل قضية، والدفوع المقدمة لها، وتعرف الفرق بين نوعيات القضايا، هذا غير الكتب والمراجع القانونية القيمة التي تذخر بها مكتبة الأستاذ.

إنَّ المحاماة بحر واسع خضم لا تمثل فيه الدراسة جزءًا كبيرًا، وإنما الممارسة هي أصل المهنة وأساسها، لذا فإن عملها في هذا المكتب هو المدرسة الحقيقية، والموسوعة التي يجب أنْ تنهل منها بقدر ما تستطيع.

لقد سألها الأستاذ في أحد الأيام، لماذا تُصر على العمل في دائرة المحاماة وهي متفوقة، ولها الفرصة للعمل بالتدريس في الجامعة أو في النيابة الإدارية.

أجابته صفاء إجابة واقعية، فلقد تعلمت أن تحيا في الواقع: هجاوب حضرتك وبصراحة.. حضرتك تعلم تمام العلم إن فرصة العمل كمعيدة ليست مضمونة، فتلك الوظائف أصبحت حكرًا على أبناء الأساتذة، وتلعب الواسطة دورًا كبيرًا فيها، كمان أنا يا دوبك خلّصت سنة أولى، مين عالم نتائج السنين

الجاية شكلها إيه؟ ولا هم هيعملوها إزاي عشان يطلــع ابــن أستاذ ولا أستاذة مكاني، وبعيد عن ده كله، ممكــن تكــون الكلية في السنة اللي هتخرج فيها مش محتاجة معيدين، وأنــا مش عايزة أبقى زى اللي رقصوا على السلم، وما طلتش عنب الشام ولا بلح اليمن، أنا عايزة أي مكان أبدأ فيه أكون كبيرة فيه.

- عندك حق يا بنتي.. يا ريت فيه عشرة بيفكروا زيك.

- الله يخليك يا أستاذ سعيد، أما بقــي النيابــة الإداريــة، فبصراحة لا أعتقد أنها تستهويني، كما إن العمل فيها ليس لــه بريق العمل كوكيل نيابة عامة أو قاضٍ في محكمة، ولا تــنس أستاذي الواسطة أيضا.

- عارفة يا بنتي أجمل حاجة فيكي إيه؟

- إيه هي يا أستاذ سعيد؟

- إنك مش عايشة في الأحلام زى شباب كتير أولهم ابني، والمحامين اللي بيشتغلوا معايا هنا!

- من وأنا صغيرة وأنا مؤمنة بشيء واحد بــس، إني مــا أحلمش غير الحلم اللي أكون قادرة على تحقيقه، وأنا باعتبر إن ده سر نجاح كل الناس اللي لهم اســم في المجتمــع ومكانــة اجتماعية مرموقة، حصلوا عليها من خلال عملهم طبعا.

- فعلاً ده حقيقي، بس إزاى في سنك ده، قدرتي تتوصــلي للحقيقة دي؟ أنا عرفتها من خلال خبرتي وعملي مــع نــاس

كتير، أنا ما عشتش في الأحلام لكن طوّعت اللـــي في إيـــدي للنجاح بنوع من الجد والاجتهاد، والكـــتير بـــين المـــوكلين أصحاب الأعمال الهامة، لم يقل لي أحدهم أبدًا أنه حلم بشيء أكبر من قدراته، بل هو يحلم بما في يده، وما بإمكانـــه، ومـــن خلاله يصل لما يريده، وما هو أكبر منه، ربنا يوفقك يا بنتي.

- متشكرة يا أستاذ سعيد.

وشعرت صفاء بأهمية دخول هذا الرجل حياتهـــا، وبقـــدر الاستفادة الكبيرة التي سوف تحققها من معرفته.

أصبحت ساعة الصباح بل الدقائق المعدودة كل صباح هي مجال الرؤية الوحيدة ليرى الحبيب حبيبته، وتستبـــشر الحبيبـــة بوجه حبيبها، دقائق معدودة يختلسانها من الزمن المفقود مـــن عمريهما، بضع كلمات تتردد على لسانيهما كل صباح، ليس فيها الكثير ولكنها تحمل في طياتها آثار الـــشوق المتـــأجج في صدريهما، وفى هذا الصباح رآهما الحاج ســـعيد جـــبر هـــو وزوجته وهما يجلسان في حانوتهما، وقد أحضرت له زوجتـــه طعام الإفطار فقال لها: ياه على الشباب يا أم طـــارق.. ليـــت الشباب يعود يومًا لأخبره بما فعل المشيب!

-إيه يا حاج، هناخد زماننا وزمن غيرنا كمان؟

-أنا ما بقولش حاجة، بس كل ما بشوفهم بحـــن لزمانّـــا الجميل الناعم، وبشفق عليهم في الزمن الصعب ده.

-والله صحيح يا أبو طارق، ده المشوار قدامهم طويـــل.... طويل قوى يا حاج.

- ربنا يكون في عونهم وفى عون أهاليهم.

- ويصبرهم يا أبو طارق على أيامهم وزمانهم.

سرعان ما انقضى شهر على صفاء في العمل، وهـــا هـــي تحصل على أول راتب في حياتها، أول نقود ربحتها بعد عمـــل شاق ومضن، أرادته بنفسها وأحبّته، فاجتهدت فيـــه وبـــذلت أقصى ما في وسعها.

وشعرت بطعم آخر للسعادة، حين أمسكت بين يديها تلك النقود القليلة، كان مبلغًا ضئيلاً جدًا، ولكن بالنسبة إليها، أكبر مبلغ حصلت عليه وضمّته يديها، كانت سعادتها مختلفة عـــن تلك التي تشعر بها حين تكون في حضن أبيها، أو برفقة فتحي، أو حين تحصل على فستان جديد، أو حذاء، إنها ســـعادة مـــن نوع آخر، أول مرة تعرفها، وتتذوّق طعمها.

خرجت من عملها وهى طائرة من الفرح وفى يـــدها أولى ثمرات كفاحها، فذهبت إلى أحد المطاعم وابتاعـــت دجاجـــة مشوية، ثم ذهبت إلى محل الحلويات الشهير بالبلدة، وابتاعـــت دستتي جاتوه، واشترت شيئًا آخر مهمًا جدًا، وأســـرعت إلى بلدها، وقبل أن تدخل بيتها، قرعت باب فتحي لتفتح لهـــا أم فتحي الباب وعلى وجهها ابتسامة، فأعطتها صـــفاء إحـــدى دستتي الجاتوه، وقالت لها: دي حلاوة أول مرتب يا خالتي.

فردت المرأة الطيبة عليها: عقبال ما نجيب لــك في بيــت العدل يا ضنايا.

- متشكرة يا خالتي.

وذهبت لمترلها فرحة بما أحضرت لإخوتها، فلقــد كانــت تعرف مدى رغبتهم في أكل تلك الدجاجة، ومــدى حبــهم للجاتوه.

لقد جمعت الأسرتين على شيء واحد، فجلسوا جميعًــا في وقت واحد يتناولون ما أهدتهم إياه.

وقبل أن تشاركهم، سمعت الإشارة، فتوجّهت نحو الــشباك مسرعة، وفتحته لتطالع وجه حبيبها الذي قال لها: مبروك.

-الله يبارك فيك عجبك الجاتوه؟

- لسه ما أكلتوش.

- ليه؟

- قلت أبارك لك الأول.

- طب خد الكيس ده، وقذفت إليه الكيس عبر النافذة.

-إيه ده؟

-افتحه وأنت تشوف، وفتحه فتحي، ليجد القميص الــذي كان يتمنى شراءه، ففرح به جدًا وقال لها: ليه كلفتي نفسك يا

صفاء؟ هو يعني مرتبك كام جنيه عشان تجـــيي بيــه قمـــيص عشاني؟

-أولا مفيش تكلفة ولا حاجة، ثم إنه مش غالي، ثانيا مـــا أحبش أعرف إن نفسك في حاجة، وما أجيبهاش على طـــول، ثالثًا إنت فاكر أول يومية خدتها من الورشة، واشتريت لي بيها كلها العروسة اللي كان نفسي فيها، فاكر ولا نسيت؟

- ربنا يخليكي ليا.

منذ أسبوعين كان فتحي قد ذهب إليها في مكان عملها و لم يصعد، انتظر خروجها، فلقد كان في شوق كبير لها، وبحاجـــة لأن تسمعه ويسمعها ويحدثها، فانتظرها حتى خرجت وســـارَ معها في شوارع المدينة رغم خوفهما من أن يراهما أحد، ولكن نيران الشوق المتأججة بداخلهما كانت أقوى من هذا الخوف، وأكبر من أي خوف، وفي أثناء سيرهما، شاهد القميص الـــذي أحضرته له وأعجب به بشدة، ولكن لم يكن معه شـــيء مـــن ثمنه، وها هي تأتي له بما يحب ويتمنى.

لذا في صبيحة اليوم التالي، ذهب فتحي إلى محل بيع الحلـــي الفضية وابتاع قلادتين، بكل منهما قطعة مكتوب على إحداها "لا إله إلا الله" والثانية "محمد رسول الله"، وبعد أن أنهى عمله، توجّه إلى عملها، وقابلها هناك وسعدت لرؤيته جدًا، وجلست معه لأول مرة في أحد الكازينوهات، لم تفعلها معه من قبـــل،

ولكنها كانت في حاجة لأن تسمعه، فهي تفتقده كثيرًا بسبب عملها هذا.

جلسا وأخذهما الوقت وسعدت بالقلادة التي ألبسها إياهـا بنفسه وألبسته قلادته بنفسها، واتفقا على ألا يخلعاها مطلقًا.

ثم توجّها إلى موقف سيارات بلدهما، وركبا سويًا وحـين وصلا البلدة، نزلت هي في أول البلد، ونزل هو في آخرهـا، حتى لا يراهما أحد يسيران سويًا.

رغم أنهما يحاولان إخفاء هواهما عـن الجميـع، إلا أن أي مخلوق ينظر لعينيهما حين يلتقيان، من السهل جدًا أن يعـرف مكنون قلبيهما والهوى الساكن فيهما.

لقد مضى على انتهاء امتحاناتها شهر ونصف الشهر، وبدأ القلق يتسرّب إلى نفس صفاء من أجل النتيجة، وكلما ذهبـت لتسأل، لا تجد شيئًا، وكل ميعاد تسمع به تـذهب ولا تجـد شيئًا، ولكن في صباح أحد الأيام، دخل عماد المكتب مستبشرًا فرحًا، فلقد جاء ليبلغ صفاء النتيجة، ويبشّر والده، لقد نجـح، وكذلك صفاء التي نجحت بتفوق، فهي الثانية بفارق ضئيل عن الأول، وسألت مسرعة: وفتحي عمل إيه؟ قول لي والنبي.

-أنا شفت بس عشان خاطرك، نجح يا ستي.

-الله يبشّرك بـالخير، نطقتـها، وهـي في أوج سـعادتها وسارعت تدير قرص التليفون، بينما عماد يتحدث مع والده في أمر مكافأة النجاح، على الجانب الأخر رد عليها الحاج عبد الله

صاحب الورشة فقالت له: أنا صفاء يا حاج والنبي قول لأبويا إني نجحت.

-مبروك ألف مبروك يا بنتي.

-الله يبارك فيك، وسارعت قائلة: وقول لفتحي كمان إنه نجح.

-حاضر.

ثم استأذنت رب عملها، لتذهب إلى الكلية، لتتأكد من التقديرات، وسمح لها الرجل فانصرفت على الفور.

ثم توجّهت إلى البلدة وعرجت إلى الورشة لتبشر أباها وتبشر فتحي، وشربت الورشة كلها شربات النجاح بل التفوق أيضا، وفي عملها، كافأها الأستاذ على تفوقها بمبلغ لا بأس به، سعدت به جدًا، وزادها نجاحها رغبةً في مواصلة المشوار وتمسكًا بما تريد، ولكن هناك عقبة في طريقها بل هي ليست كأي عقبة قد تقف في طريق إنسان، إنها أكبر عقبة، إنه الحب، حبها لفتحي أكبر عقبة في حياتها، فهو ليس به طموحها ولا يريد ما أرادته لنفسها بينما هي تريده ويريدها، ولكنها تريد نجاحها في الحياة، فالحياة ليست فتحي وحده ولكن ماذا بيدها لتنقله من البئر التي يختبيء فيها إلى بحرها الواسع؟

اقترب موعد الدراسة في العام الجديد، وبدأ الجميع يستعد، فإخوتها وإخوة فتحي يفصّلون زيّ المدارس لهذا العام، بينما اكتفت هي بشراء طاقمين جديدين من مرتّبها، ولم تحمّل أهلها شيئًا هذه المرة، وهكذا فعل فتحي الذي ساعد أباه في مصاريف إخوته.

كانت قد اتفقت مع الأستاذ سعيد على أن تعمل طوال الأسبوع، بما فيه أيام الدراسة، غير أنها ستذهب للعمل بعد انتهاء محاضراتها، وتلك كانت رغبته، فلقد شعر بالفارق الكبير في عمله معها، إنها شيء مختلف، فكل شيء تلمسه، أو تؤديه يكون شكلاً آخر، إنها سيلٌ من النجاحات حتى مع أتفه الأشياء، فلمستها للأشياء هي السحر بعينه.

وبدأت الدراسة، وانتظمت صفاء في الكلية، فهي لا تدع أي محاضرة تفوتها، وبعد انتهاء المحاضرات تتوجه إلى عملها، وفي الثامنة مساءً تكون متوجهة إلى بيتها، وأحيانا تتأخر إلى العاشرة، حسب حجم العمل في هذا اليوم، ومع هذه الأيام المزدحمة، فقد نبتت بذور الفرقة بينها وبين فتحي الذي وصل به الغضب أشده، فهو لم يعد يراها، إحساسه بافتقادها أفقده الإحساس بأي شيء، فهو لا يراها إلا في الصباح وهما في طريقهما للكلية، وهناك تجلس تستمع للمحاضرات، فلا تشعر بأحد غير الأستاذ الذي يلقي المحاضرة، وفي الأوقات بين

المحاضرات، تتكلم معه قليلاً، ثم تجد ما يشغلها عنه، فهذه تأتي لتقول كلمتين، وهذا يأتي ممازحًا، وتلك وذاك حتى أصبح الأمر لا يطاق!

استمر الحال هكذا ثلاثة أسابيع، فرغ بعدها صبره، فأتى يوم كانا فيه معا في الكلية وما إن انتهت المحاضرات، حتى جذبها من يدها وهي تسأله: في إيه يا فتحي؟ على فين؟

ثم توقف عن المسير ونظر إليها وقال: لحد إمتى هنستمر على كده؟

قالت والدهشة تملؤها: قصدك إيه؟

- مش معقول مش حاسة!

- حاسة إيه؟ ما تنطق.. فيه إيه؟

- فيه إني خلاص، ما عدتش قادر على كده، أنسا فين في حياتك؟ ما عدناش بنتكلم ولا نقعد مع بع، إيه؟ ما بوحشكيش؟

- أيوه يا فتحي، ما بتوحشنيش، عارف ليه؟

- ليه يا أستاذة؟!! نطقها بسخرية تملأ كلماته.

-لأنك دايمًا في بالى، ومعايا، يبقى إزاي هتوحشنى؟!

- ما اقتنعتش.

-إنت حر، وأنا هعمل إيه؟

- سيبي الشغل.

- ده من رابع المستحيلات.

- يا سلام.. ليه بقى؟

-لأني ما أقدرش أتخلى عن حياتي، ثم لازم نتحمل ونتعب في بداية حياتنا، إن معملناش كده دلوقتي هنعمله إمتى؟

- بس ده وقتنا، ودي الفترة اللي لازم نستمتع فيها بحياتنا، ليه عايزة تضيعيها كده؟

-إحنا ممكن نخلق سعادتنا، وحياتنا في أي وقت، وأي سن، بإيدينا نكون أو مانكونش، المهم التفاهم، تعرف يا فتحي شغلي ده خلاني أختصر السنين، وإداني خبرة يتمناها أي إنسان.

- يعني إنتي مصممة على رأيك؟

-أيوه مصممة، ويا ريت تفكر تعمل زيي. صدقني هتختلف حياتك، وهتحس إن ليها قيمة، ده غير لذة كفاحك كل ما تحقق نجاح.

- ياه! وشغل السكرتيرة هو اللي معاه النجاح وهو ده الكفاح.

-أي سخرية تانية مش هسمح لك، نطقت تلك الكلمات وشرر الغضب يتطاير من عينيها ثم تركته ومضت.

كانت تلك أول مشاجرة في عمرهما القـصير، سـارت، وسار، كلٌّ في طريق، ذهبت إلى عملها وهناك غُصة في حلقها، ولكن على باب المكتب تركت مشكلتها، وغضبها، ومرارتها، ونسيت كل شيء، فالعمل عمل، وليس به مجـال للمـشاكل الشخصية، وليس هناك داعٍ لأن تعطى الفرصـة لأي مخلـوق ليسألها عما بها، ثم يمـضي بالحـديث فيتـدخل في شـئونها الشخصية.

واستطاعت صفاء بالفعل الفصل بين ما تعانيه وما يظهـر عليها، و لم يلحظ أحد أبدًا ما بها، أما فتحي فـانطلق بمفـرده هائمًا في الشوارع، يمشي بلا هدف، وكأنه تائهٌ عن دربـه، لم تثر في وجهه من قبل، لم تحتد عليه هكـذا، لمـاذا تحولـت وأصبحت بتلك الشراسة؟!! طيلة عمرها وهي وديعة، رقيقة، تبكي بسرعة، وإذا أصابته نزلة برد بكت لأجله، وانتحبـت، وإن كان معها أي شيء اقتسمته معه، ماذا حـدث؟!! وبـدأ فكره يذهب إلى وجود شخص آخر بحياتهـا، ولكنـه عـاد وتساءل: من هذا الذي استطاع أن يمحو حبًا نسجته الأيـام والسنون سنة بعد أخرى؟ ثم عاد وقال: إنه ليس حبًا، بل هي العشرة والجيرة، فهي لم تجد غيري أمامها و لم أجـد غيرهـا أمامي!

ثم عاد ونهر نفسه، ثم عاد لفكره الأخرق وظل هكذا، بين تلك الفكرة وغيرها حتى أمسى به الكون، وتأخر به الوقت فلم يشعر وهو يمر.

ذهبت في موعدها لمترلها، فوجدت أم فتحي تجلس خلف شباك حجرة ولدها ويدها على خدها فقالت لها: مساء الخير يا خالتي، عاملة إيه؟

- مساء النور يا بنتي، الحمد لله، إلا قولي لي يا صفاء ما شفتيش فتحي؟

- من ساعة ما خلصنا المحاضرات ما شفتوش ليه هو فين؟

- من ساعة ما خرج للكلية الصبح ما رجعش.

- ما رجعش؟! إزاي ده؟

- والله ما أنا عارفة يا بنتي، أنا خلاص هتجنن، يا ترى راح فين؟

-ما تقلقيش يا خالتي، زمانه راجع، هو صغير ولا إيه؟

قالت صفاء تلك الكلمات وهي تتمزق من الداخل، فهي قلقة بالفعل عليه، ونسيت غضبها منه، وأصبح ما يجول بخاطرها: أين هو؟ وماذا حدث له؟ إنه مجنون بها ولن يتورع عن فعل أي شيء.

ولم تأكل، وإنما دخلت حجرتها، وظلت بملابسها، جلست إلى الشباك في مواجهة أم فتحي، في انتظار الغائب، وكلٌ منهما عينها تتطلع إلى مبدأ الشارع عله يظهر، وأخيرًا، وفي الساعة التاسعة والنصف، ظهر فتحي، دخل الشارع يمشي بتؤدة ولكنه في الواقع كان يجر قدميه.

ما إن رأيتاه حتى تهللت أساريرهما، ولكن صـــفاء دخلـــت مسرعة متعللة بأن أمها تناديها، ودخلت أم فتحي لتفتح الباب لابنها، وتأخذه في حضنها، وهى تسارع بالقول: كنت فين يا عنيا؟ ده أنا كنت هموت أنا وصفاء من تأخيرك.

- بعد الشر عليكي يا أمّه، وسكت قليلا ثم تابع قائلا: أنـــا تأخرت مع واحد صاحبي كان تعبان شوية.

- طب يلا، خش غيّر هدومك، وتعال عشان تاكل.

-لا يا أمّه أنا لسّه واكل مفيش ساعة مـــع صـــاحبي، أنـــا هدخل أنام، عشان تعبان شوية.

- سلامتك يا عيوني.

ودخل حجرته، وجدها تجلس إلى جوار الشباك وفى يـــدها كشكول محاضراتها، ألقى بنفسه على السرير بملابسه، ولحتـــه، ولكنها لم تستطع أنْ تكلمه، لم تقدر، فهي بعد مـــا زالـــت غاضبة، وإنْ تناست غضبها هذه الفترة حتى اطمأنت لرجوعه سالمًا، مرت ساعة وهى جالسة في انتظار أنْ يصالحها ولكنـــه أبدًا لْم يفعل، فأغلقت شباكها وحاولت النوم رغم أنّـــه أبى أن يصاحبها، فظلت تتململ في سريرها، وبين حين وآخر تتطلـــع من خلف الشيش، علها تراه ولكن ليس لـــه أثـــر، ومـــا زال الشباك مفتوحًا ولم ينغلق إلا الفجر، وبعـــدها نامـــت إلى أنْ أيقظها أبوها في موعدها كل صباح، وانتظرت صفاء أنْ يفتح

الشباك ولكن لم يحدث، وظلت منتظرة حتى أتتها صـــديقتاها، فخرجت معهما، وسألتها إحداهما: أين حارسك الأمين؟

ردت عليها دون أن تشعرها بوجود شيء بينهما: هيحصّلنا بعد شوية أصله صحي متأخر.

سارة: طبعًا يصحى متأخر مش بيحب.

صفاء:بطلي الكلام ده.

وعلى المحطة، أخذت تبحث عنه بين جموع الـــواقفين، ولا أثر له، حتى أن أشرف يقف بمفرده دونه ولسان حاله يـــسألها: أين هو؟

وأصبحت حيرتها على أشدها، ووصلت الكليـــة، وســـألها أشرف، فأجابت بعدم المعرفة.

وظلت اليوم كله لا يشغلها سوى تصرف فتحي، رغم أنها هي الغاضبة منه، وانتهى اليوم كئيبا طويلاً، تلك أول مـــرة في عمرها لا تراه، إنها كل يوم معه، كل يوم تطـــالع وجهـــه، لم تغب عنها ابتسامته وحتى دموعه لم يخجل منها فبكى أمامهـــا، كيف يحدث ألا تراه يومًا؟!!

وصلت البيت في الثامنة والنصف وكان الـــشباك مغلقًـــا أيضًا، ورغم أنها كانت مرهقة جدًا، إلا أنها لم يغمض لها جفن هذه الليلة أيضًا، واستمر الحال على ما هو عليه، فهو لا أثر له وهي كرامتها تأبى أن تذهب لتسأل عنه، ويكفي أنه المخطئ.

وفى صباح اليوم التالي لم يظهر، ولم يفتح الشباك، واضطرت أن تذهب لكليتها دون رؤيته، وأصبحت في واد آخر، مضطربة حائرة، فاقدة التركيز بشكل فظيع، وتكتب المحاضرات وراء الأساتذة كأنها إنسان آلي يسجّل ما يسمع دون تفكير، خرجت من الكلية تبحث عن أقرب تليفون وأبلغت الأستاذ اعتذارها عن المجيء للعمل اليوم، ثم طارت إلى بلدها، كانت تتعجّل الدقائق لتصل إلى منزل فتحي، دقت الباب ففتح أخوه فريد سألته: فين فتحي؟

قبل أن يجيب الفتى، كانت أمه في مواجهتها، فردت عليها: جوّه بقى له يومين بيقول تعبان ومش عايز يخرج.

- ممكن أشوفه يا خالتي.

- طبعًا، خشي يا حبيبتي.

قرعت صفاء الباب بلطف، ثم دخلت فوجدته مستلقيًا على السرير، اعتدل حين رآها ولكنه لم ينطق بكلمة.

قالت وهى تقترب، وتجلس إلى جواره: المفروض إن أنا اللي زعلانة مش إنت! لم يرد عليها، فشعرت بجرح آخر ينفذ إلى قلبها، وبإهانة أخرى فقالت: كويس إنك بخير، وإني اطمّنت عليك، وقامت لتمشي، وقبل أن تصل إلى باب الحجرة ناداها قائلا: صفاء.

-نعم. عاوز حاجة؟

قام واقترب منها وقال: أنا آسف، مكنش قصدي أسخر منك، غضبي هو السبب، سامحيني.

-أنا ممكن أسامح أي حاجة ممكن تعملها، غير إني اقعد يومين ماشوفكش.

- غصب عني.. كنت تعبان ومضايق.

- إنت اللي مكبّر المشكلة.. رغم إن من وجهة نظري مفيش مشكلة.

-إنتي بتعتبري إن مفيش مشكلة، وأنا شايف إن فيه معضلة، وهي إني حاسس إني بفقدك وإنك بتضيعي من إيديا.

-هروح فين يا فتحي؟ أنا معاك مهما حصل، المهم نقرّب وجهات النظر.

-المهم سامحتيني؟

- طبعًا، قالتها في دلال وحب.

فلثم يدها وهو يقول: ربنا ما يحرمني منك أبدًا.

وصمتا قليلاً، تبادلا نظرات المودة والشوق إلى أن بدد الصمت قائلا: احكي لي عملتي إيه من غيري اليومين دول.

- كنت بفكر فيك لحد ما هدني التفكير، ونهاره خلتني جيت لك لحد هنا.

-عارفة أنا حاسس بإيه؟

-إيه؟

- جعان، جعان جدًا، عايز أعوض اليومين اللي فاتوا.

- معقول يا فتحي تقعد يومين بحالهم ما تـــاكلش عـــشان زعلنا شوية؟

- وإيه تساوى الدنيا من غيرك؟!!

- يا حبيي.

صرخ قائلا: الله أكبر........ يا أمّه، يا أمّه هتأكلينا إيــه النهارده؟

قالت أمه في فرح: صحيح يا فتحي هتاكل؟

قالت صفاء: صحيح يا خالتي وأنا كمان هاكل معاه، المهم عاملة لنا إيه؟

- عاملة كشري من اللي قلبك يحبه، هاجيبه وآجي.

وقبل أن تدخل مطبخها، التفتت إليهما وقالـــت: كنـــت عارفة إنك إنتي اللي هتداويه.

ضحكا ثم تبادلا الحديث إلى أن أتى الكشري والتهماه عن آخره.

وفي المساء، دخل سلامة وزوجته إلى حجرتهمـــا يتبـــادلان الحديث قبل استسلامهما للنوم بعد يوم آخر من أيـــام الحيـــاة المرهقة.

قال سلامة: يعني فتحي خف، وبقى زى الحصان.

- أُمال البركة في صفاء.

- شكـــــلهم كان متخانق.

- ما أنا قلت كده برضه.

- ياما أنا خايف الواد يبقى في إيدها نسخة من أبوها في إيد أمها.

- لا يا خويا ما تقولـــش كده على ابني.

- هو أنا قلت حاجة؟ ما إنتي شايفة قدامك أهـــو، شـــوية زعل رقد فيهم يومين لا أكل ولا شرب، أمال لو سابته ولا لو حصل حاجة كبيرة، هيبقى شكله عامل إزاى؟!

- ما أعرفش، بس أنا ابني راجل.. إش جابه لمحمـــود أبـــو صفاء؟

- يا وليّه متقوليش كده متغالطيش نفسك! إنتي عارفـــة إن محمود راجل، وسيد الرجالة، مشكلته إنه قدام مراتـــه بيبقـــى حاجة تانية، بيحبها لدرجة الجنون، وإنه ميقدرش ينطق بكلمة قبالها، أي كلمة تكون مخالفة لرأيها.

- والله ما أنا عارفة يا أبو فتحي، بس دي تبقى مصيبة لـــو الواد بقى زى أبوها!

- سيبيها على ربنا، هو حلال العقد، وهادى كل من كان.

وعادت الحياة لمجراها بين الحبيبين، عاد الشباك يُفتح من جديد ليدخل النور مرة أخرى حاملاً نسمات الهواء العليل المحملة بعطر الهوى، وعبير العشق المتأجج في قلبي فتحي وصفاء.

أيام مضت، وهو يحاول جاهدًا مقاومة شعوره بافتقادها، والاعتياد على الحياة الجديدة التي كان لكل منهما هدفٌ مختلفٌ فيها.

وكل يوم يمر، تزداد هي إيمانًا بتفوقها وجدارتها، وأنها سوف تصبح محامية يُشار لها بالبنان، أما هو فيثبت عمليًا قدرته كفنان ماهر، كان الحاج عبد الله يحافظ عليه ويجزل له العطاء، أما الأسطى محمود فلم يبخل عليه بأي شيء، فهو يعلّمه المهنة بكل صغيرة وكبيرة منذ صغره حتى آل لما آل إليه الآن.

أيامٌ كثيرة تمر ولم يعد هناك شيء يشغل صفاء سوى عملها، ومذاكرتها التي أصبحت تقبل عليها بحماس أكبر، ورغبة لا مثيل لها، ودرجة عشق لا توصف، وامتثل فتحي للوضع الجديد، وأصبح يعتاده شيئًا فشيئا، وبدأت الهوة تعرف طريقها للاتساع.

انغلق فتحي على نفسه، فدارت حياته بين عمله وكليته وصفاء فقط، أما هي فقد بدأ يدخل حياتها الكثير، والعديد من الرجال بدأوا يعرضون عليها أنفسهم طالبين ودها، راغبين في الارتباط بها بدءًا من عماد ابن الأستاذ، مرورًا بالمحامين العاملين

في المكتب، إلى الموكلين أصحاب القضايا، الجميع يلاطفونها ويسعون خلفها، ولكن الشيء الغريب والملفت أنها لم تلتفت لأي منهم، لم تعقد مقارنة واحدة بين واحد منهم وفتحي، حتى وإن كانوا في مستوى مادي وعائلي وتعليمي أكبر، لم يهز أحدهم شعرة واحدة منها، و لم تؤثر فيها نظرة من عين أحدهم، كما تؤثر فيها نظرة عين فتحي الساحرةk ولكنها سألت نفسها: مادامت تحبه كل هذا الحب... فلم تعذّبه وتعذّب نفسها؟! وماذا سوف تستفيد من الجفاء الذي حل بعلاقتهما؟ وتلك الهوة التي اتسعت بينهما؟ والمعاناة التي تلمح آثارها في عينيه كلما نظرت إليها؟ حتى صارت تتهرّب من النظر إليها وهى التي يوما لم تمل أو تهرب منها؟!!

كانت الإجابة رغم صعوبتها واضحة جلية جلاء نور الشمس الساطع بلا حجب، إنها ببساطة كلمة واحدة دائما تفسر نفسها وينهار إلى جوارها كل منافس، حتى ولو كان حبيبًا، إنها كلمة (أنا)، نعم، (أنا)، فالأنا لدى صفاء لها صوتٌ جهوريٌ، وقلبٌ قويٌّ، وكلمة لا ترد، ومطلبٌ مجابٌ، وعينٌ لا تغفل، وتلك هي مأساتها.

ولكن ما ذنب فتحي المُحب الواله العاشق؟ جُرمه أنّه أحبها.

في أحد الأيام، كانت الساعة تقارب السادسة والنصف، لم يكن بالمكتب سواها، حين حضر الأستاذ، ودخل حجرته

وطلب منها عدم إزعاجه، ثم أتى الأستاذ مجدي الزيات أحمد المحامين بالمكتب، ألقى عليها تحية المساء، دخل مكتبه ثم خرج بعد دقائق ليطلب منها أنْ تكتب له ورقة على الآلة الكاتبة، أخذتها منه، وشرعت تكتب أول كلمة حين فاجأها بقوله: أتعلمين أنك رقيقة وجميلة جدًا؟

سيطرت على نفسها ورسمت ابتسامة مجاملة وهي تقول: شكرًا على المجاملة الرقيقة.

-أنا مش بجامل. إنتي فعلاً كده، وأكثر لو بإيدى لكتبت فيكي كل يوم قصيدة شعر.

-أستاذ مجدي.. كفاية من فضلك.

- لا أرجوكي، سيبيني أكمل..أنا ما صدقت لقيت فرصة أقول لك على إحساسي من ناحيتك وحبي الكبير ليكى من أول يوم شفتك فيه، بحبك، بحبك.

-قلت كفاية ومش عايزة أسمع كلمة زيادة وإلا هقول للأستاذ.

و لم تكمل كلمتها لأنَّ الأستاذ ببساطة كان مستمعًا لكل كلمة قالها مجدي، فخرج بهدوء وقال كلمة واحدة: ورايا تاخد حسابك، وما أشوفش وشك هنا بعد كده.

كانت المفاجأة من نصيب مجدي وصفاء على السواء، فهي لم تتخيل أنْ تتسبب في قطع عيش مخلوق أيًا كان، ولكـــن لم يكن باستطاعتها أنْ تنطق بكلمة فالرجل فعل ذلك من أجلها.

تلك كانت عينة مما تعانيه صفاء وتلاقيه من كل الرجـــال الذين تقابلهم، و لم يكن بمقدورها أنْ تشكو أو تتذمر أو تحكي لفتحي أي شيء، فيكفي ما بينهما، فلا يجوز لها أنْ تشعل النار أكثر من هذا.

(٩)

دارت الأيام، وفتحي يغرق في عمله بالورشة أكثر وأكثــر، وأحيانا كثيرة لم يكن ليذهب للكلية، لوجود ضغط عمــل في الورشة، وأصبح هذا مصدر قلق لصفاء، وأثار غضبها، إلا أنها لم تشأ أنْ تتطرق للموضوع، لقد تركته يفعل ما يحلو له، مادام أنه في النهاية يأخذ منها المحاضرات، ويذاكرها بعد ذلك.

كما أنها لم تشأ أنْ تثير ثائرته، فيذكر لها مسألة عملها مرة أخرى.

وذات يوم، ذهبت للكلية، و لم يذهب هو، فقد كان لديــه عمل كثير بالورشة، وجلست في قاعــة المحاضــرات دون أن يجاورها وتشعر بحرارة جسده تلامسها، ولا يده التي اعتــادت أن تلتصق بيديها وهما يتسابقان في الكتابة خلف الأستاذ، تلك المرة كان بجوارها عماد الذي يراها، ويعلم أنه ليس لــه أمــل فيها، فالكل يعلم أنّ قلبها موصد في وجه الجميع إلا فتحي.

وشعرت بغصة في حلقها، وضيق يكتم أنفاسها، وارتفــاع في صوت نبضها وقالت في نفسها: خير يا رب !

سألها عماد وقد لاحظ قوة نظراتها: مالك؟

-أبدًا قلبي مقبوض.

-خير إنْ شاء الله.

ثم صاح الأستاذ: مش عايز أسمع صوت.

فصمت الجميع، وبعد المحاضرة الأولى، لم يكن لصفاء رغبه في إكمال المحاضرات، ولكنها ثابرت، ففتحي ليس هنا ليحـــل محلها، و لم تكن تثق بكتابة أحد غيره، فتحاملت على نفـــسها، وواصلت إلى إن انتهت المحاضرة الثانية، وضـــيقها وانقباضـــها يزدادان.

وفى طريقها للمكتب، هوى قلبها في قدمها وسيطر عليهـــا أنّ هناك خطرًا يوشك أنْ يقع وزاد إحساسها بشكل غريب.

فتوجهت بسرعة إلى بلدقما، وفى طريقها مرت على الورشة لتجد العمال لا يعملون بالصورة المعتادة، سألت عـــن أبيهـــا، فقال لها أحد العمال: هو إنتِ ما تعرفيش يا أبله اللي حصل؟

انزعجت صفاء وصاحت قائلة: إيه اللي حصل؟ جرى إيه؟

-فتحي وقع عليه عرق خشب، وراح المستشفى الكـــبيرة والأسطى محمود والحاج عبد الله معاه هناك.

نزل الخبر كالصاعقة على نفسها الملتاعة، وهرولت جهـــة المستشفى تبحث عن نصفها الآخر.

كان فتحي بالورشة التي هي عبارة عن ساحة كبيرة تمتلـــئ بالعمال، والآلات اللازمة للتصنيع، وعلى اليسار حين تـــدخل الورشة سلمٌ يصعد طالعه إلى ما يشبه السندرة -طابق صـــغير ليس مرتفعًا أرضيته من الخشب يخزن فيه الخشب حـــتى يـــتم تصنيعه- وفى هذا اليوم كانت هناك طلبية خـــشب يحمّلـــها العمال لأعلى، وإلى جوار درابزين السلم تعثر العامل وسقطت

منه عروق الخشب ليستقر أحدها على رأس فتحي، ويـــشجّه، والآخر على يده، فيكسرها، فصرخ فتحي مـــن شـــدة الألم، وهاله الدم المتفجر من رأسه كالشلال.

وسارع الحاج عبد الله بطلب الإسعاف التي حضرت وحملته للمستشفى بصحبة الأسطى محمود، وتبعهم الحاج عبـــد الله في سيارته.

وصلت صفاء المستشفى لتجد أباها وأم فتحي التي تجلـــس والدموع تملأ وجهها، احتضنتها صفاء وسألت عنه، قالوا لها: عند الدكتور جوه.

واقتحمت صفاء حجرة الكشف وهرعـــت إليـــه وكـــان الدكتور لتوه قد فرغ من ربط جرح رأسه، فثار في وجههـــا: إنتي مين؟ وإزاي تدخلي هنا؟

لم ترد صفاء وإنما أمسكت بيد فتحي السليمة وهي تسأله: عامل إيه حاسس بإيه؟

لم يرد فتحي وإنما ضغط على يديها بقوة، فأحست مقـــدار ألمه، فسالت دمعة من عينها وهي تقول: يا ريتني كنت أنا.

قال لها والألم يعتصره: بعد الشر عليكي.

ابتسم الدكتور حين سمعهما، فلقد عرف من تكون دون أن تجيبه، ثم أمسك بصورة الأشعة التي جاءته بها الممرضة، ليتضح الكسر في الساعد، كان مفعول المسكن الذي أخذه فتحـــي في

طريقة للتلاشي، فقام الطبيب بتجبير اليد المكسورة، وطلب منه العودة بعد ثلاثة أسابيع.

خرجت صفاء وفتحي يستند إلى كتفها، لتلاقيه أمه وتأخذه في حضنها، ويستند عليها، وعلى والد صفاء، حتى ركبوا سيارة الحاج عبد الله لتقلهم إلى البيت، ليس خفيًا على أحد حب صفاء لفتحي، وحب فتحي لصفاء، فلم يكن بمقدور والدها أنْ يسأل عما أتى بها قبل موعد حضورها لتعرف ما حل بفتحي، وتلحق بهم في المستشفى، فقد كانت الإجابة واضحة، وليست بحاجة لأن يرد بها أحد، تكفي النظرة الملتاعة في عينها، النظرة التي احتضنته دون أنْ تمسّه، النظرة التي بثته فيها كل مشاعرها، وهواها المحمل بخوفها، ولوعتها عليه.

وخلت حجرته من الجميع سواهما فقالت: سلامتك يا توحة شد حيلك.

-الله يسلمك يا عنيا.. كنت عارف إنك هتحسسي بيا وهتيجي.

-آه لو أعرف إنْ انقباض قلبي ده كنت إنت المقصود بيه، كنت جيت من الصبح، من ساعتها، وما اتأخرتش، يمكن مكنش ده حصل!

-المكتوب مكتوب ولازم تشوفه العين، الحذر لا يمنع القدر.

-عندك حق.

ظلا يتحدثان حتى أُرهق فتحي من الإعيـاء فنـام، وهنـا تركته، وذهبت لبيتها، ولكنها ظلت إلى جوار الشباك، تنتظـر أن يستيقظ وتطمئن عليه، حينما تركته كانت السـاعة قـد تجاوزت الثامنة بقليل، حين حضر سلامة أبو فتحي من عمله، فوجد امرأته منكسة الرأس حزينة، وأولاده كلـهم بالبيـت والحزن يكسو وجوههم، جزع الرجل وسأل عما حلّ بهـم، وعندما عرف ما حدث، حزن قلبه ودخل ليطمئن على ولـده النائم، فقبّل جبهته، ودعا له بالشفاء، وألقى التحية على صفاء، ثم خرج من الحجرة متوجهًا لحجرته ليبدل ملابسه، تبعتـه زوجته وهي تقول: كنت بتكلم مين؟ هو صحي؟

-لا كنت بمسّي على صفاء قاعدة جار الشباك وشـكلها كان بيعيط.

-آه يا أبو فتحي على اللي عملته صفاء النهارده، ولا همها حد، ولا كلام أبوها، ولا أي حد، وروت له تـصرفها مـع ولدها اليوم.

- ما إحنا عارفين يا وليه إنهم بيحبوا بعض، هي جديـدة دي؟ وبعدين أنا لو جرى لي حاجة مش هتعملي زيها؟

-بعد الشر عليك يا أخويا، ده إحنا عايشين بحسك.

-ربنا يخليكي لي يا أم فتحي يا رب، ده إنتي الخير والبركة.

وجلس الرجل ليتناول طعامه، فلم يطب الطعام دون ولـــده الأكبر، فقام مسرعًا رغم أنه لم يتناول شيئًا منـــذ إفطـــاره في الصباح.

دخل الرجل حجرته ونادى زوجته وقال لها: فيه معـــاكي فلوس أد إيه؟

-مصروف البيت يعني؟

-لا يا إكرام الفلوس اللي إحنا شايلنها على جنب.

-معايا ميت جنيه..ليه؟ عاوزهم؟

-إنتي مش بتقولي لي إن مصاريف المستشفى دفعها الحـــاج عبد الله، يبقى لازم نرجعها له.

-بس ده انصاب عنده في الورشة وهو اللي لازم يعالجه.

-لكن لازم نعرض عليه ويبقى عندنا ذوق، يلا هاتيهم.

وذهب الرجل ليرتدى جلبابه الأبيض، ثم توجّه لمنزل الحاج عبد الله، الذي استقبله بترحاب شديد، وسأله عـــن أحـــوال فتحي ودعا له بالشفاء.

قال سلامة وقد أخرج النقود من جيبه: دول يا حاج ميت جنيه المصاريف اللي دفعتها، ولو كنت دفعت أكتر، قـــول لي وأنا أول الشهر أجيبهم على طول.

-ياه يا أبو فتحي! عايز تحرمني أعالج واحد من ولادي؟!

-ربنا يخليك لينا يا حاج بس......

- من غير بس، أولاً دي إصابة عمل، وصاحب العمل هو اللي لازم يتحمل كل التكاليف، وبعدين إنتم مش عندكم الحكومة بتعمل كده؟

- بس دي الحكومة يا حاج.

- وأنا بقى الحكومة في ورشتي، يلا يا راجل شيل فلوسك وعيب كده، فتحي ابنك ده غالي عليا، ده الورشة مفتوحة بحسه هو والأسطى محمود، أنا خلاص ماعدتش قادر على الشغل، يكفي إنْ صاحب ورشة النور عرض على فتحي يشتغل عنده بيومية أكبر من يوميته عندي تلات مرات، وفتحي رفض، وما قالش، اللي قال لِّي صاحب الورشة بنفسه، ابنك لو طلب عيني ما اتأخرش.

- ربنا يديم المعروف اللي بينا، وبعدين يا حاج إنت اللي مربيه، ومشربه الصنعة، يقوم أما يكبر يجري ورا القرش ويسيب أستاذه، ده لو عملها يبقى قليل الأصل.

- ربنا يخليه ليك يا رب، ويبارك لك فيه، وفي إخواته.

- يسمع منك يا حاج، وأخذ سلامة نقوده وانصرف، وهو يشكر الله ويحمده كثيرًا فلقد تعب كثيرًا إلى أن ادخر هذا المبلغ هو وزوجته، وكانا في انتظار الشتاء ليجريا لابنتهما سماء -التي دخلت كلية الآداب هذا العام- عملية إزالة اللوزتين بعد أن بدأت تؤثر على قدمها وتتعبها بشدة.

لم تكن سماء تسافر مع أخيها إلى طنطا، إنما كانت تركب من الرصيف المقابل لتذهب إلى الزقازيق، فهي في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، جامعة الزقازيق.

لم تكن سماء جميلة وإنما ملامحها مريحة هادئة، لم تكن في طيبة فتحي الزائدة، ولا في عنفوان صفاء، وإنما كانت شخصية متزنة، ترتسم ملامحها من كونها إنسانة عادية جدًا كأكثر البشر على الأرض، وإن كانت تحدد خطواتها بدقة ولا تأمل في الكثير، وأقصى ما كانت تريده، العمل بمهنة محترمة، وبيتًا تكون سيدته وتكون لأولادها كأمها نبعًا متدفقًا من الحنان، وسَيلاً من العطاء، هذا ما تريده سماء ولكل امرئ الحق فيما يشاء والناس فيما يعشقون مذاهب.

وكثيرًا ما كانت سماء تشك بأن هناك حبًا بين فتحي وصفاء، ودائمًا ما كانت تسميه اعتيادًا وعِشرة، ولكنه بأي حال من الأحوال ليس حبًا، فكيف لشخصين بعيدين بُعد السماء عن الأرض في تفكيرهما، أنْ يتحابا، ويرتبطا بعد ذلك، كانت تتعجب من الأمر، وكثيرًا ما كان يغضب منها فتحي حين كانت تجاهر بوجهة نظرها هذه، أتى الصباح الجديد كعادته في موعده رغم أنْ صفاء كانت تتعجله، وتأمل أنْ تسطع شمس اليوم قبل موعدها، حتى تذهب لتطمئن على نصفها الآخر، فلقد أقسمت ألا تذهب لأي مكان اليوم، حتى العمل، لتبقى إلى جواره.

وها هي الشمس قد ملأ نورها الرائع الكون، شمس نوفمبر الجميلة الهادئة، وشمس الصباح غير أي شمس حنون دافئة، رغم نسيم الهواء الذي يسرى بين آن وآخر فيُحد من دفئها قليلاً.

وبمجرد أن ذهب أبوها لعمله، حتى انطلقت تـدقّ بابـه وتدخل حجرته، كان ما زال نائمًا منذ أنْ تركته فقالت لأمه: معقول نايم ده كله؟ بقى له أكتر من اتناشر ساعة نايم!!

– مش عارفة يا بنتي، وخايفة أصحيه.

– يمكن الدوا اللي أخده، على العموم أنا هصحّيه.

جلست إلى جوار فراشه، كم هو رائع وهو نـائم، جميلـة ملامحه، ولكنه أروع حين يفتح عينيه العسليتين، وتظهر سيوف رموشه الجارحة بعنفوانها وغرورها، تلفتت صفاء خلفها، فلـم تجد أحدًا، فمالت عليه بهدوء وبخوف وتردد، وأخيرًا اقتربـت شفاهها منه وطبعت قبلة على جبهته، حمّلتـها كـل هواهـا وشوقها، ولكنه صحا في تلك اللحظة التي قبلته فيها، فابتـسم حين رأى حمرة الخجل تعلو وجهها فقال: يا ريتني عييت مـن زمان بعد ما أخف هقول لهم يكسروا الإيد التانية ولا رجلـي ولا أي حاجة.

–بعد الشر عليك متقولش كده.

واقتربت أكثر منه لتساعده ليقوم، ولكنه تأوه، فرأسه ثقيلة، ويشعر بأنه غير قادر على حمل نفسه، فقالت: خليك زى مـا إنت، وذهبت إلى أمه، وأحضرت منها منشفة، وطبقًا به مـاء،

وذهبت إليه، بينما تركت أمه تعد له الإفطار، وبللت يـــديها بالماء ومررته على وجهه تغسله، فأمسك يدها بيده الـــسليمة، وقربها من فمه ليلثمها وهو يقول: مش عارف أشكرك إزاي.

-تشكرني على إيه؟ هو إحنا بينا شكر؟

-أنا تاعبك معايا.

-تعبك راحة يا أستاذ، وبعدين مين قال إني تعبانة؟ أنا اللي تاعبني رقدتك دي، ومش عايزة أشوفك تاني راقد في السرير.

-مش بإيدي، المهم إنتي مش رايحة الشغل النهارده ولا إيه؟

-أروح إزاى وأسيبك.

-صحيح يا صفاء مش هتروحي عشاني؟

-طبعًا.. هو أنا عندي حد أغلى منك؟

امتلأ وجهه بالبشر والابتسام وهو يردد: بحبك ولو فـــات عليا ألف سنة هأفضل أحبك.

-ياه ألف سنة؟ طب قول ستين.

-مش كفاية.

-يا أخويا، بكره تلعن اليوم اللي شفتني فيه.

-أنا؟!! أبدًا، عمري.

وأتى الإفطار، وأفطرا سويًا، كانت تطعمه بيديها وتأكـــل معه، أجمل طعامها هو ما تتناوله معه، حتى وإن كان قطعة خبز جافة، إنّ كل شيء تتقاسمه معه له طعم وشكل آخرين.

اليوم التالي، كان إجازة المكتب، فلم تذهب حيثُ إنّ يـــوم الجمعة هو اليوم الوحيد الذي كانت تقضيه في البيت.

وفى صباح السبت، توجّهت إلى الكلية ومنـــها للمكتـــب وعرف أصدقاؤها ما حل بفتحي، وكذلك سألها الأستاذ عـــن سر عدم مجيئها اليومين الماضيين، فأخبرته أنّ أخاها أصـــيب في حادث عمل في الورشة، حكت له الحكاية إلا أنها لم تخبره بأنّ حبيبها هو المصاب.

ولكن حينما ذهب الأستاذ سعيد لمنزله في مساء اليوم قـــال له عماد: عرفت سر غياب صفاء يا بابا؟

-أيوه، أخوها مصاب في حادث بالورشة.

-أخوها؟! نطقها عماد وعلامات الدهشة ترتـــسم علـــى وجهه ولاحظ أبوه دهشته فقال له: أيوه أخوها.

-أخوها مين؟ده فتحي زميلنا وحبيبها اللي ما بتقبلش كلمة واحدة عليه من أي حد.

--حبيبها!! في السن دي.

-أصلهم جيران طول عمرهم، هو أكبر منـــها بأســـبوعين بس، ومتربيين سوا، علاقتهم وطيدة جدًا رغـــم الاخـــتلاف

لواضح بينهم من حيثُ طريقة تفكيرهم وأسلوبهم ورغباتهم في الحياة.

-وهو بيشتغل في الورشة مع أبوها.

-أبوه نجّار مع أبوها، وبتقول عليه فنان، وصنايعي مفيش خوه.

-البنت دي غريبة جدًا، كل يوم أكتشف فيها وعنها حاجات غريبة.

-هي غريبة بعقل! دي أغرب إنسانة شفتها، مش زى لبنات أصحابنا، تفكيرها غيرهم، حياتها غيرهم.

-إيه يا سي عماد؟ إيه في دماغك؟

-أنا؟ أبدًا وحتى لو فيه، دي عاملة زى الحصن، القلعة اللي ما حدش يقدر يتسلق أسوارها العالية ويخترقها.

وفهم الأب مقدار حب ولده لها من الحرارة التي كان يتكلم بها عنها، ومن مقدار الحزن الذي ارتسم على وجهه وهو يتحدث عن قلعتها الحصينة.

واصلت صفاء حياتها السابقة كما كانت بين الكلية والمكتب، ولكنها كانت تعود مسرعة إلى حيثُ يوجد حبيبها لتطمئن عليه، وتجلس معه قليلاً، وأحيانا كانت أمه تشكو لها من عدم تناوله طعامه، فتضغط هي عليه ، وتطعمه بنفسها ولو حتى رغمًا عنه.

وبعد أنْ فك فتحي رباط رأسه، أقنعته أنْ يـــذهب معهـــا للكلية بدلاً من جلوسه في المترل بلا فائدة، وبالفعـــل ذهـــب معها، وبالتالي فهي تطمئن عليه أكثر لوجوده بقربهـــا نـــصف ساعات النهار، لثلاثة أيام، وتتركه ليعود مع أشرف، ثم ترجع ليلاً وتفتح شباكها لتمتد حبال الهوى وتتصل.

مرت الأسابيع الثلاثة التي أمر بها الطبيب، وذهب فتحـــي وهي معه بالطبع للطبيب الذي أمر بفك الجبس وعمل أشـــعّة ليتضح التئام الكسر، وسرعان ما سأل فتحي: أقدر أشتغل بيها يا دكتور دلوقتي؟

-لا يا عم فتحي، لسّه شوية، أنا هربطها لك برباط ضاغط لفترة، وبعدين أشوفك تاني، وهعلمك بعض التمرينات لتنشيط الذراع عشان ترجع زي ما كانت.

-لسه هصبر؟ أنا زهقت!

قال الطبيب وهو يحاول تهدئته: يا بني اصبر واحمـــد ربـــك على ما أصابك، فيه ناس بتقضي في الجبس شـــهور، وبعـــدها شهور تانية في العلاج الطبيعي!

نظرت صفاء بغضب تجاه فتحي، وقالت: ما تستعجلش يا فتحي، الحاجة اللي بنستعجلها دايما تطلع مش أد كده، وتخسر ونرجع نصلحها، ولا حتى ندوّر على غيرها، زى حتة الموبيليا يا أسطى إن ما كانتش تاخد حقها من كله، نلاقيها بعد مـــدة قصيرة تشتكي.. ولا إيه؟

-عندكو حق، قالها وهو ينظر إلى الأرض خجلاً منهما.

قال الطبيب: إنت نجار كويس بقى؟ ولا نص نص؟

-الحمد لله.

-يعني إيه ما فهمتش أنا؟

قالت صفاء بلا تردد: يعني فنّان يا دكتور، أستاذ في صنعته، يكفي إنه مضيع دراسته ومابيروحش الكلية وقاعد في الورشة ليل نهار.

قال الطبيب: إيه ده انت بتدرس في الجامعة.

فتحي: في كلية الحقوق الفرقة الثانية.

الطبيب: وإنتي يا آنسة؟

صفاء: معاه، أمال مين اللي بيجيب له المحاضرات اللي مـــا بيحضرهاش؟

فتحي: دي بتطلع الثانية على الدفعة، سوسة مذاكرة.

صفاء: هانقرّ بقى؟

فتحي:أنا برضه هحسدك يا صفاء؟ ما إنتي عارفة!

صفاء: باهزر يا فتحي ما أنا عارفة إنك طول عمرك بتتمنى لي الخير.

الطبيب: تعرفوا إن إنتم الاتنين حلوين قوى؟ ربنا يسعدكم، عايز المرة الجاية أشوفكم سوا. ضحكا ونظـرا لبعـضهما في خجل، ونطقا في نفس اللحظة: إن شاء الله بس مش عيانين.

وخرجا للدنيا الواسعة، وكل منهما عاقـد العـزم علـى استرجاع حياته التي شعر هو أنها توقفت، وشعرت هي أنهـا زادت فيها أعباؤها، كانت معهم أم فتحي وقد اطمئن قلبـها حين رأت ولدها قد فك الجبس.

قالت صفاء: لازم نحتفل النهارده يا خالتي.

أم فتحي: طبعًا، أمال إيه.. إحنا عندنا كام فتحي.

صفاء: خلاص روحوا إنتم وأنا هحصلكم.

فتحي:على فين؟

صفاء: هشتري حاجات أمي طلبتها مني، وهاجي بسرعة.

فتحي:آجي معاكي.

صفاء: روح إنت عشان تستريح شوية أنا مش هغيب.

وذهبت صفاء إلى محل حلويات بسيط في البلدة، اشـترت بعض الحلوى الرخيصة، وزجاجات المياه الغازية، وتوجّهـت بسرعة إلى بيت فتحي، الذي فتح لها الباب وابتسامته الرقيقـة تملأ وجهه وهو يسألها: اتأخرتي ليه؟

-أنا ما اتأخرتش ولا حاجة يا دوب.

-إيه اللي معاكي ده؟

-سيبني بس أحط الحاجة، تعبت من شيلها.

وضعت الأكياس على المنضدة الصغيرة في الصالة، ونادت أم فتحي وإخوته، وطلبت من فريد أن ينادي إخوتها وأمها وأباها إن كان هناك، ورصت الأشياء التي أحضرتها على المنضدة، وأتت بالأطباق لتوزّع فيها، والأكواب لتملأها بالمياه الغازية، بينما فتحي وأمه ينهرانها لتكبدها تلك الكلفة، وملأت طبقًا مخصوصا لعمها سلامة، وأعطته لأم فتحي لتحتفظ به، وكذلك طبقا لأبيها واحتفل الجميع بسلامة فتحي.

وأشبعت داخلها رغبة في الفرح، نعم إنها تريد أن تفرح، إنّ حياتها ليست حزينة، وإنما حياة عادية، راكدة ليس فيها من التطرف شيء سوى في مشاعرها ورغباتها الداخلية، ولكنها تأتيها لحظات تريد فيها تغيير نطاق حياتها ولو حتى بالحزن، وليس بالفرح!

ذهبت لمنزلها برفقة أمها وإخوتها، وفي البيت قالت أمها بتهكم: يا أختي بدل ما تصرفي عليه، وتحتفلي بيه، حوّشي فلوسك، وفّريها، جيبي بيها حاجة تنفعك، حتّة دهب ولا حاجة في جهازك.

-جهاز إيه يا أمّه دلوقتي، ولا دهب إيه.. ما كفاية علينا الدهب بتاعك!

-أمال تصرفي على ابن الكمساري؟!

-ما له ابن الكمساري؟ ما أنا بنت النجار، في إيه اتغير؟

-فقرية زى أبوك!

-أمّه، أنا حرة في فلوسي، وكل واحد ينام على الجنب اللي يريحه.. خلاص؟

قالت جملتها الأخيرة تلك، وتوجهت إلى حجرتهـا، وقـد تبددت لحظات فرحها القصيرة، فجلست إلى الشباك بعـد أن خلعت ملابسها فوجدته في انتظارها.

-غيبتي كده ليه على ما فتحتي الشباك؟

-كنت بتكلم مع أمي شوية.

-مالك؟

-مفيش.

-صفاء...........

-نعم؟

-في إيه؟ طمنيني، إنتي كنت كويسة من دقايق.

-ولسّه كويسه.

-هو أنا ما عرفكيش ولا إيه؟

-مفيش يا فتحي ما إنت عارف أمي...لازم تنكّد علينـا بكلمتين طالما جايين مبسوطين.

-قالت لك إيه؟

-أبدًا كان فيه شوية حاجات قالــت لي أعملــها، ومــا عملتهاش.

-بجد يا صفاء ولا فيه حاجة تانية؟

-هيكون فيه إيه تاني؟ ما إحنا كده على طول.

-يا شيخه انسي، ما أنا أمي مع أخواتي البنات كده برضه، المهم هتروحي بُكره الكلية؟

-طبعا أمال إيه..المهم إنت هايجي معايا ولا لا؟

-جاي.

-أد إيه المحاضرات ملهاش طعم من غيرك!

-يا سلام بتقولي كده بس عشان آجي، طب ما أنا كنــت معاكي امبارح والأسبوع اللي فات كله.

-ده عشان كنت تعبان، لكن بمجرد ما إيدك تقدر تــشتغل بيها، هترجع ريما لعادتها القديمة، وأرجع أنا أبقى لوحدي!

-ليه ما قلتيش كده من زمان؟

-ما أنا يا ما حاولت أقول لك تعالى، وإنت رافض.

-لأني ما كنتش شايف إن عندك وقت لي.

-طب ما إنت اختصرت الوقت اللي ليك وهيته، الوقــت اللي كنا بنقضيه سوا في الكلية مكنش بيكفيك يا فتحي؟

-إنتي بتبقي في المحاضرات مركزة بدرجة كبيرة ما بتحسيش باللي حواليكي، يعني وقت مش محسوب، كنا الأول بنرجع نكتب المحاضرات سوا ونقضي وقت كبير دلوقت بقيتي بعد الكلية بتروحي المكتب وترجعي تعبانة وهلكانة هتنامي، أنا فين؟ مليش مكان، هقعد أعمل إيه؟ أحط إيدي على خدي وأندب حالي؟ لا، كان لازم أشتغل، وأشتغل، وأشغل روحي وأرجع أنام من التعب!!

-طب ليه تحرمني من الوقت اللي بتقعد فيه جنبي في المحاضرات؟ وجودك كان بيحسسني بالأمان، بالراحة، لما إيدك أحس إنها جنب إيدي، لما بنكمل الكلمة من بعض، لكن دلوقتي بحس إني غريبة وحيدة!

-وأصحابك؟

-كم مرة قلت لك إنت مش في مقارنة معاهم، هم حاجة وإنت حاجة تاني، إنت أهم، ويكفى إن علاقتي بيك مش قايمة على المصلحة زى علاقتي بيهم.

-أرجع وأقول إنتي السبب.

-ماشي يا فتحي، أنا السبب وأنا المسؤولة وأنا الغلطانة، طب وبعدين؟ هي دي بقت حياتي، وهتبقى كده على طول هنعمل إيه؟

-زى ما إحنا لحد ما ييجي الحل لوحده من عند ربنا.

-عندك حق.

قالتها وتوارت عنه، فلقد ألقت بنفسها على السرير الـــذي كانت تجلس عليه بينما ظل هو جالسًا يتطلع إلى شبّاكها الخالي وقد آلمه أنه أغضبها وهي التي كانت فرحة بـــه منـــذ قليـــل وتكفلت بحلوى الاحتفال، فصمت قليلاً ثم ناداها بإشـــارتهما، فلم ترد، فناداها ثانية، فقامت، ونظرت إليه دون أنْ تنطق فقال لها: -أنا آسف.

لا زالت على صمتها، لم ترد عليه، فقفـــز مـــن الـــشباك، وذهب إلى نافذتها، وجلس على الإفريز قبالتها، وأمسك بيدها وقبلها وقال لها: سامحيني مكنش قصدي أضايقك.

كان يتصرف وكأنه وحده في الشارع، وأنّه لـــيس حولـــه أحد من الجيران، أو المارة، أو أي مخلوق، ولكن لحسن حظه، لم يرهما أحد، لحين عاد إلى حجرته وقد ابتسمت له وقالـــت: خلاص مفيش حاجة.

كانت الساعة تقارب الثالثة عصرًا حين ارتدت ملابـــسها وذهبت للمكتب، فلقد كان أحد أيام دراستها وهي لمْ تذهب للكلية هذا الصباح.

واصلت عملها بنشاط، وظلت تعمل حتى التاسعة، وحينما نزلت من المكتب لمْ تصدق عينها، إنه هو في انتظارها، سارت إليه، تأبطت ذراعه وقالت: كنت عارفة إنك هتيجي وتستناني، لكن مكنتش عارفة إن ظني هيتحقق كده وبالسرعة دي.

-ما أقدرش أعيش وأنا حاسس إنك لسّه زعلانة مني.

-بس أنا مش زعلانة.

-صفاء أنا عارفك زى ما أنا عارف نفسي، وصمت قليلاً ثم قال: أنا جعان ونفسي نتعشى سوا.

-مش خايف حد يشوفنا؟

-معاكي ما بخافش غير عليكي، وبعدين كل الناس عارفة إن أنا ليكي وإنتي ليا.

وذهبا سويًا لأحد المطاعم، وتناولا بعض الساندويتشات، أرادت أنْ تشاركه الحساب، لكنه رفض رفضا باتًا، وخرجا، سارا معا مسافة ليست طويلة، قبل أن يتنبها إلى أنَّ الساعة قاربت العاشرة والنصف، ولكن ليس مهما، سوف تخترع أي حجة لأبيها، المهم أنها ستبيت ليلتها سعيدة هانئة.

في الصباح، أشرقت الشمس وأشرقت أنوارهما معها، فلقد بدآ يومهما بابتسامتهما البراقة التي لها نور الشمس، وجمال الشروق، وبهجة الصباح، وفي الثامنة والربع كانا في المحطة ليستقلا القطار إلى حيثُ كليتهما، هناك وفي قاعة المحاضرات نظرت إليه وابتسمت بادلها الابتسام وهو يتلمس يديها خلسة حتى لا يراهما أحد، إلى أن دخل الأستاذ وبدأ الحديث، وشرعت في الكتابة، وبدأ هو الآخر، وعادت تكمل منه ما يفوتها وينقل منها ما فاته.

وبين المحاضرات جلسا معًا، تناولا طعامهما، وتبادلا الحديث وكأنهما في محاولة لنسيان فترات افتراقهما، والجفاء الذي دَبَّ في علاقتهما.

راود صفاء شعور خفي لم تكن تدرك كنهه، كانت تعاني، ولا تعرف سبب معاناتها، وبعد طول معاناة أدركت صفاء ما بها، لقد كلّت، تعبت منذ أشهر طويلة، وهي في صراع مستمر، لم تهدأ لحظة، لم ترتح، لم تكف عن التفكير، إنها بحاجة للتغيير لكسر حدة الملل الذي تسرّب إلى نفسها لمواصلة حياتها بعد ذلك، إنها تريد يومًا واحدًا بلا عمل، بلا دراسة، بلا معارف، بلا طامعين، بلا متحذلقين، ومتباهين، بلا ناقمين، وحاسدين، نعم إنها تريد إجازة فقط، إجازة، ليس كثيرًا عليها

أنْ تحصل على يوم تكون خالية فيه من كل ذلك، لكن كيف تحصل على إجازة؟ وأين تذهب ومع من ستذهب؟

وقررت أنْ تختار يومًا ليس به دراسة وتتغيب عن المكتب وتذهب مع صفاء وحدها، وحدها دونما أحد حتى فتحي، إنها تبغي صفاء فقط، بقي لها أن تقرر أين تذهب؟

خطر ببالها الإسكندرية، فهي كما تسمع بديعة في الشتاء ساحرة حتى بأمطارها الكثيرة، إنها تريد أنْ ترى أمواج البحر المتلاطمة بقوة كقوة عزيمتها ورغبتها في مواصلة الطريق الذي بدأته، وكأنها تستمد من قوة الموج قوتها، ولكنها عادت وقالت في نفسها: إنها لا تعرف كيف تذهب إلى هناك وحدها، وخشيت أنْ تضل الطريق.

وعادت لتسأل نفسها أين تذهب؟ ثم استدركت وما لها القاهرة؟ إنها دافئة في الشتاء، بديعة جميلة، طوال العام ثم إنها ذهبت إليها في رحلة وحيدة مع المدرسة، وكذلك ذهبت إليها مع فتحي وأمه في زيارات قصيرة لخاله المقيم في حي شبرا، إنها تستطيع الذهاب إلى هناك دون أن تضل، وحتى إن ضلت فيكفيها أن تسأل كيف تذهب إلى ميدان رمسيس وألف من يدلها، فمن يسأل لا يتوه كما يقولون.

وعقدت العزم على الذهاب، وخرجت في موعد ذهابها للمكتب، ولم تركب من بلدها مباشرة للقاهرة وإنما ركبت من طنطا ونزلت في ميدان رمسيس ثم ركبت من هناك سيارة

للتحرير نزلت منها وسارت قليلاً إلى كورنيش النيل وأصبحت أمام هذا العملاق الهادئ، نبع الحياة وشريانها.

إنه نزهة الفقير، ومتعة الغني، وصاحب العاشقين، وملهم الفنانين، كم سمع شكوى المكلومين! وكم بكى مع المعذبين! وكم فرح! وكم حزن مع المحبين! أتته اليوم لا لتشكو، وإنما لترتاح بالنظر إليه، لتأخذ على صفحته أول أيام إجازتها منذ أنْ اختارت دربها لتمشيه راضية قانعة بما ارتضته لنفسها، ورغبت فيه.

جلست أمام النيل تُمتع نظرها به لأكثر من ساعتين تتأمل موجه الهادئ، والمراكب التي تتمايل على صفحته برفق، والبواخر السياحية الراسية عند ضفته المقابلة، وشعرت بحرارة الشمس قليلاً رغم أنْ شمس مارس شمسٌ دافئة هادئة فنزلت لتركب قاربًا من تلك المخصصة للتنزه.

لم يكن هناك أناسٌ كثيرون، فهو وقت عمل والناس في أشغالها، والطلبة في مدارسهم، لم يكن هناك غير بعض العشاق المختلسين هذا الوقت من الزمن، ومن أهليهم، ومن كل شيء، هي الأخرى اختلست هذا الوقت لتكون مع نفسها ولنفسها، وشعرت بنسمات الهواء الباردة تتسلل إليها فتنعشها ليتلاشى الوجود من حولها، اختفت أصوات السيارات والناس حتى محرك القارب الذي هي على متنه! لم تشعر سوى بأنها طائر في السماء يضرب الهواء بجناحيه، ويشق عباب السماء، يداعب

السحاب، ووجـــدت نفـــسها تقـــول: "الله.... الله" دون أن تدري، وظلت سابحة في خيالها الجميل، وهذه الرحلة النيليـــة الرائعة إلى أنْ شعرت بوخز الجوع فقالت: آه منك أيها الجوع سوف تُفسد على متعتي ولكنها صبرت حتى تعود مع القارب للشاطئ.

لم يكن ينقصها في تلك الرحلة سوى فتحي، ولكن صـــفاء أمرت أن تظل مع صفاء، ومادامت قد أمرت فأمرها واجـــب التنفيذ، لأن الأنا لديها أسمى من أي شيء، فصفاء لصفاء مهما حدث.

عادت من رحلتها وهى منتعشة، سعيدة بعد أن جـــددت نشاطها المفقود رجعت مليئة بالحيوية لمواصلة حياتها الـــسابقة فالمرء دوما بحاجة لأخذ إجازة ولو لِيوم واحد يُريح فيها عقله من التفكير الدائم فيما يفعل، وما سوف يفعل، ومـــن النـــاس أجمعين.

لم يعرف أحد بإجازتها تلك، وحين سألها الأستاذ ســـعيد، وزملاؤها بالمكتب عن سر تغيبها، ادعت أنها كانت مريـــضة، ومن وجهة نظرها لم تكن تكذب فهي اعتبرت نفسها مريضة وكانت في رحلة استشفاء.

وتواصلت الحياة على نفس منوالها إلا أنّ الفجوة بينها وبين فتحي تتسع، فهو لم يعد قادرًا على تحمـــل فراقهـــا المـــستمر ونظرتها إلى الساعة كل دقيقة بعد المحاضرات، وكأنها تقول له: "وقتك انتهى" وكل هذا من أجل عملها الذي أصبح كل شيء

في حياتها، لم يَعد يَقبل بكونه على الهامش في حياتها، لذا فلقد عاد إلى عمله الدائم في الورشة، ولم يَعُد يعتمد عليها في شيء حتى في الدراسة، فهو لم يعد ينتظر منها المزيد، فكرامته أبـت عليه هذا الوضع الغريب، إنه يرى أنّ كل حبيب لدى حبيبه كل شيء وليس آخر شيء يفكر فيه.

حتى هي لم تسأله: لماذا لم تعد تأتي للكلية؟ كأنها لا تهتم ولكنها تعبت من السؤال، والإلحاح عليه، تركته على حريته، واهتمت فقط بمذاكرتها، وعملها أكثر وأكثر، وواصلت قراءتها في كتب القانون لمشاهير القانونيين، واطلعت على كتب تحوى أشهر القضايا التي شهدتها المحاكم في مصر والخارج، لقد صارت المحاماة والعمل بالقانون أهم شيء في حياتها، لقد فصلها عن العالم الذي كانت تحيا به، عن أهلها، أصحابها، الجميع، صار المستقبل والطموح هو ما ترنو إليه وتصبو للوصول إليه.

وفي إحدى الليالي رجعت من عملها، تناولت عشاءها ودخلت لتنام، وكعادتها ألقت نظرة على شباكه، فوجدته مغلقًا، إنها لم تره منذ أكثر من شهر إلا لحظات خاطفة يتبادلان فيها التحية كالأغراب، أو كمجرد جيران، رقدت على سريرها تبتغي النوم إلا أنه جافاها، ولم تجد غير صورة فتحي في مخيلتها تُمحو أي شيء آخر لقد اكتشفت أنها في حالة شوق إليه لقد أوحشها بشكل كبير.

إن أي إنسان يطّلع على حياة صفاء، أو يتعـرف عليهـا، فلابد أن يصاب بالحيرة من تلك المخلوقة الغريبة، إنها لا تُعـير الحب اهتمامًا وتعتبره في مرتبة ثانية بعد الطمـوح، والوضـع الأدبي والاجتماعي الذي تسعى جاهدة إليه، وبالرغم من هـذا فإنها تسعى أحيانا إلى الحبيب الذي شعر بإهمالها له، هي نفسها سألت نفسها: ماذا تريد منه؟ إنها حتى لم تفكر في الارتباط به لم يخطر ببالها ولو لمرة واحدة أن يجمعهما بيتٌ واحدٌ، إذًا لماذا تشتاق إليه؟ لماذا تألمت وبكت حين أُصيب في الورشة؟! ولماذا تعبت من وجودها وحدها في الكلية؟ لماذا لا يهدأ لها بـال أو تنام إلا إذا رأت ابتسامته أو ألقت عليه التحية؟!! مـا الـذي يربطها به؟

قد تكون العشرة، الاعتياد، يجوز، ولكن.... ليس هنـاك لكن، لقد فشلتَ في التعرف على كنه شعورها تجاه فتحي.

وعلى العكس من هذا فهو قد حسم أمره تمامًا، فهو مدرك ومتقين من أنه يهواها، لا بل يعشقها، وهذا سر عذابه وألمـه! فما يشعر به من حب لا يجد مقابلاً له لـديها، وإذا أشـعرته لحظة بهذا الحب، وإذا نعتته حبيبي فهي سرعان مـا تتـصرف بعكس ما فعلت أو قالت، إنه مرهق، متألم، معذب، أبت نفسه البوح بآلامه أو الشكوى، لأنه أدرك أنّ شكواه لن يكون لهـا صدى لديها، وإن كان، فرد فعلها وقتي سرعان ما يزول وتعود لسابق جفائها، لذا فلقد ألقى بنفسه في دوامة العمل الذي يحبه

ويهواه، للفن الذي يعطيه ويأخذ منه الكثير، إنه أبقى له من قلب متقلب يسعى إليه ويريده، وهو يوم له ومائة بعيد عنه!!

ظلت صفاء مستيقظة حتى وقت متأخر إلى أنْ سمعت صوت نافذته تفتح وزفرة طويلة سمعتها وهي مستلقية مكانها، زفرةٌ تحمل الكثير من إحساسِ صاحبها بالألم الشديد، فقامت تواجهه وهي ترسم على وجهها ابتسامة بدت شاحبة وهي تقول: سلامتك من التنهيد.

-الله يسلمك، إزيك عاملة إيه؟

-الحمد لله، وصمتت قليلاً ثم قالت: وحشتني.

-ياه! هو إحنا على بالك يا صفصف؟

-إنت طول عمرك في بالي، وإنت عارف.

-أسمع كلامك أصدقك، وأشوف أمورك أستعجب.

-يا سلام يا فتحي.

-بلاش نتكلم يا صفاء.

-ليه يا فتحي؟

-عشان كفاية عليا بقى، تعبت من الإحساس بالألم، تعبت من الشكوى، تعبت من دموعي اللي بقت بتغلبني، وإنتي ولا إنتي هنا!

-فتحي أنا.........

قاطعها قائلاً:مش عايز أسمع حاجة ..تصبحي على خير.

قالها وألقى بنفسه على سريره، تركها مُـسمرة في مكانها وقد آلمها صوته المليء بالألم لدرجة أبكت عينيها، ولكنها لم تستطع أن تناديه، فألقت بنفسها هي الأخرى على سريرها وهي تبكي مر البكاء، إنها تحبه ولكنها لا تستطيع أنْ تتغير، ليس بمقدروها أن تبدّل نفسها، أو تقضي على طموحها من أجل الهوى حتى لو كانت عاشقة حتى الثمالة، لقد قضت عمرها كله تحلم بأن تترك هذا الشارع الضيق ضيق سَم الإبرة، من تلك المدينة التي تعتبرها مجرد قرية كبيرة ليس إلا، إنها تريد أن تكون امرأة، يتحدث عنها الجميع، لها وضعٌ ومكانةً في المجتمع وليس مجرد محامية عادية، أو الفتاة ابنة النجار التي تهوى جارها الذي يأمل بالعمل نجارًا هو الآخر وتتزوجه وتنجب أطفالاً وتظل اليوم بأكمله في محاولة لإسكات بكاء هذا وتلبية رغبات هذه، إنّ كل هذا ليس ببالها ولا تقدر عليه وكأنها ليست امرأة، إنها ببساطة لا تقدر على ذلك ولن تقدر ليس بإمكانها وليس بيد المرء أمره وكلٌ خُلق وله طباعه وشيمه التي تفرقه عن الآخرين وإذا القلب هوى فليس بالضرورة أنْ يقر العقل بذلك ويقبله.

هي تعلم أنه لولا فتحي لواصلت حياتها دون لحظة ألم أو شجن، فهو جزء منها إذا مرض مرضت، وإذا تألم تألمت، فالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعت له باقي الأعضاء بالسهر والحمى، فهو قطعة منها لا تستطيع أن تتجاهلها.

وأتى الصباح بعد ليل مليء بالمعاناة أتى عليها وهي متعبة مرهقة، عيناها متورمتان من كثرة البكاء، انتظرت أنْ تراه ولكن شباكه كان مغلقًا وظل مغلقًا حتى خرجت، ظنت أنه ما زال نائمًا أو لا يريد رؤيتها، فزاد شجنها، ولكنه لم يغمض له جفن تلك الليلة وخرج قبل أنْ تخرج.

تلك كانت المرة الثانية في عمرهما لا يكون هو أول من تراه عيناها ولا هي أول من تراها عيناه، لهذا وقف على باب الورشة ليراها ومرت في موعدها بالضبط وتطلعت عيناها إلى الورشة آملة أن تراه فإذا بعينيها تصطدمان مباشرة بعينيه، الواضح والجلي فيهما أنهما لم يناما لحظة واحدة.

احتضنتها عيناه وعانقته عيناها، ولكنهما لم يتحادثا، لم يسيرا في اتجاه واحد بل سارت في طريقها، وسار هو إلى داخل الورشة.

وصلت إلى الكلية وجلست في قاعة المحاضرات كالآلة، تكتب وتسجّل كل ما يقال، دونما روح تضفي حرارة وحيوية على الإنسان فيبدو حيًا.

وبين المحاضرات سألها الجميع عما بها، فلم تجب أحدًا، وآثرت الجلوس وحدها، كانت تلك واحدة من المرات التي لم تستطع فيها إخفاء ما تعاني، الألم كان أشد من أن تكتمه أو تواريه.

ذهب إليها عماد وقال لها: أظن من حقي أسألك، وإنتي تجاوبي على سؤالي.

-أي حق بتتكلم عنه؟

-حق الصداقة والعيش والملح، ممكن أعرف مالك؟

-أبدًا مفيش

-أرجوكي يا صفاء قولي لي مالك أنا ما أقدرش أشوفك بالشكل ده وأسكت، إنتي منتيش عارفة إنتي إيه بالنسبة لي، كل اللي بتمناه أشوفك سعيدة مش أكتر.

-صدقني أنا بعتز بصداقتك جدًا، لكن بجد مفيش حاجة، أنا كنت قلقانة طول الليل، وما عرفتش أنام، وقلة النوم بتتعبني.

-رغم إني مش مصدق كلامك، بس هحاول أصدقك، لما تحبي تحكي لي متاعبك أنا موجود وتحت أمرك.

إنه يهواها، لم يشعر بشيء مما يحس به تجاهها ناحية أية فتاة عرفها من قبل، إنها تثير بداخله براكين كانت خامدة من العواطف والأحاسيس الجياشة، لقد أصبح يشفق على داليا التي تهواه، وهو لا يحس تجاهها بأي شيء، رغم أنه يُدرك حبها له، ولكن ليس بيده شيء، إنَّ قلبه معلق بأخرى تعشق آخر، ورغم يقينه بأنه مهما فعل فلن يحظى بهواها، إلا أنه لم يمنع نفسه من حبها والاهتمام بها.

كانت تلك المرة الثانية التي يتخاصمان فيها منذ ولادقمــا وبرغم ضيقها بخصامه، وألمها من فراقه، إلا أنهـا حاولـت أن تعتاد الموقف، وترجع لنفسها ضحكتها التي اختفت، وأصبحت لذلك موضع همس الآخرين حولها، وعرضة للسؤال عما بها.

إن ما حدث اعتبرته صفاء بعد فترة من أهم الأشياء الـتي حدثت لها على الإطلاق، لأنها عرفت أنَّ فتحي هــو نقطـة ضعفها الوحيدة، وأنه العقبة الوحيدة أيضا في طريق نجاحهـا، وكان عليها أن تتخلص من نقطة الضعف، وتتخطـى العقبـة وتمضي، وذلك إما بتطويعها لتكون رهن إشارتها، أو بنـسيانها حتى وإن كان النسيان صعبًا، فهي في تلك الحالة كمن يطلب من مدمن أنْ يكف عن تناول المخدر الذي اعتـاده، ولكنـها أصرّت على المحاولة رغم كل شيء وخاصـة بعـد أن طـال الخصام لما يزيد على أسبوع، إلى أن أتى يوم كانـت عائـدة لتوها من العمل وكان إخوتها في فرح في الشارع المجاور بينمـا أمها وحدها في المترل وأبوها في الورشة، فطلبت منها أمها أن تذهب لأم فتحي في المترل لتحضر منها طبق الغـسيل الكـبير حتى يتسنى لها الغسيل في الصباح، فرفضت وقالـت لأمهـا: الصبح حد من العيال يروح يجيبه.

-على ما أصحى هيكون إخواتك راحوا المدرسة.

-طب أما ييجوا من الفرح حد يروح يجيبه.

-أم فتحي بتنام بدري.. يلا روحي.. وبعدين ما إنتي طول عمرك رايحة جاية وكأنه بيتك.. من إمتى الكلام ده؟

-من هنا ورايح.

-قلت: هتروحي يا صفاء يعنى هتروحي.

-حاضر يا أمّه.

وذهبت صفاء لإحضار الطبق، وسألتها أم فتحي: إيه يا صفاء محدش عاد بيشوفك يعنى؟

-أعمل إيه يا خالتي؟ الشغل والكلية.. مش لاقيه وقت.

-ربنا يعينك يا بنتي، المهم متغيبيش عليا كده إنتي عارفة أنا بحبك أد إيه، ده انتي عروسة ابني.

-حاضر يا خالتي هاجي أشوفك تانى إن شاء الله.

والتفتت صفاء لتخرج، فإذا بها أمامه وجهًا لوجه، فتسمرت مكانها، وتسمر مكانه دون أن ينطقا بكلمة واحدة، فقالت أمه وهي متعجبة: معقول؟! بقى متخاصمين ومش مسألة شغل ومذاكرة، أنا عمري ما أصدق إنكم في يوم ما تكلموش بعض!! معقولة؟! إيه اللي جرى لكم؟!!!

لم يرد عليها أحد، وإنما ظلت نظراتهما متعلقة ببعضهما البعض، لحين قطعت صفاء الصمت قائلة: بعد إذنك يا خالتي أنا ماشية.

قالت أم فتحي: ماشية رايحة فين إستني لازم أعرف فيه إيه؟

صفاء: مفيش حاجة يا خالتي.. وبعدين أنا رايحة أتغدى عشان لسّه راجعة دلوقتي.

أم فتحي:y ستي، وكلى مع فتحي ده أنا عاملة أكلة بتموتي فيها.

صفاء: مرة تانية يا خالتي.. إن شاء الله.

فتحي: سيبيها يا أمّه، إحنا معدناش على هواها، وأكلنا مش هيعجبها.

نظرت له صفاء نظرة غاضبة و لم ترد.

أم فتحي: بس يا وله إيه الكلام اللي بتقوله ده؟!

فتحي: هي دي الحقيقة يا أمّه...صفاء بقت في وادي، وإحنا في وادي تاني!

أم فتحي: والله لو قلت إيه مش هصدق، صح يا صفاء؟

صفاء:والله يا خالتي.. أنا حاولت تبقى سكتنا واحدة، وهو اللي رافض.

أم فتحي: والله ما أنا فاهمة حاجة.. أنا هروح أجيب الأكل، واتصافوا إنتم سوا.

ودخلت أم فتحي المطبخ، وتركتهما، فهمّت صفاء بالانصراف، فأمسك ذراعها وقال: أمي دخلت تجيب الأكل لي وليكي..هتكسفيها، وتمشي من وراها؟

-هقعد آكل مع مين؟

-هو أنا خلاص...معدتش مكفيكي يا صفاء؟!

-إنت اللي ما عدتش عايزني يا فتحي!

ابتسم ابتسامة تحمل شفقة على حاله أكثر منـــها ابتـــسامة سخرية وهو يقول: مش عايزك؟! دا أنا عمري ما اتمنيت حاجة في حياتي غيرك إنتِ، وكل صلاة بدعي إنـــك تكـــوني ليـــا، ويجمعنا بيت واحد.

-إنت اللي مصمم تبعد، مش أنا، وكل ما أحاول أشـــدك معايا منتش عايز!

-أرجوكي بلاش كلام في الموضـــوع ده، تعـــالى نـــساه ونسكت.

-مش قادرة أنسى إنك تخاصمني تسع أيام بحالهم!

-وإنْ قلت لك وحياتي تنسي؟

-هنسى يا فتحي.

ضحك وطبع قبلة على جبينها وهو يقول: بحبـــك، ومـــا أعرفش حاجة في الدنيا غير إني بحبك وهستحمل معـــاكى أي حاجة غير إني أخاصمك وأبعد عنك.

وتبادلا الضحكات والحديث وهما يتناولان الطعـــام ســـويًا كما اعتادا دومًا، وحين عادت للبيت، ضحكت أمها وهـــي تقول: لسّه بدري يا ست هانم وآل ما كانتش عايزة تـــروح! وتعالى صوت قهقهتها.

بينما دخلت صفاء حجرتها وبـــدّلت ملابـــسها وفتحـــت الشباك.

ورغم أنها فتحت الشباك، وبرغم الصلح إلا أنهـــا ســـوف تمضي في مخططها، سوف تهزم نقطة ضعفها حتى وإنْ كلفتـــها الكثير، أو ذرفت من أجلها الدمع الغزير.

وعادت الضحكة تنير وجهها من جديد وصار وجهها أكثر إشراقًا، وكأنّ الروح قد عادت إليه من جديد فامتلأ بالبـــشر وازداد طلاقة.

وحين ذهبت للكلية، أدرك عماد الحال التي تبدلت بين ليلة وضحاها، فقال لها: رفضت تقولي لي سبب زعلك الأيام اللي فاتت واحترت في أمرك، بس أنا عرفت دلوقتي، فتحي السبب مش كده؟!

لم تجبه، فواصل حديثه قائلاً: دخولك معاه المحاضرة بعـــد فترة غياب طويلة، والابتسامة العريضة المرسومة على وشـــك وإنتي معاه، خلتني أعرف إنه السبب، ولو كنت قلتي لي اللـــي عمله، كنت رحت له وحاولت أصلحّ بينكم، ولا إني أشوف الحزن في عينيكي وعلى وشك أبدًا.

-أنا مش عارفة أقول لك إيه يا عماد، كل اللي ممكن أقوله إنك إنسان عظيم، وإن أنا فخورة جـــدًا إني أعـــرف واحـــد زيك.. بني أدم بجد.

-متشكر يا صفاء، بعد إذنك.

-على فين؟

-ورايا مشوار مهم.

-مع السلامة.

-الله يسلمك، سلام.

"سلام" قالتها وهي في أشد الألم، إن عماد لا يستحق ما يعاني ولكن ليس لها ذنب، منذ أن تعرفت عليهم أول مرة وهم يعلمون جيدا أنّ قلبها ملك لفتحي، ولن يأخذه أحد غيره أبدًا، لقد كانت واضحة وصريحة، ولهذا فإن ضميرها مرتاح وما تحسه هو الشفقة على الإنسان الذي قدّم لها خدمة العمر، الشخص الذي وضع قدميها على أول درجات السلم ولكن ما بيدها حيلة، وليس في وسعها فعل شيء، بدأ موسم الامتحانات، وبدأت الأعصاب تتوتر وتصارع الطلبة للحصول على المحاضرات الفائتة، ومعرفة المهم والملغي والمقرر كعادة كل عام، وذلك بعد أن صار التعليم تلقينًا، وتحفظيا وليس بحثًا ودراسة.

وبرغم كل هذا الشد العصبي إلا أنّ صفاء لم تعر اهتمامًا، أو تشغل بالاً فهي دوما تذاكر، ولم تكف يومًا عن المذاكرة في البيت، في المكتب، في كل وقت، لم تتهاون، لذا فهي لم تبذل مثل هذا الجهد الذي يقوم به الطلبة في تلك الآونة فقط، يكفيها قراءة بسيطة تسترجع بها ما درسته طوال هذا العام.

لم تمنعها الامتحانات من الذهاب للمكتب طوال فترة بعد الظهر خلال هذا الشهر بأكمله، وعلى الجانب الآخر كان فتحي في تحدٍ مع نفسه فهو لم يذاكر شيئًا ولم يعرف ما تحمله

المحاضرات ولم يحضر أغلب العام، لذا كان عليه الجهاد المستميت لمحاولة تجميع المواد المقررة عليه، وكثيرًا ما احتاج صفاء ليعرف منها شيئا، أو لتفهمه ما صعب عليه، ولكنها لا تتواجد في البيت غير فترة الصباح وبعد الظهر في المكتب فكان يسألها إما صباحًا، أو ينتظر عودتها في المساء لتشرح له ما يحتاجه.

وأخيرًا انتهت الامتحانات، وانتهى الشد العصبي، وأصبح الجميع بلا استثناء في انتظار النتيجة ولكن كلٌ له شواغله، ففتحي في الورشة ليل نهار، وصفاء في المكتب بدوام كامل، وأشرف نائم معظم فترات اليوم، بينما عماد وداليا وسهر وشريف بين النادي والنزهات والبيت خلال إجازة الصيف كما كانوا في إجازة نصف العام التي دائما تنتهي كمر الطيف، ويعود بعدها الطلبة لصفوف الدراسة، إلا أن إجازة الصيف الطويلة لم تلههم أن يتسمّعوا أخبار النتيجة بين حين وآخر، فمرة يُشاع ظهورها بعد أسبوع، أو بعد يومين وتخيب الظنون وتفشل التوقعات، وبعد شهر كامل ظهرت النتيجة، وكانت صفاء الثانية على الدفعة بفارق ضئيل جدًا عن عبد الله الأول، بينما فتحي كان تقديره هو وأشرف والجميع مقبول في حين حصل عماد على جيد مرتفع.

وفي تلك المرة كان الاحتفال الذي أقامه والدها كبيرًا بقدر النجاح الكبير الذي حققته، وابتاع لها قلادة ذهبية هدية لها واشترى لها فتحي حرف اسمها باللغة الإنجليزية من الذهب

لتضعه في القلادة الجديدة، في حين أهدته هي ســـاعةً جديـــدة تليق من وجهة نظرها بالمحامى المنتظر، كما تلقّت من الأســـتاذ سعيد مكافأة مالية هدية نجاحها الباهر.

(١١)

تفرّغت صفاء خلال تلك الإجازة للعمل فقط، وكـــذلك فعل فتحي، بينما باقي زملائهما منهم من قضى وقته في النوم، ومشاهدة التلفزيون، وبعض الزيارات ونزهات الشباب يوميًـــا حتى تمضي الإجازة وتنقضي الشهور الثلاثة ويعودوا لدراستهم.

وبرغم العمل المستمر إلا أن لقاء فتحي وصفاء كل صـــباح قبل الذهاب للعمل أصبح شيئًا مقدسًا منذ تصالحهما الأخـــير، وكذلك لقاء المساء كل ليلة قبل نومهما، إلا أن اللقاء الليلـــي هذا في أحايين كثيرة لا يتم، إما لعودتها متعبة فتنام على الفور، أو لتأخره هو في العمل، أو مع أصدقائه.

في إحدى الليالي الصيفية الساحرة نزلت صفاء من المكتب، كانت الساعة تقارب التاسعة، وبرغم نسمة الهواء التي تـــسرى في الجو وتخفض من درجة الحرارة، وكذا مشهد النجوم الـــتي تتلألأ في السماء والقمر الذي هو في تمامه إلا أن هناك شيئا يثير ألمًا وانقباضًا داخلها، كانت كالأم الملتاعة حين نزلـــت مـــن العمارة التي بها المكتب وترامى إلى سمعها صوتٌ يناديها، إنـــه صوتٌ لا تخطئه أبدا، فجرت نحوه، وحين رأته سألته:فتحـــي؟ خير فيه حاجة؟ حد جرى له حاجة؟

--من إمتى جيت لك هنا عشان فيه حاجة حصلت؟

-قول بقى أنا قلقانة وقلبي مقبوض.

-سلامتك يا حبيبتي بس بجد مفيش حاجة، أنا كنت عايز أشوفك.

-الحمد لله طمنتني.

وجلسا في مكان هادئ ونظر لعينها مباشرة، نظرة ترجو ألا يفارقها هذا الوجه أبدًا.

-مالك يا فتحي؟ بتبص لي كده ليه؟

-نفس أشبع منك.

-ما إحنا مع بعض كل يوم يعني هنروح فين؟

-أصلي مش مصدق إني هقعد أسبوع، ويمكن أكتر ما أشوفكيش.

-إنت بتقول إيه؟ ليه؟ رايح فين؟

-زبون للورشة يا ستي عايزنا نروح نشتغل عنده في كفر الزيات، سمع عنا، وعن شغلنا، وعايز نشتغل هناك، حاولنا نعمله الشغل هنا، مرضيش، وبعدين طلبية حلوة، وهروح أنا وعم محمود، وكم واحد كمان من الورشة.

-وأبويا كمان؟ أسبوع وأكتر يا فتحي؟ وصمتت قليلاً ثم أردفت: عرفت دلوقتي سر تعبي طول النهار.

-بعد الشر عليكي من التعب، مش بإيدي، أنا لو عليا ما أفارقكيش لحظة، بس أعمل إيه؟ هيطلع منها قرشين حلوين لمصاريفي أنا وإخواتي السنة الجاية.

-أنا عمري ما هقف في طريق فيه الخير ليك يا فتحي.

-عارف يا نور عيني، وعارف إن اللي تاعبني وتاعبك هــو الفراق، بس إنتي عمرك ماهتفارقيني، لأنك دايما ويايا وقــدّام عيني.

ظلت تفكر كيف ستقضي الأيام بدونه؟ وانشغل هو بذلك أيضًا، وطيلة الليل، وحتى بزوغ الفجر وهمــا يجلــسان أمــام بعضهما البعض، وكأنهما يخشيان النــوم، إلى أنْ غلبــهما في النهاية، وناما، وكان آخر وجه طالعته هو وجهه، وآخر وجه طالعه، وجهها، وأول من رأت في الصباح كان هو، وأول من رأى في الصباح هي. لم يناما أكثر من ثلاث ساعات.

ومضى اليوم، وتلاه آخر، وألم الفراق كان أكبر مما تتخيل، حاولت أنْ تتشجع وتعافر وتتحمل، أما هو فكانت صورتها لا تفارق عينيه، حتى وهو يعمل، كان يتعامل مع قطعة الخــشب كأنه معها، يهمس طالبًا ودها حتى تخرج قطعة فنية من مجــرد لوح خشب.

وصار الأسبوع ثلاثة أسابيع، لم تكن تتصور أنها حين تغيب عنه، أو يغيب عنها لأول مرة، تكون فترة طويلة هكذا، ثلاثة أسابيع انقضت كأنها الدهر، عاشتها كالموتى، وكل ما عرفتــه من تلك الفترة أنها تحبه وتحبه.

وما إنْ عاد مع أبيها، ودت لو ألقت بنفسها بين أحــضانه كما فعلت مع والدها الذي كانت في حضنه وعيناها تعانقانــه

هو، وتركت والدها لتسلّم عليه، واستقرت راحتها بين راحتيه، ثم أدرك نفسه وكذلك هي فأسرع بترك يدها التي تململت بين يديه وهي تنسحب في هدوء ليدخل على الفور بيته بينما تبعت هي أباها، ثم تسللت منهم بعد دقائق قليلة لتدخل حجرتها فإذا به بانتظارها.

ظلا ينظران لبعضهما طويلاً دون أن ينطقا، وسادت فترة صمت طويلة قطعها هو قائلاً: ياه! نفسي أقعد وياكي.. فيه كلام كثير عايز أقوله.

-أنا كمان عندي لك كلام كثير -لم يكن لديها شيء لتقوله، فهي لا تروى لأحد شيئاً إلا ما تريد أن تقوله حتى هو- ولكنها أرادت أن ترد على حديثه فأجبرها شوقها إليه على النطق بهذا ثم قالت: وحشتني.

-وإنتي لأ. عارفة ليه؟

-عارفة.

-صحيح عارفة، عارفة إني كنت بشتغل وأنا بكلمك وأنا بضحك معاكي وبحكيلك عملت إيه..كنت بتكلم مع الخشب على إنه إنتي، فيخرج من تحت إيدي تحفة، خلت صاحب الشغل طاير بالحاجة طيران، مش مصدق إن أنا ممكن أطلّع حاجات بالشكل ده.

-طول عمرك شاطر يا فتحي، ثم إنت فنان وبتحب شغلك واللي بيحب حاجة بيتفوق فيها.

-أنا جايلك دلوقتي.

-إزاي؟

-وحشتيني ومش قادر.. أنا اتعمــدت أســيب بنطلــون وقميص في حاجة أبوكي هاجي آخدهم.

وقفز فتحي من النافذة، ودق بابهم فأسرعت تفتح لــه، ولم يكن هناك أحد في جو الشقة، فألقت بنفسها بين ذراعيه.

احتضنها بقوة، بثها لهيب شوقه وألم فراقه، وكم تمنــت أنْ تظل هكذا بين يديه لا تبرحهما ثم ترامى إلى مسامعهما صوت أبيها وهو يقول: مين اللي جه يا صفاء؟

فاضطربت وابتعدت عنه ودخلت بسرعة وهي تقــول: ده فتحي.. عايز هدومه اللي ساها وياك عشان خــالتي إكــرام تغسلهم.

تعجب الرجل وقال: هدوم؟ هدوم إيه؟ وقام يفتح حقيبــة ملابسه فوجد فيها ملابس فتحي، فأعطاها إياها لتحملها إليــه فأخذها منها ثم طبع قبلة على وجنتها في لحظة خاطفة، ثم عاد لحجرته مسرعًا.

عودة فتحي، وكذلك عودة أبيها أعادت إليهــا الــشعور بالأمان، والراحة، فعادت لعملها بحماس أكبر وشغف أكثــر، لقد عرفت كل شيء عن مهنة المحاماة من القضايا الــصغيرة، وحتى القضايا الكبيرة، كل شيء، لقد صارت على دراية كاملة

بكل قواعد المهنة، وخباياها، لقد اختصرت السنين بشيء من الجهد.

ورأت صفاء المستقبل البعيد بهيجًا، وجميلاً، فصارت تجهد نفسها جدًا وبشكل غير محتمل، وبدأت الدراسة، وزاد الجهد والمعاناة، ولم تشكُ ولم تتذمر، بل كانت تعمل بنفس راضية وتزيد من جهدها لتحافظ على تفوقها حتى إنها لم تكن تنام سوى سويعات قليلة أشبه بالنوم الخاطف، وأشفق فتحي عليها وطلب منها أن ترفق بحالها قليلاً، فليس هناك داعٍ أن تنتهي سريعًا.

وإذا بما كان فتحي يتوقعه، يحدث، فذات يوم كانت عائدة من عملها في العاشرة مساء، في ليلة باردة من أيام شهر ديسمبر، وكانت لأكثر من أسبوع قبلها، تعمل وتذاكر بشكل جبار، فإذا بالجسد يعلن استياءه وألمه وجهده، وفي هذا اليوم أدرك فتحي تأخرها، فجلس في الشباك رغم البرد ينتظرها، فإذا بها عائدة تترنح، وتستند على جدران البيوت وهي تسير، فتعجب إلا أنه أرجع ذلك لإرهاقها طوال اليوم، ولكن ما إنْ اقتربت من باب بيتها حتى سقطت على وجهها، فقفز فتحي من الشباك، يحملها بين يديه وهو يصيح، صوته جعل أهل الشارع كلهم يخرجون، ليروا ماذا حدث، كان فزعًا خائفًا وهو يراها أمامه بلا حراك، وجسدها بارد رغم أنّ عرقها الغزير يبلل ملابسها، حملها فتحي إلى الداخل، وأسرع أبوها ليحضر طبيبًا، بينما أعدّت أمها كوبًا من الماء الممزوج بالسكر،

حاول فتحي أن يسقيها إياه، أنفاسها تلاحقــت، وأخــذت تصرخ من ألم في أذنها.

كل صرخة منها كانت تذهب بعقل فتحـــي، لأول مـــرة تصمت صفاء، ولا تتكلم، سكتت عن الكلام كمـــا كانـــت شهرزاد، إلا أنَّ شهرزاد كانت تتخذ من صياح الديك حجـــة لتصمت، ولتقتنص من صيادها يومًا آخر تضيفه إلى عمرهـــا بعيدًا عن الموت، إلا أنَّ الموت جاء مقتنصًا صفاء، وأمرهـــا أن تصمت فصمتت، غير أن روحها تعافر، وتكابر وتأبى الخروج، وتتمسك بالحياة.

وأخذ يدعو أن يزداد تمسكها بالحياة من أجله، فلن تطيـــب له حياة بدونها، وذرف الدمع الغزير لأجلها، لم يخجل من كل مَن حوله من الجيرة والأهل، بكاها وهو يمسك يدها، ويدعوها أن تعود له، وأخيرًا أتى الطبيب وأخرج الجمع الملتف حولهـــا، ولكنه لم يستطع إخراج فتحي، لم يستطع أن يجعله يترك يدها.

كانت تعاني من هبوط حاد في ضغط الدم كـــاد يـــودي بحياتها، فحقنها بعقار ليرفع ضغط دمها، ثم كتب لها علاجًـــا، ذهب أخوها على الفور ليحضره سريعًا، وأخيرًا وبعد ساعتين، استردت صفاء بعض عافيتها، وعادت ابتسامتها إلى وجههـــا، وبرغم كونها ابتسامة شاحبة، إلا أنها ردت الروح في صـــدري أبيها وأمها، وأعادت الحياة إلى فتحي الذي كان أشبه بـــالموتى مثلها.

وبات ليلته إلى جوار سريرها، ولم يستطع أحد منعه، وكيف يمنعونه، وبأي حجة، وهي الهواء الذي يتنفسه والماء الذي يشربه؟!

وفي الصباح، لم يذهب لعمله، ولا لكليته، وجلس يُمرضها، أسبوعًا كاملاً لم تبرح السرير ولم تخرج من البيت، وهو أيضًا لا يفارقها، زارها الكثيرون، من بينهم الأستاذ وولده عماد، وزملاؤها في العمل، وفي الكلية، ورأى الجميع فتحي وهو يجلس رهن إشارتها، وهو يمرّضها وكأنه ذراع من أذرعها، يدها التي تنفّذ ما تأمل فيه، بمجرد أن يفكر فيه عقلها، بلا داعٍ لأن تنطق به.

وبرغم المرض والألم، لم تكف عن المذاكرة، كانت تذاكر، وجعلته يذاكر معها، لأنه كان يقرأ لها وتجعله يذهب لأشرف لإحضار المحاضرات التي فاتتها وكان أشرف يأخذها من عماد، لأنها تعلم أنه يهتم بعض الشيء أكثر من الجميع، استردت صفاء عافيتها، وعادت إلى دنياها، ولكن بعهد أخذته على نفسها لرفيق روحها، أن تهتم بنفسها وألا تجهدها مرة أخرى.

ولكنها كانت قد اتخذت هذا الوعد قبلاً مع نفسها، فأي وعكة كهذه كفيلة بتعطيلها عن مشوارها وحلمها، ليس فقط سبعة أيام، وإنما لما هو أطول، لذا فإن لبدنها عليها حقًا حتى لا يخذلها، ويمنعها عن مواصلة ما بدأته.

أتمت صفاء مع فتحي العشرين عامًا في هذا الشهر، شــهر ديسمبر، ورغم أنه عام كأي عام يمر مــن عمرهــا، إلا أنها شعرت به شيئا آخر، وكأنه مرحلة فاصلة في حياتها، فما قبلــه كان شيئا وما بعده سيُعَد شيئًا آخر، وأحست بأنها نــضجت، ولم تعد طفلة، أو حتى فتاة مراهقة وإنما امرأة ناضجة، فلقــد مرت عليها الأيام، والشعور بالنضوج، وبكونها امــرأة يــزداد يومًا بعد يوم، وزادها اهتمام الآخرين بها إحــساسًا بتميزهــا كامرأة، لم تكن تحس بتلك الأحاسيس من قبل، لم تكن تهــتم بمشيتها، ولا بجسدها الثائر قبل هذا اليوم، كيمياء بداخلــها، أشياء تختلط ببعضها، فإما أن يحدث فوران يعقبه دوى انفجار، وإما لا يحدث شيء على الإطلاق، وكأنه ليس هناك تفاعــل على الإطلاق، أمر واحد لم يحدث لها مع بلوغها تلك الــسن، إحساسٌ واحدٌ لم يتسرب إليها رغم أنه يصيب كل فتاة تبلــغ هذا العمر، ومع بعضهن، قد يأتي مبكرًا عن هذا، إنه الإحساس الأجمل في الكون، والرغبة التي ليست كأي رغبة يطلبها المــرء فهي الأسمى، رغبة كل فتاة في أنْ تصبح أمًا، لها طفل تــضمه بين حنايا جسدها ليخرج بعد طول صبر واشــتياق، ليــضمه صدرها معطيًا إحساسا بالحياة، بالأمل، بالرغبة في التضحية من أجله بكل شيء، حتى بالعمر الغالي، والصحة والمــال، إنهــا الأمومة ولا شك، النبع الذي ما إن يتفجر فليس لمخلوقٍ قدرة أن يوقفه.

لم تشعر صفاء بتلك الأحاسيس، وإنما زادها هـذا العمـر إحساسًا بذاتيتها أكثر من ذي قبل، وارتفع صوت الأنا حـتى بلغ عنان السماء.

سارت الأيام بها بلا توقف، تعتصر الجميع، في حين أنها هي التي تعتصرها، تستفيد منها أقصى استفادة وتحقق من ورائهـا كل ما ترنو إليه وتحلم به، لقد نجحت هذا العام وإن كانـت تلك المرة هي الأول مكرر مع عبد الله، حصلت علـى نفـس مجموع درجاته، مما زاد حنق الفتى عليها، وأقسم مع نفسـه أن يفوقها العام القادم، كما أنّ قدميها قد ثبتت في المكتب، بعـد زواج السكرتيرة الأخرى، فأصبحت هي مديرة المكتب.

في حين أن فتحي قد ذاع صيته كنجار، وأصبح يُطلـب في عمليات خاصة لا علاقة لها بالورشة، فلقد فاق معلمه، أباهـا الأسطى محمود، وتبدّل حال أسرة فتحي بـالخير الـذي ورد إليهم من وراء فتحي، وإخوته الذين يعملون معه في غير أوقات المذاكرة، وجدّد فتحي البيت وطلاه من الـداخل والخـارج واشترى بعض قطع الأثاث الجديدة، بل اشترى خشبها فقـط وصنعها هو بمهارته الفائقة، فليس باب النجار (مخلّعًـا) كمـا يقول المثل، وإنما هو باب مثبّت بألف ألف مسمار.

دخل فتحي وصفاء الدوامة التي لا تتوقف، وإن كانت قـد دخلتها هي قبلاً، كل منهما عشق عمله وأحبه بشدة حتى صار لديه أعز عزيز.

وأخيرًا اقتربت صفاء من تحقيق الحلم، لقد قـــارب عامهـــا الأخير بالجامعة على الانتهاء، وستبدأ حقـــا حياهّـــا العمليـــة بشهادهّا الجامعية، ستكون الأستاذة صفاء محمود.

جرت الأيام سريعًا وتحقق الحلم وظهرت النتيجة وحصلت على الشهادة، وصارت محامية بحق، ونجح فتحي أيضا، وحصل على الليسانس، ولكنه بالنسبة له ليس مهمًا، وإنما لهـــا يعـــنى حياهّا.

لم تأخذ الكلية في هذا العام معيدين، وضاعت منها فرصـــة من فرص النجاح كما ضاعت من ندّها عبد الله.

واحتلت في المكتب منصب المحامى، وجلست في حجـــرة المحامين، وتركت مكتب السكرتيرة لفتاة أخرى، وهدية نجاحها هذا العام من الأستاذ كانت الاشتراك بالنقابة، والحصول على بطاقة عضويتها، والذي هو كلفة ما بعدها كلفة، فلقد كانت تدخر مبلغًا كبيرًا من أجل هذه البطاقة، التي طالما حلمت بهـــا، حين تسجّل اسمها ضمن قائمة المحامين بالنقابة وتقسم الـــيمين، ولكن الأستاذ وفّر لها المبلغ الضخم، وتكفّل به عنها.

وانتظرت صفاء أن يأتي عماد للتدريب في مكتب والده، إلا أنّ عماد لم يكن يطمح في العمل كمحامٍ، وإنما كانت المحاماة هي آخر فرصه في الحياة، إنه يطمح في العمل كوكيل للنائـــب العام، ولهذا كان يحرص كل الحرص على التقدير، وقد حصل على تقدير جيد جدًا في عامه الرابع، ولأن أباه محامٍ كبير لـــه

صيته وسمعته، وخاله المستشار كريم التونسي، وعمه قاضٍ شهير، هذا غير معارف والده من أصحاب المناصب، والذين لهم كلمة لا تُرد، لذا فقد صار وكيلاً للنائب العام في محافظة السويس.

لم يكن المكان مهما، المهم أنّه حقق الحلم الذي تمناه وأصبح لديه حلمٌ آخر كان متيقنا أنّ تحقيقه مستحيل، ولكن كل مدة يتجدد لديه الأمل، ما زال يطمح لصفاء، وما زال يحلم بها كل ليلة زوجته، كان يبيت وهو يحدثها ويأخذ رأيها في أي شيء، يُلقي عليها تحية الصباح حين يستيقظ من نومه، ويودّعها حين يخرج من بيته، وفي المساء يضمها حضنه ويقبلها قبل أن ينام، وفي الحلم تراوده وتشاركه حياته، إنه متيمٌ بها، فمن نظرة واحدة إليها، تستثار رغبته، وتتحرك مشاعره، ولكنه يعلم ما بنفسها، بعد كل هذا، كان لابد لها من أن تجلس مع فتحي، وتحدثه بشيء من الجدية تلك المرة، فلقد فات أوان اللعب واللامبالاة، جلسا في مكان عام بعيدًا عن بيتهما.

فقال:خير يا صفاء؟ طلبت تشوفيني هنا ليه؟

-عشان نتكلم في مستقبلنا.

-مستقبلنا؟!! ما له مستقبلنا؟!!

-مرت شهور من يوم ما اتخرجنا، وإنت ولا إنت هنا، كل يوم يمر أقول بكره، ويجي بكره وأقول بعده، لكن برضه مفيش تقدم.

-قصدك إيه بالكلام ده؟

-قصدي الشغل يا فتحي.

-ما أنا بشتغل.

-بتشتغل إيه؟

-ياه! هو إنتي لسه متعرفيش.

-دى شغلانة وقتية لكن دلوقتي إنت معـــاك شـــهادة لازم تشتغل بيها.

-شهادة إيه يا صفاء اللي بتتكلمي عنها؟

-الشهادة اللي أنا بشتغل بيها دلوقتي يا أستاذ.

-شوفي يا صفاء الشهادة دي أنا خدتها عشان يقولوا إن أنا معايا شهادة، ومش جاهل، وإني اتخرجت من الجامعة، أما أنا، فالشهادة دي ما تلزمنيش في حاجة.

همت أنْ تقاطعه فقال: متقاطعنيش وسيبيني أكمل وأحـــط النقط معاكي على الحروف، فيه مليون محامى، إن كان فـــيهم ألف بيشتغل، الباقي لأ، وإن كان فيهم مية كويسين، البـــاقي لأ، وأنا عارف إن عمري ما هبقى محامى، ولا أعرف الشغلانة دي، لكن اللي أعرفه واللي عمر ما مليون محـــامي هيعرفـــوه، الصنعة اللي في إيديا اللي بتوكلني الشهد دلوقتي، واللي إنـــتي نفسك بتعترفي إني فنان فيها، وإن مفيش حد زيي، يبقى أجري

ورا حاجة مبعرفش فيها ليه؟ وأسيب الحاجة اللي بفهم فيها وبحبها؟!

-بس أنا ما اتعلمتش، وخدت الشهادة، واشتغلت، وحلمت، عشان في الآخر أرتبط بنجار، بدل ما أطلع لقدّام وأحقق حلمي أرجع لورا، وأفضل في نفس المكان ونفس الشارع اللي اتخنقت منه أنا بحلم....................

قاطعها قائلاً: وأنا كمان ليا حلمي، ليه عايزاني أتخلى عنه عشان حلمك إنتي؟! ليه عايزاني أسيب طموحي عشانك؟! ليه إنتي ما تسيبيش حلمك عشاني؟!!

-ما أقدرش أنا طول عمري بحلم أبقى حاجة كبيرة، إنت هتبقى إيه؟

-هبقى اللي هكونه يا صفاء.

-لكن أنا ما أقدرش على كده، أنا صبرت كتير، وعافرت لحد ما وصلت لأول الطريق، وحاولت أختصر السنين، مش عايزاك تقف عقبة في طريقي، إنت نقطة ضعفي الوحيدة.

-والمطلوب مني أكبر من احتمالي، طول عمري على استعداد أعمل أي حاجة عشانك، لكن أسيب شغلي اللي هو حياتي، لأ يا صفاء، لأ مش هقدر أكون أي حاجة تانية غير كده.

أيقنت صفاء أنّ حديثها معه لن يجدي، وأنه لن يُثنيه شيءٌ عما عزم عليه مثلها تمامًا، لذا قامت وسار كلٌّ إلى طريق، وفي تلك الليلة عرفت أنّ الطريق بينها وبينه صار مسدودًا وبلا أمل، وأن الدنيا إذا أعطت فهي لا تعطي كل شيء، وإنما إنْ أعطت فهي تأخذ في المقابل شيئًا، وقد تكون أشياء، وفتحي لديها كان يمثل أشياء كثيرة، إنه سنوات العمر كلـه، إنـه رجلها.

بات فتحي وهو مكلوم حزين، إلا أنّه لم يفقد رجاءه معها، فهو ما زال مقتنعًا بأن حب السنوات الماضية سوف ينتصر مهما حدث، وأنها له وهو لها، ولكنه لم يكن يعلم أنّ زمن الحب والرومانسية قد ولّى منذ مدة طويلة.

كانت الأحداث تمر بسرعة كأنها شريط سينما، لمْ يعد بينهما حديث يذكر غير حديث الصباح، أصبحا كأي جارين في الشارع، كان يرمقها كل يوم في ذهابها وإيابها وهي في كامل أناقتها، لقد تغيّرت طريقة لبسها، وارتدت ملابس أنيقة غالية، لقد علم أنها تتقاضى راتبًا ضخمًا وليس كأي محام متدرب، فلقد اعتبر الأستاذ أنّ فترة عملها السابقة هي فترةً التدريب، كانت تخرج كل يوم مرتدية ثوبًا مختلفًا عن اليوم السابق، وحقيبة يدها لون الحذاء الذي ترتديه، حتى مساحيق التجميل التي لم تلمس وجهها يومًا، صارت تضعها، فزادت من جمالها، وأشعلت نيران غيرته عليها، فلمن كل تلك الزينة، وبدأ ينظر لنفسه ولملابسه المبقعة والمرتقة، إنها ملابس العمل،

إن بمقدوره أنْ يرتدي مثل ما تلبس، ولكن كيف سيعمل بتلك الملابس بين الخشب والمنشار والمسامير والغراء وبـــاقي أدوات النجارة؟!!

بدأ يسأل نفسه هل المرء ليكون محاميًا بحاجة إلى كل هـــذا الاهتمام بمظهره؟!! أكيد تتزين لأحد، واحـــد مـــن هـــؤلاء المتأنقين، أو قد يكون عماد سيادة وكيل النيابة العاشق المتـــيم بها.

رأسه تكاد تنفجر، وأوشك أنْ يحـــدّثها، ولكـــن لم تأتـــه الجرأة، فلقد شعر بأن هناك حاجزًا صار بينه وبينـــها، جـــدارًا يعلو يومًا وراء يوم، ولكن لم يعد به طاقة للصبر، وفي إحـــدى الليالي كان الجو شديد الحرارة، وكان لتوه عائدًا من سهرة مع أصدقائه على القهوة في الواحدة صـــباحًا، حـــين رأى نـــور حجرتها وشباكها المفتوح، فدخل حجرته وأضاء نورها وبدّل ملابسه، كانت أمامه حيث إن شباكه مفتوح هـــو الآخـــر، كانت منهمكة في قراءة ملف في يدها، فلم تلحظه و لم تـــشعر به، جلس أمامها فترة، كلما حاول أنْ يُحدثها أمسك شيء ما لسانه، وأخيرًا استجمع شتات نفسه وقال: إزيك يا صفاء؟

سمعت صوته فرفعت عينيها عـــن الأوراق ونظـــرت إليـــه وقالت: الحمد لله إزيك إنت؟

-كويس، إيه اللي سهرك لدلوقتي؟

-مفيش.. قضية جلستها بكره. وبحضّر لها.

-ربنا يعينك، وصمت قليلاً، ثم أردف قائلا: جميل قوي الطقم اللي كنت لبساه النهارده.

-صحيح عجبك؟

-ده يعجب الباشا بس الماكياج مش كتير شوية؟

ضحكت وهي تعرف مغزى كلامه: إيه هتغير؟

-مش غيرة بس عمرك ماكنتي بتحطي الحاجات دي!

-كل مرحلة وليها متطلباها.

-بس العيون والناس مش هتسيبك.

-كده كده هما وراك... وراك.

-بس عندهم حق.

احمر وجهها خجلاً وهي تقول: متشكرة على المجاملة.

-مش بجامل واضح إنك مش عارفة نفسك.. بصي في المراية وشوفيها.

-مش كل الناس بتشوفني بعنيك يا فتحي.

-في دي عندك حق.

تركها تقرأ أوراقها واستلقى على سريره لينام وهو مطبق عينيه على صورها، ومغلق أذنيه على صوها.

وفى الصباح، رآها وهى تخرج لعملها، وقد خفّفت قليلاً من المساحيق على وجهها، ألقت عليه تحية الصباح وهو واقف أمام الورشة.

وفى العمل، أثبتت صفاء جدارتها بشكل ليس له نظير، حتى إنَّ الأستاذ أصبح يأخذ رأيها في كثير من القضايا، حتى الكبير منها، ويوكل لها بعض القضايا الصغيرة -حيثُ إنها لا زالت تعتبر محامية مبتدئة- من بابها، ويتركها تكتب دفاعها وتترافع فيها دون أن يخط فيها قلمًا أو يعطيها استشارة، لقد خُلقت لتلك المهنة، هذا غير أهل بلدتها الذين يقصدونها في حل بعض النزاعات، والدفاع عنهم في قضاياهم.

لقد وصلت صفاء في حين ما زال زملاؤها يتخبطون بل، وينحسرون عنها، فإيمان وسارة في طريقهما للزواج، بينما تزوّجت سهر وداليا رغم عشقها لعماد، ولكنها كانت تفقد الأمل فيه، و لم تفكر صفاء يومًا بالزواج، وإنما بالنجاح واثبات الذات، ويمكن لأن قلبها كان مطمئنًا لحبيبها، وأنه ليس هناك من يحل محله.

دارت الأيام بالشارع وقد سقط الحاج السعيد جبر بقال الشارع ميتًا في دكانه، وبعده بأسبوع واحد تبعته زوجته حزنًا وكمدًا عليه، حينها أتى أولادهما من الخارج تلك المرة، ليشيّعا جنازتهما وليس لزيارتهما، وبعد بضعة أشهر، تمت خطبة سماء أخت فتحي لمدرس كان يعمل بمدرسة البلدة الثانوية، في أثناء

قضائها فترة التدريب العملي لعامها الأخير بالكليـــة، وكـــان سلامة أبو فتحي يحمل هم مصاريف زواج ابنته، إلا أنّ فتحي تكفّل بالكثير، كما أنّ العريس مـــدرس ثـــانوي، والـــدروس الخصوصية كل همه، وهو ليس بحاجة لأي شيء من عروســه فهو جاهزٌ بكل شيء.

نظر فتحي إليها نظرة تحمل الكثير من رغبته فيها، كانـــت أول مرة تشعر برغبته فيها كامرأة وهو يقول لها: عقبى لنا.

فقالت له بلهجة أطفأت نيران رغبته المتأججة: مش دلوقتي، قالتها وتركته.

لقد كانت تلقى بنفسها بين يديه، وفى حضنه وهى تأمنـــه، لأنها تعرف مدى طهارة حبهما وطهارة قلبه، لم تكن تتخيـــل أن تغلبه شهوته ويظهرها لها علنًا هكذا بعينٍ طامعة راغبة.

واقترب منها وقال:فيه إيه؟ زعلانة مني ولا إيه؟

-مفيش يا فتحي، لم تكن تعلم بماذا تجيبه.

-لا فيه حاجة ضايقتك مني.

-نظرة عينيك خوفتني منك لأول مرة.

-تخافي مني أنا؟!!

-أيوه حسيت إنك زى أي واحد.. وإن أنا.. أنـــا مجـــرد واحدة قدامك عايزها.

-إيه الكلام اللي بتقوليه ده؟! والتقط يـدها بـين يديـه فسحبتها على الفور وهي ترتجف فتابع قـائلاً: للدرجـة دي خايفة مني؟!!!!

فأمسك بيدها مرة أخرى ولثمها وهو يقول: أنـا بحبـك، وعمري ما هعمل حاجة تضرك وإن كانت عيني خانتني، فأنـا مش هسمح لها أبدًا تأذيكي مرة تانية، كل اللي عايز أقوله، إن إنتي عمري وإني عايش عشان اليوم اللي يضمنا

فيه بيت واحد.

-بس. أرجوك بلاش..............

لم يدعها تُكمل، وقال: من غير ما تقـولي، غـيرتي مـن العرايس هي السبب غصب عني.

ضحكت في وجهه وشربا الشربات سويًا.

وآخر أحداث الشارع هو عودة ميادة إليه أرملـة تحمـل طفلين، زادت أحزان الحاج عبد الله، ألا يكفيه أنه لا أحد من أولاده استطاع أن يتعلم صنعته، وأن اسمـه سـوف ينقطـع، وتضيع ورشته هباءً، حتى تأتي ابنته الشابة التي هي في الثالثـة والعشرين من عمرها أرملة وتحمل طفلين!

في حين استمرت أحوال باقي السكان كما هي، رتيبة، كلٌ منكفئ على حياته راضٍ بها ولا يسعى لتغييرها.

(١٣)

مرت أسابيع منذ خطوبة سماء، حين كان فتحي يقف على باب الورشة وفي يده قطعة خشب يعمل عليها، مـــرت عليـــه صفاء عائدة من عملها، كانت الساعة الرابعة عصرًا، وتعجّب فتحي، فهي لا تأتي قبل الثامنة أبدًا، قد يكون بعد ذلك، وإنما أن تأتي مبكرًا هكذا، كان أمرًا غريبًا، لم يـسألها ورد عليهـا فقط تحيتها، وودّعها بعينيه وابتسامته المعهودة، وبعد ساعة من مرورها وجدها آتية في اتجاهه، مرتدية طاقمًا آخـر وتحمـل حقيبة يدها وحقيبة أوراقها وحقيبة ملابس صغيرة، فارتاب في الأمر، في حين ألقت هي عليه التحية ومضت، فعدا خلفهـا وقال: على فين يا صفاء؟

-مسافرة مصر.

-مصر!! ليه؟ ولوحدك؟

-أنا مش صغيرة يا فتحي وبعدين عندي قـضية الـصبح بدري، ولازم أبات هناك.

-تباتي فين؟ وعند مين؟

-في أوتيل.

-أوتيل يا صفاء؟ لوحدك؟ إنتي جرى لك إيه؟

-قلت لك أنا مش صغيرة.. أنـا محاميـة.. ودي قـضية كبيرة.. وفرصة بالنسبة لي.

وصمتت قليلاً وقالت: أسيبك دلوقتي عشان معاد القطر، تركته وذهبت، أوشك فتحي على الجنون من تلك الفتاة؟ إنه لا يعرفها، لقد قفزت قفزة غريبة، مصر مرة واحدة، وقضية كبيرة، وأوتيل!!!

ولم يستطع أن يعمل، لقد كان شاردًا شرودًا غريبًا حتى أنَّ "الشاكوش" سقط على أصابع يده بدلاً من المسمار، وترك فتحي الورشة وعاد لبيته، جلس في حجرته يتطلّع لشباك حجرتها المغلق في وجهه، وأُغلقت معه الحياة كلها، لقد شعر أنها ذهبت عنه، أصبحت بعيدة، انقباض قلبه يقول ذلك أيضًا.

لم يعد فتحي قادرًا على التفكير، دخلت أمه إليه لتسأله عما به، ولماذا يرفض تناول الطعام، لم يجبها وصمت ثم قطع صمته ليقول: إنتي عارفه صفاء فين يا أمّه النهارده؟

-لا يا بني راحت فين؟

-صفاء سافرت مصر دلوقتي.. هتبات هناك عشان عندها قضية هناك.

-تبات عند مين يا فتحي؟ لها مين هناك؟

-في أوتيل يا أمّه. لوكاندة يعني!!

-لوكاندة؟ يا خبر أسود، هو أبوها جرى له إيه؟

-معرفش يا أمّه جيت أكلمها قالت لي: "أنا مش صغيرة أنا محامية".

-محامية إيه؟ ونيلة إيه اللي تخلى بت زى دي تبات برّه وفى بلد تانية؟!

-معرفش أنا ما عدتش عارف حاجـــة... أنـــا خـــلاص هتجنن!

-سلامتك يا ضنايا من الجنان.

-اتغيّرت يا أمه.. مبقتش صفاء.. دي بقت حاجة تانية!

-ماتسيبك منها يا حبيبي.

-إزاى؟ ما أقدرش!! قالها ووضع رأسه بين ركبتيه كمـــن يتحسّر على حاله.

فربتت رأسه، ثم أخذته في حضنها وهى تقول: معلهش يـــا فتحي، بكره الأيام تروق ومين عارف اللي جاي شكله إيه؟

قامت، وتركته يتجرّع كأس المرارة وحده.

وصلت صفاء محطة القطار في طنطا لتستقل قطـــارًا آخـــر متجهًا إلى القاهرة، وكان حجزها فيه مـــسبقًا وفى الدرجـــة الأولى المكيّفة، جلست في مقعدها وهى منتشية، فرحة حتى إنها نسيت عيون فتحي الملتاعة والدمعة التي كانت تترقـــرق فيهـــا وهى تتركه، وتمضي في طريقها.

نسيت كل شيء، ولم تتذكر سوى المجد الذي سوف ترتقي سلمه من الآن فصاعدًا، وبينما هي سابحة في خيالهـــا، جلـــس

أمامها رجلٌ ما إن رأته حتى تهللت أساريرها وقالت: دكتــور سيد، إزى حضرتك؟ عامل إيه؟

وتذكرها أستاذها على الفور، وقال: صفاء؟ مش معقــول! إنتي فين يا بنتي؟ ده أنا كنت منتظر أشوفك بأي شكل؟

-خير يا أستاذي؟

-خير إن شاء الله، كنت عايز أعرف ناويــة علــى إيــه؟ وهتعملي إيه؟ المهم إنتي رايحة فين دلوقتي؟

-عندي قضية في محكمة شمال القاهرة، بكره الصبح.

وروت له صفاء كل شيء منذ بداية عملها عند الأســتاذ سعيد الذي لم يُصدق الدكتور في البداية، أنها تعمــل عنــده، لشهرته الكبيرة، ولأن من يعمل لديه محامون ذوو خبرة ومهارة عالية، إلى تلك اللحظة التي هي معه فيها، وعلى وشك الدفاع في جناية قتل.

استمع إليها ثم قال: معقول؟ الأستاذ سعيد يسيب محاميــة متخرجة من أقل من سنتين تترافع في قــضية كــبيرة زى دي وتحط دفاعها بنفسها؟

ابتسمت صفاء وقالت: الأستاذ سعيد هيقــابلني بكــره في المحكمة، وطبعا زي ما حضرتك عارف القضية متسجلة باسمه، وهو اللي هيتقدم للقاضي، بس هيسيبني للدفاع عن المتهم وهو جنبي، وإن شاء الله هاخد حكم من أول جلسة.

-متبقيش طماعة يا صفاء.

-مش طمع، أنا دارسة القضية كويس، ده أنا لــو مكــان القاضى هحكم من أول جلسة، وببراءة موكلي.

وتعجّب الأستاذ من ثقة صفاء بنفسها، وثقة الأستاذ سعيد بها، ليقف إلى جوارها كمجرد اسم في قضية كبيرة، وهــي لا تستطيع الوقوف للدفاع في قضية جنائية قبل مرور مدة طويلة، على الرغم أنه مَن تنبأ لها بالنجاح منذ بداية معرفته بها حــين حصلت على امتياز في مادة تخصصه (القانون الدولي)، وانتهى الطريق بوصول القطار إلى محطته، وذهب كلٌّ في طريق.

وفى الصباح، ذهبت إلى المحكمة وهى تعتزم بثقتها أن تهــزم الخوف الذي تسرّب إلى داخلها بكل ما تملك من قوة، وقابلت الأستاذ سعيد الذي طمأنها وبث فيها بعض القوة بوجــوده إلى جوارها.

وقفت تُلقى دفاعها، وتفنّد القضية، وتستجوب الــشهود ببراعة منقطعة النظير، حتى إنّ أستاذها الدكتور ســيد الــذي حضر المحاكمة دون علمها، أُعجب بها أشد الإعجاب، وكــاد يُصفق لها حين حصل موكلها على البراءة.

وقابلها خارج قاعة المحكمة، وهنأها، ثم سأل عن الأســتاذ سعيد فأخبرته أنه انطلق مسرعًا ليلحق بموعد مهم لديه، فطلب منها أنْ تتناول معه الغداء، ووافقت على الفوّر، وهنا فاتحها أنْ تعمل لديه، ولم تصدّق نفسها، إنها تعلم أنه أســتاذ شــهير،

ومكتبه من أشهر مكاتب المحامين في مصر كلها، بل هو أشبه بشركات المحاماة المنتشرة في الخارج، ووافقت على الفور وبدون تردد.

ولكنها فجأة، أدركت الوضع، فتروّت وسألت: والإقامة؟ أنا مقدرش على إيجار شقة هنا، ولا أقدر أروح وآجي كل يوم.

-محلولة، أنا المكتب بتاعي شقتين كبار، وفيهم أوضة فاضية، ممكن تبقى بتاعتك.

-دكتور سيد، أنا مش عارفة أقول لحضرتك إيه؟ حضرتك فتحت لي أبواب الدنيا كلها، أي شكر مش هيوفيك حقك، بس عندي سؤال، بتعمل معايا كده ليه؟!

-لأني مؤمن بيكي، وحاسس إنك هتكوني شيء مهم، بس محتاجة تشجيع، وأنا على استعداد أقف جنبك لآخر يوم من عمري.

-أنا متشكرة، جميلك هيفضل طوق في رقبتي العمر كله.

وفي طريق عودهما، كانت تشعر أنها في حلم، وأنها ستصحو منه لا محالة على واقعها العادي، ولكنها أبدًا لم تكن تحلم، إنّ ما تشهده هو الحقيقة بعينها وليس حلمًا، ولكن لماذا؟ لم تجد إجابة لسؤالها غير أنها لو لم تكن ماهرة، لو لم تكن بارعة، لما أرادها أحد، ولما تمسّك بها الجميع.

بقي لها مواجهة أهلها، والأستاذ سعيد، وفتحي الذي هـــو أكبر عقبة تقف في طريقها، ومصدر ألمها الوحيد.

أسرعت إلى بيتها على الفور، وكان الجميع في اســتقبالها، أبوها وأمها وإخوتها، وجلست إليهم وهى تُعد دفاعًــا جيــدًا لإقناعهم بما هي مُقدمةٌ عليه، فهي على استعداد للذهاب حتى دون أنْ تحصل على موافقتهم، واستطاعت بمهارة أن تتحــدّث إليهم، وتقنعهم، حتى نالت موافقتهم بالفعــل، ودون مــشقة فيكفى أنّ أمها اقتنعت حتى يقتنع أبوها بسهولة شديدة.

بقى لها الأستاذ سعيد، وبرغم خسارته لها كمحامية جيدة، إلا أنّه بارك لها المسعى الجديد، فهو يعلم أنها تستحق أفضل من ذلك، وأنّ الأستاذ سيد الدكتور والأستاذ العظيم هــو هــذا الأفضل، ولأنه يعتز بمعرفتها فقد أبى أنْ يكون عقبة في طريقها، بل هنأها وصرف لها مكافأة نهاية خدمة.

لقد أجّلت فتحي للنهاية، وقبل سفرها بــساعات قليلــة، واحتارت صفاء ماذا تقول له؟ لقد خلت جعبتها من أي كلام ولكن كان لابد لها من أنْ تُحدثه وحده، ولابد أنْ يتفهمهــا ويفهم دوافعها.

وفى صباح اليوم التالي لعودتها من القاهرة، قالت لــه قبــل ذهابها للعمل: عاوزة أشوفك النهارده بعد الشغل.

-ليه فيه إيه؟

-أما أشوفك هقول لك، هستنّاك الساعة ثمانية.

كانت لتوها قد فرغت من الحديث مع الأستاذ سعيد، وأنهت فترة عملها لديه، ونزلت من المكتب لتجد فتحي أمامها، سارت معه وقلبه يحدثه أنّ هناك شيئًا ستفجّره صفاء الآن، فقال لها: معلهش نسيت أقول لك حمد لله على السلامة.

-الله يسلمك.

- خير عوزاني في إيه؟

كان قد وصلا لكازينو هادئ، جلسا معا، فقالت له: إنت عارف إني بطمح أكون حاجة، وإني عايشة عشان أوصل للي بتمناه، والحمد لله أنا قطعت شوط كبير ووصلت لدرجة راضية عنها.

-فيه إيه يا صفاء؟ وليه المقدمة الطويلة دي؟ يكونش فيه عريس من الناس الواصلة اللي بقيتي تعرفيهم؟ و............

قاطعته قائلة: عريس إيه؟ وكلام فاضي إيه؟ دماغك ما تروحش بعيد، أنا ما بفكرش في الجواز دلوقتي، وإن فكرت إنت عارف كويس هو مين.

-أشك!

-على العموم بكره الأيام تثبت لك، المهم مش هو ده الموضوع، سيبنى أتكلم وبلاش تقاطعني.

-اتفضلي. كلّي أذان صاغية.

-أظن تعرف الدكتور سيد عبد السلام أستاذ القانون الدولي اللي درّس لنا.

-أيوه طبعا.

-عرض عليا الشغل في مكتبه وهستلم من بكره.

-بس ده مكتبه في القاهرة!

-أيوه عارفه، هشتغل وأسكن هناك إن شاء ربنا.

-كمان؟ وبتقولي لي ليه؟

-مكنتش عايز تعرف؟

-إنتي مش بتاخدى رأيي، إنتي بتبلغيني قرار خدتيه وهتنفذيه!!

-الموضوع مكنش محتاج لا لرأيك، ولا رأيي، دي كانت فرصة، والحياة فرص لازم الواحد يقتنصها.

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابًا

صفّق لها وهو يقول: يا عيني، محامية بصحيح ودفاع قوي يا أستاذة!

صمت برهة، ثم عقّب قائلاً: روحي يا صفاء، روحي حققي حلمك ومش مشكلة أي حاجة وأي حد، أتحرق أنا، مش مهم، المهم إنتي، إنتي وبس!!

-فتحي أنا..........

قاطعها قائلاً: مش محتاج أسمع أي حاجة ثانية.

قالها وتجرع كأس الماء الموضوع أمامه دفعة واحدة، وكأنــه يبتلع الحجر الراسخ في حلقه، ثم قام وقال: أشوف وشك بخير يا صفاء، وهَمَّ بالانصراف.

فأمسكت ذراعه وقالت: بتودعني ليه دلــوقي؟ أنــا لازم أشوفك الصبح قبل ما أمشي.

-مش هينفع، مع السلامة.

تركها فتحي ليسير هائمًا في الطرقات، تغلبه دموعه وهــو ينعي هواه الضائع، لقد فقدها الآن للأبد، لقــد كانــت إلى جواره وكانت فرصة اقترانه بها تتضاءل شيئًا فشيئًا، فما بالــه الآن وقد تركته إلى حيث القاهرة الواسعة والمدينــة والــشهرة والحياة الرحيبة؟ ساعتها لن تفكر إلا بقاض، أو علــى الأقــل وكيل نيابة، وليس فتحي النجار ابن سلامة الكمساري.

أما هي فرغم فرحتها، إلا أنَّ ألم فراقه أبكاهــا، وأيقظهــا طوال الليل، وكلما نظرت لحجرته، ولم تجده، تبكــي أكثــر، وتسأل نفسها أين ذهب؟ وماذا فعل بنفسه؟ أسئلة كثيرة أرّقت مرقدها، مزقتها، راحت تدمّر شيئا فشيئًا عقلها، وأخيرًا عــاد قرب الفجر، فقفز من شباكه إلى الحجرة حتى لا يوقظ أهــل البيت لأنه ليس معه مفتاح، وما إنْ وطأت قدمه سريره حــتى سمعها تقول: كنت فين يا فتحي وإيه اللي أخرك؟

نظر إليها نظرة زلزلتها وهو يقول: يهمك تعرفي؟

-مفيش حاجة تعباني إلا فراقك.

-يا سلام! وعوزاني أصدق الكلام ده بقى؟!

-مش مهم يا فتحي تصدق، ولا متصدقش، بس هـــو ده اللي أنا حاسة بيه، وهو ده اللي تاعبني، ومعذبني، بس إنــت السبب، مين عالم لو كنت اشتغلت معايا مش كان زمانا سوا

-متحملنيش المسئولية لوحدي، إن كان فيـــه حـــد لازم يشيلها، يبقى إنتِ، إنتِ اللي اتمردتي على وضـــعك وحياتـــك وبصيتي للشمس، وخايف لتعميكي!

-لو ما كنتش أد اللي حلمت بيه، مكنتش وصلت للي أنا فيه دلوقتي، ومكنش أكبر مكاتب المحاماة يطلبني للشغل فيه، أنا ما حلمتش غير باللي أقدر أحققه، وبالفعل أنا بحققه، وبطريقتي وبدون أي خسارة.

-عندك حق من غير خسارة، ما أنا فعلا ما أساويش!

-أنا ما أقصدكش إنت، أنا أقصد خسارة لأخلاقي، أو أي شيء يمس كرامتي.

-ولا حتى تقصدي، مع السلامة يا صفاء، وابقـــي خلينـــا نشوفك.

قالها وأغلق الشباك، كان يُدرك إنها النهاية، وأنها لن تعـــود أبدًا.

(١٤)

سافرت صفاء للقاهرة، وكلها أمل في حياة أفضل، وما إنْ وصل بها القطار، ونزلت سلالم المحطة، حتى تنسّمت عبيرًا مختلفًا، إنه عبير النجاح، إنّ قلبها يشعر بما سوف يحدث بعد ذلك.

وقابلها الأستاذ الجديد في المحطة، واصطحبها بسيارته إلى المكتب الفخم الذي اتسعت عيناها حين رأته، إنه مدهش، ورائع بكل المقاييس، وتساءلت: "يا ترى كم يدفع الموكل للأستاذ نظير أي قضية؟" وأفاقت من سرحالها حين دخل بها حجرة المحامين، بل حجرات المحامين، ليعرّفها عليهم، ويعرّفهم عليها، منهم الشباب، ومنهم الكبار، منهم من استقبلها بابتسامة ودود، ومنهم من رمقها بنظرة حاقدة، أو نظرة تقول لها: إنها مهما كانت لن تكون مثلهم، كما عرّفها ببعض التحريين الذين يعملون لديه، وكأنها وكالة استخبارات خاصة، ودخلت صفاء لترى مكتبها الفخم، ولم تصدق ما ترى، وعجز لسانها عن النطق بأي شيء، ورأت الحجرة التي سوف تسكن فيها، كادت تقبّل يديه أو تنحني له لتقدم شكرها العميق له، واتفق معها على راتب مائتي جنيه شهريًا، هذا غير مكافأة عن كل قضية تتولاها، وتكسبها.

وأثبتت صفاء بكل جهدها أنها عند ثقته فيها، وقادرة على تولي المسئولية الملقاة عليها، لذا فهي لشهر كامل تعمل عملاً

متواصلاً، حتى إنها لم تأخذ إجازة، لم تذهب في نزهة، لم تخرج من باب المكتب، إلا لشراء طعام لها من مطعم قريب، وبالطبع إلى المحكمة، حتى جاءها الأستاذ ليقول لها: إيه يا صفاء؟ كلـه شغل؟ مش عايزة تشوفي أهلك ولا إيه؟

-أنا رهن إشارتك، كل الموضوع إني مش عايزة الـشغل يتعطّل.

-يا ستي أنا راضي. عندك إجازة يومين. يلا خدي شنطتك وسافري.

وعادت صفاء بعد شهر كامل للشارع الذي هربت منـه، واستقبلها والدها بشوق كبير، ولهفة ما بعدها لهفة، وهو يردد: كده يا صفاء؟ شهر يا ضنايا يعدّي من غير ما أشوفك؟

-أعمل إيه يابا؟ شغل جديد ولازم تثبـت نفـسك، وإلا الباقيين ياكلوك!

وفرح بها إخوتها، وبالهدايا التي أحضرتها للأسرة كلها، كما أعطت لوالدها رسوم تركيب التليفون، الذي تقدّمت بطلـب لتركيبه من مدة، وأخيرًا جاء، ولم يكن مع والدها نقود لـه، وذلك حتى يتسنى لها أنْ تحدثهم ويحدثوها بسهولة.

دخلت حجرتها، وكانت الساعة تقارب العاشرة ليلاً، ألقت نفسها فوق سريرها، كم اشتاقت له! واشتاقت أيضًا لصاحب الشباك المغلق! كم كانت تتمنى أنْ تسأل عنه، ولكن واضح أنّه ليس بالبيت، وترددت في الذهاب إليه، وأخـيرًا اسـتجمعت

شتات نفسها، وأخذت علبة الحلوى التي أحضرتها معها خصيصًا لهم، وكانت في انتظاره لتذهب بها، ولكنه تأخر، فاضطرت للذهاب لعائلته، ولكن المفاجأة كانت من نصيبها، حين وجدته هو من يفتح لها الباب وقد ألجمت المفاجأة لسانه أيضا.

قالت: مش هتقول لي: "حمد لله على السلامة، أو حتى اتفضلي".

-اتفضلي.

كانت تتوقع أنْ يضمها إلى صدره ويقول لها: "وحشتيني" كما أوحشها هو، وقابلها أبوه وأمه وإخوته بابتسامة عريضة، بدا وجهه الحزين بينهم كنغمة نشاز، ليس من الضروري وجودها، ولكنه لم يستطع أنْ يتغلب على حزنه.

جلست معه قليلاً، ثم استأذنت للانصراف، شكروها على علبة الحلوى، ذهبت لبيتها، وعلى الفور دخلت حجرتها وهي متألمة من هذا اللقاء البارد بينهما، ولكن ماذا كانت تنتظر منه وهو المتضرر الوحيد من تلك العلاقة الغريبة ومن تلك الفتاة التي لا يهمها سوى نفسها فقط؟!

كانت تجلس وتتطلع إلى شباكها، حين دخل حجرته، ولم يستطع أنْ يمنع نفسه من أنْ يجلس أمامها، وينظر إليها، حاولت الابتسام في وجهه، فقابل ابتسامتها بابتسامة شاحبة، ولكنها تكفي لبداية حديث، أي حديث.

-عامل إيه يا توحة؟

-الحمد لله، وإنتي عاملة إيه؟

-الحمد لله، وحشتني.

-ما أعتقدش.

-هنتخانق تاني؟

-ربنا ما يجيب خناق.

كان يريد أن يعاتبها على كل هذا الغياب، ولكن كرامته أبت عليه أنْ يفعل ذلك، كان يريد أنْ يخبرها: كم كانت حياته مَرارًا طوال الشهر الماضي، وكم كان يتذكرها ليلاً ويبكي فراقها وابتعادها، ولكنه لمْ يستطع أنْ يقول شيئًا، كان يود أن يفهمها أنه هو الآخر قادر على الحياة بدونها مثلها تماما.

-ياه كل ده؟ سرحان في إيه؟

-في الدنيا.

-من إمتى كل كلامك يا دوب على أد السؤال؟ نفسي أسمع صوتك...وحشتني.

-لو كنتي عايزة تسمعيه، كنتي على الأقل اتصلتي بالتليفون في الورشة، وكلمتيني زى ما كنت بتكلمي أبوكي مرة كل أسبوع، لو كنتي عايزة تسمعيه كنت ادتيني نمرة تليفونك هناك وأنا أكلمك.

-والله ما كنت أعرفها قبل ما أروح.

-مش عارف أصدقك، لا، وبقيت خايف لتيجى الأجـــازة الجاية بعد شهر ولا أكتر، وفي إيديكى راجل تانى!

-راجل إيه؟ أنا لو عايزة راجل كنت اتجوزت من أول مـــا اشتغلت، وأنا كنت مجرد سكرتيرة وكان كل يوم بيجـــي لي واحد شكل.

-لا دول ما ينفعوش، دول حاجة ورجّالة مـــصر حاجـــة، مش بعيد بعد ما بقيتي محامية، يبقـــى العـــريس قاضـــي، ولا مستشار، ولا حتى وكيل نيابة!

-وإن قلت لك: إنْ كل دول ما يهمـــونيش، وإني مـــش عايزاهم.

-ليه بقى؟ متقوليش عشان بتحبيني!

-سيب الحب على جنب عشان أنا لسّه قدّامى حاجـــات كتيرة عايزة أحققها.

-ممكن كده أصدق، بس هتعملى إيه في العريس الغنى اللي أمك فرحانة بيه؟

-عريس إيه؟ أنا ما أعرفش حاجة، وبعدين غنى أد إيه يعنى؟ عمره ما هييجى زى منصور بيه اللي فلوسه تملا شـــارعنا ده وتغطيه وإعلانات شركاته مالية التليفزيون وأنا قلت له "لأ".

-لأ.. ليه برضه؟

-منتش قادر تفهمني، أنا مش عايزة الناس تـــشاور عليـــا وتقول: "دي صفاء مرات فلان، ولاّ علان، صـــاحب كـــذا ومالك كذا، لأ، أنا عايزة الناس تقول: دي صفاء اللي عملت كذا وبتعمل كذا، أنا عايزة أكون صاحبة المجد مـــش تابعـــة لصاحب المجد.

-ياما أنا خايف عليكي.

-طالما ما بعملش حاجة غلط اوعى تخاف عليا.

-باقي حاجة عايز أسألك عليها، إيه أخبار وكيل النيابـــة العاشق الولهان؟

-عماد! اتجوز من مدة وحضرت فرحه كمان.

-معقول؟ سلّم بسهولة كده؟

-البني آدم اللي عقله شغال ما يتعـــبش نفـــسه في حاجـــة مستحيلة، ويحاول يكسر الصخر بدماغه، لازم يجرب حظه في حتة تانية.

-صح، عندك حق، وقال في نفسه "ياما أنا خايف يكـــون الدور عليا أنا كمان، وأسلم إنك عمرك ما هتبقى ليا".

-إيه رحت فين؟

-معاكي يا صفصف.

-اللهْ... الله.. والنبي تقولها تاني، من زمان محـــدش دلعـــني كده.

-خليكي ويانا، وإحنا ندلعك على طول.

-متيجى إنت معايا.

-آجي وياكي أعمل إيه؟

-تشتغل معايا وتشوف صفاء بقت فين، آه يا فتحـــي لــو شفت المكتب اللي بشتغل فيه، شكله، ولا زباينه، ناس كنــا بنشوفهم في التلفزيون وبس، حاجة لو قعدت أحلــم طــول عمري إني أشوفها، عمري ماكنت أصدق إنها تتحقق!

-يا سلام.. وأروح أنا فين وسط ده كله؟ وحتى لو وافقت وجيت معاكى المكتب الكبير ده، صاحبه هيرضى يشغل واحد زيي، مايعرفش حاجة عن المهنة من أصله؟ سيبيني يا صفاء أنــا راضى بنصيبي، وقسمتي، ومبسوط من شغلتي.

-براحتك يا فتحي، بس بجد أنا معدتش قادرة أقرّب المسافة اللي بقت بنا بعد ما كنا شيء واحد!

-المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين، سيبها على ربنا.

-عندك حق.. كله على الله.

-إنتي هتمشي إمتى؟

-بكره بالليل.

-تسمحي لي أوصلك لحد هناك.

-مش عايزة أتعبك.

-تعبك راحة يا صفصف.

وفرحت صفاء أنه سيشاركها الطريق، وسوف تحدثه كثيرًا من بلدهم إلى أنْ تصل مقر مكتبها، كما كانـــا يفعـــلان في الطريق إلى الكلية.

وصلا القاهرة وتناولا عشاءهما سويًا، ثم أوصلها للمكتب، ولكم أصيب بالدهشة حين رأى المكتب الفخم الفـــاخر! ولم يصدّق عينيه حين رآه، فلقد ظن أنها كانت تبالغ، ولكنـــها لم تكن تبالغ، بل إنها لم تصف في الواقع الحقيقة، إنها أكـــبر ممـــا قالته، ووجد نفسه يتضاءل شيئًا فشيئًا، وأصيب بخيبـــة أمـــل رهيبة، وشعر أنْ الفارق بينهما صار هوةً سحيقة، ولام نفـــسه على مجيئه إلى هذا المكان، فيا ليته ما جاء، لم يعد بمقدوره بعد الآن أنْ يشعر بكونه أفضل من كل شخص ســـوف تقابلـــه صفاء، لأنه ببساطة بجوارهم لا شيء، ويومًا ما سوف تغريهـــا الظروف وتنتصر عليها.

إنّ سلوى فتحي الوحيدة العمل، فهو يُغـــرق مـــشاكله في دوامة العمل، وإذا أردت أنْ تعرف حالته النفسية، فراقبه وهو يعمل حتى يتسنى لك أن تعرف مدى فرحه أو ألمه، إن كـــان سعيدًا فهو يتعامل بنعومة مع الخشب، وبصبر شديد، أمـــا إذا كان حزينًا فهو يكون عنيفًا مع كل دقة يدقها على الخـــشب، وسريعًا جدًا، ويستغرق ساعات طويلة دون أنْ يشعر، فينجـــز بشكل غريب، ولكن أجمل شيء، أنّه في الحالتين يَخرج مـــن تحت يده تحف، وقطع فنية رغم أنّ أغلب جمهوره من الطبقـــة البسيطة، ولكنه يجعل من قطعة الخشب الرخيصة شيئًا بـــديعًا،

إنّ الخشب (غلا ثمنه أو رخص) فهو أبدًا تحت يـــده، يسأمره، فيطيع، لا عنه يبتعد، أو يدير له ظهره، ومادام قادرًا فهو أبـــدًا سيظل يعمل عليه، ولن يتخلى عنه لأنه بكل بـــساطة ســـيظل مهما كان، طوع أمره.

ورغم حصوله على نمرة تليفون المكتـــب، ومعرفتـــه أنهـــا بمفردها طوال الليل هناك إلا أنّه لم يتصل بها، وكلمـــا غالبتـــه نفسه ليكلمها، عاد من حيثُ أتى، وكأن شيئا يشده للخلف، ولكنها اتصلت به عدة مرات وفي كل مرة يسمع صوتها يكاد يذوب ويوشك أنْ ينهار إلا أنه يرجع ويتماسك ويُذكّر نفسه بما وصلت إليه، وما هو عليه، ونظرتها له، وهو نجار، ولـــيس كما تحب وتشتهي.

واستمرت صفاء في تقدمها وكل يوم يمر تثبـــت جـــدارتها أكثر ، وبعد ثلاثة أشهر من إجازتها الأولى، أخـــذت إجـــازة أخرى وعادت لبلدتها لتطمئن على أهلها الـــذين اســـتحلفوها بكل عزيز وغال حتى تأتي إليهم ليروها، وحـــضرت صـــفاء وعقلها قد تركتهُ هناك، أصبح كل فكرها ينحصر في القـــضايا التي تتولاها وأي شيء غير ذلك لا تعيره انتباهًا.

والتقت بفتحي من خلال الشباك، وتحدثت معـــه كـــثيرًا حديثًا عاديًا جدًا، حتى فوجئت بطفلين تهللا لرؤيته، وتعلقـــا بيديه من الشباك، وأمهما خلفهما تقول: مساء الخير يا فتحي.

-مساء الخير يا أم كريم.

-معلهش. الولاد تعبينك.

-لا تعب، ولا حاجة.. دول زى العسل ربنا يخليهم لك.

واستدارت السيدة لتواجه صفاء، وتسلّم عليها، فسلمت عليها صفاء ببرود شديد، وأخذت السيدة طفليها، وانصرفت.

فنظرت صفاء لفتحي: مبروك يا بابا فتحي.

-فيه إيه يا صفاء دول يُتّما.

-بس ولاد ميادة يا فتحي، ولا نسيت ميادة دي عملت إيه زمان؟ تحب أفكرك؟

-المسامح كريم، وأديكي شوفتي بقت إزاى بعد جوزها!

-آه يا حنين.. متنساش إنها صغيرة، وبكره تتجوز، ما تقلقش عليها كده!

-صفاء، إنتي غيرانة من ميادة؟!

-وما أغيرشي ليه إن شاء الله؟

-بس مش من ميادة.

-كان زمان، قبل ما تسامحها.

-وإنتي يعنى فكرك يوم ما أفكر في أي واحدة أبص لأرملة ومعاها طفلين؟

-محدش عارف حنيتك الزيادة دي هتعمل فيك إيه؟

-متبقيش مجنونة.

-استحمل يا سي فتحي.

-ما أنا طول عمري مستحمل، قالها وقد خرجت مع زفرة طويلة، ثم أردف قائلاً: هتمشي إمتى؟

-بعد بكره، أصلي معنديش جلسات الأسبوع الجاي، يا ما نفسي تشوفني في المحكمة.

-أكيد هيحصل.

-طب إيه رأيك أكلمك في يوم؟ رغم إنك ما كلمتنيش ولا مرة من ساعة ما طلبت نمرتي، المهم تيجي نقضي اليوم سوا وتحضر الجلسة الصبح.

-هشوف وأحاول.

-من غير ما تشوف، ولا تحاول، اوعدني.

-أمرك.

-أيوه كده.

مضى أسبوع قبل أنْ تتصل به، وتحدد يوم لقائهما، وذهب فتحي وهو يرتدى أفضل ما لديه، بل إنه ابتاع طاقمًا أنيقًا يليق بالمكان الذاهب إليه، ويليق بها، وقابلها أسفل مكتبها وذهب معها، وكانت تترافع في قضية احتراق مصنع للملابس عقب تردد إشاعات حول تحفظ النائب العام على أموال صاحبه، وكانت هي محامية صاحب المصنع، كانت القضية على صفحات الجرائد، وكان المعروف أنَّ مكتب الدكتور سيد هو

مَن يتولى الدفاع عن الرجل المتهم بإخفاء حساباته وحرقها، إلا أنّه لم يتردد أنّ صفاء هي من تتولى القضية كلها،

ورأى فتحي بأم عينيه غولاً يكتسح كل من أمامه، وتكسب القضية التي لها أشهر في المحاكم.

خرجت معه من المحكمة وجميع زملائها الحاضرين معها من المكتب يهنؤها، ولكن عينيها كانتا متطلعتين إلى فتحي، الذي دُهش أشد الدهشة وهو يسمعها، ولم يتمالك نفسه فأخذها في حضنه وهو يقول: كنتِ رائعة، مدهشة، أستاذة بحق، لم يهمه الناس من حوله، ولا أي أحد، حتى هي كانت كذلك، وقالت: صحيح يا فتحي عجبتك؟

-مش غريب إنك تتمسكي بمستقبلك بالشكل ده.

أخذته من يده، وجرت تعدو خارج ساحة المحكمة، وقضت معه يومًا يُعد من أجمل أيام حياتها على الإطلاق، وعرف فتحي أنّه لا شيء سوف يُثنيها عما عزمت عليه، أو يمنعها من المضي في طريقها الذي تقطعه بنجاح، وتكون أنانية منه إنْ طلب منها أنْ تتنازل عن هذا المجد، لتعود معه إلى الشارع الضيق، ولأنه يحبها، فقد آثر أن يصمت وأخذ على نفسه وعدًا ألا يكون عقبة في طريقها وليهزم أنانية الحب، ولكن إنْ جاءته يومًا فصدره مفتوح لها، وحضنه دائما ملك لها.

قرر فتحي في تلك الليلة أنْ يمنعها من الحرج حين يأتي يوم وتبتعد عنه للأبد، لذا قرر أنْ يبدأ هو أولاً قبل أنْ يصلا إلى مرحلة الدموع، والآهات، فعذاب ساعة بيد المرء خيرٌ من عذاب ألف ساعة ليس بيديه!

جلس معها في مكان هادئ، وكان الليل قد أمسى عليهما، وامتلأت السماء بالنجوم، وسطع القمر في بهاء ودلال، حتى إنها شعرت به يشاركهما مجلسهما، وبدأ فتحي الحديث فقال وهو يلملم كلماته المبعثرة: إني عارفة أنا أد إيه بحبك.

-طبعا عارفة.

-عشان كده عايزك تسمعيني، وما تقاطعنيش.. اسمعيني بس للآخر.

وصمت قليلا قبل أن يردف قائلاً: يا ما كنت بسمعك وإنتي بتقولي: "مستقبلي وشغلي وحياتي وطموحي" وكنت حاسس إنه نوع من التمرد، أو حتى المبالغة حتى لما اشتغلتي عند اتنين من أكبر المحامين قلت: "برضه صدفة" أما النهارده، وبعد ما شفتك في المحكمة، حسيت إني مش قدام صفاء البنت اللي أنا أعرفها من يوم ما أتولدت، لأ، أنا قدّام إنسانة اتخلقت عشان تبقى كبيرة، كبيرة في كل شيء، وإن المهنة دي إنتي هتضيفي ليها مش هي اللي هتضيف لك، وعشان بحبك يا صفاء أكتر من روحي، ما أقدرش أقف في طريقك، ولا قدام مستقبلك الباهر، وتبقى أنانية مني لو جيت، وقلت لك:

"ارجعي معايا الشارع الضيق واشتغلي في المدينة الصغيرة وابقي مجرد واحدة محامية في صف طويل من المحامين" عارف إنــك هتنجحي وسطهم بسهولة بس هيكون نجاح ضــيق، ومــش هيرضيكي.

-قصدك إيه يا فتحي؟

-سيبيني أكمل.. النهارده بس عرفت إني لا يمكــن أقــدر أطلب منك تضحّي بالمجد ده عشاني، بريق عينيكـــي لحظــة النصر، وفوزك في القضية، كان أقوى من أي شيء، هو نفسه بريق عيني، ونفس إحساسي لما بشتغل على حتــة الخــشب، ويطلع منها تحفة تتباع بالآلاف، رغم إنها أحيانا ممكن تكــون حتة خشب ما تساويش، وساعتها بحس بنشوة مفيش حاجــة في الدنيا بتديلي نفس الإحساس، إحنا الاتنين بنحــب شــغلنا أكتر مننا، عشان كده يا صفاء بقول لك إني مستعد أنزل من مرتبة الحبيب لمرتبة الصديق، اللي هي أقوى مــن أي شــيء، الحب دايما ممكن يتعكر صفوه وممكن يخفت نوره مــع الأيــام وظروف الحياة، لكن الصداقة كل ما يمر العمر، بتزيد قيمتــها وتتوطد أواصرها، أنا هفضل الصديق، والأخ اللــي بيخــاف عليكي، ويحبك، واللي قلبه، وعقله، وكل جوارحــه ملــك إيديكي وقت ما تحبي.

صمت فتحي، لم يعد لديه ما يقوله، ولم يسمع منها كلمة لأنّ دموعها كانت أبلغ من الكلمات. انسابت شلالات وهي

تقول: أنا مش عارفة أقولك إيه؟ أي كلام بعد اللي إنت قلته ملوش معنى، طول عمري بقول: "إنك راحل" حتى وإحنا عيال كنت في نظري راحل، وأمسكت يده، وقربتها من فمها، ولثمتها برفق، وحنو، زلزله، فأمسك بيدها هو الآخر، وكأنه يودعها للمرة الأخيرة، وطبع عليها قبلةً محملة بدمعةٍ حزينة من عينيه تقول وداعًا يا أملي الوحيد.

ومضى فتحي إلى مدينته، وشارعه، وهو معذب حقًا، متألم، ولكن إحساسه بالرضا هوّن عليه أمره، وتخيّل فتحي أن لو كان قد استسلم لعواطفه، وحبه، وتزوجها تحت أي ظرف، وتركها تعمل، فقد كان سيفقد شخصيته، ويكون تابعًا، وقد تخجل منه أمام الآخرين حتى وإن عمل محاميًا مثلها، فسيخجل من نفسه هو، لكونه لا شيء بجوار تلك العظيمة في عملها.

وإذا ضحّت هي، وأتت إليه، وتزوجته حيثُ هو، وحين ينحسر عنها مجدها، ستظل تعايره طوال العمر بما ضَحت به حين يخبو بريق الحب، وتتكاثر أعباء الحياة.

إنّ ما فعله فتحي هو إحياء لهواهما، وتثبيتٌ له في قلبيهما، وهو التضحية الحقة، فالحب الحق هو الذي يستطيع أنْ يهزم أنانيته.

ودخل فتحي منزله، وقابلته أمه بعاصفة من الأسئلة: كنت فين؟ وإيه اللي أخرك؟ كنت مع مين؟ ولم يستطع فتحي الرد، بل دخل حجرته، وأغلقها عليه واستند إلى حائط شباكه،

ووضع رأسه بين ركبتيه، وتبعته أمه وهي تقول: "أنــت مــا بتردش عليا ليه"، حينما وجدته يجلس هكذا، انطلقــت نحــوه وهي تسأله: "مالك يا واد؟ فيك إيه؟ "

لم يرد، فتابعت: وله إيه اللي جرى لك ما تسبنيش كده؟

-إيه يا أمَّه مفيش حاجة، تعبان شوية.

-كنت فين طول النهار؟

-مع أصحابي.

-ما تكدبش عليا، أصحابك سألوا عليك بدل المرة تــلات مرات.

-يوه يا أمَّه هو تحقيق؟

-لا مش تحقيق، بس هو حرام أعرف إنت فين من صــباح ربنا لحد دلوقتي؟! لا كنت في الورشة ولا مع أصحابك.

-والنبي يا أمَّه سبيني دلوقتي.

-مش هسيبك يا فتحي، يبقى كنت معاها، ونكّدت عليك إلهي ينكد عليها بنت سيدة، هي هتطلع عِدلة لمين؟!

-حرام عليكي يا أمَّه ما تظلميهاش.

-ما أظلمهاش؟ واللي إنت فيه ده مش ظلم؟!

-أنا اللي عملت كده في نفسي، وهي أيام والواحد ينسى.

-تنسى مين يا ضنايا؟ بص في المراية، وإنـــت تعـــرف إن عمرك ما هتنسى، إيه اللي حصل قول لي ده أنا أمك؟

-كل اللي حصل إني شفتها يا أمَّه وهي أســتاذة كــبيرة، ولقيت طريقي وطريقها عمرهم ما هيتقابلوا، فقلت لهــا إننــا لازم نفترق، عشان في يوم ما ألاقيش نفسي تــابع ليهــا، ولا متعذب وياها.

-راحل يا ضنايا.. راحل.. أنا خلّفت راحل.

-نفس الكلمة قالتها لي يا أمَّه، قالتها لي وهيّ بتعيط.

سكت، وانسابت دموعه، فأخذته أمه في حضنها علها تبرد نيرانه، ولكن الحزن يولد عملاقًا، لكن ما أبطأه وهو يتراح!

قال لها بصوت متحشرج: ضميني قوي.. أنا تعبان.

قالت الأم وقد أثّر فيها حال ولدها، فــشاركته البكــاء: سلامتك يا عينيا. سلامتك، بكرة يا قلبي تنسى وأجوزك ست ستها.

-مفيش يا أمَّه زى صفاء، ولا هيكــون في يــوم زيهــا، وانهمرت دموعه ثانية.

ولأنه يعرف سلواه فلقد غرق في دوامة العمل بــشدة، ولم يعد هناك غير العمل في حياته، نسي نفسه، وأصدقاءه، وكــل من حوله، وغرق في بحر العمل، وكان كل مــا يــشغله هــو اللحظة التي سوف تعود فيها، كان يعلم أنه ما إن يراها حــتى

تنهار كل السدود التي يحاول بناءها، وسيجد خط دفاعه مستويًا بالأرض.

ولكنه لا يعرف أنها بعد أن تركها باكية حزينة تنعي هواها الذي كان يقيدها، سرعان ما أفاقت من حزنها، وأدركت أنها لم تعد مقيدة، وأنَّ فتحي قد أعفاها من الحرج، وأطلق لها العنان، لقد فك قيدها وحررها من أسر هواه، وقد تكون تحررت نظريًا رغم أنه لمْ يستطع أنْ يَسلبها عقلها أبدًا.

ولأنَّ صفاء -كفتحي تمامًا- تحب عملها بشدة، فقد غرقت فيه دون أنْ تلتفت لأي شيء، حتى زيارة أسرتها، أقسمت ألا تفعل، فهي لن تقدر على النظر إليه مرة أخرى، ويجب أنْ تعفيه، وتعفى نفسها من أي ألم ينتج عن لقائهما.

(١٥)

كانت صفاء مثار إعجاب الكثيرين، وقد أُعجب بها هــذه المرة واحد من المحامين الشبان العاملين معها، شابٌ في الثانيــة والثلاثين من عمره، وسيمٌ، أنيقٌ، مهذبٌ بدرجة كبيرة، حيــي بشدة، من ملامحه وملبسه وطريقة حديثه يتضحَ أنّه من الطبقة الراقية، ولقد أوقعه حظه التعس وهو الجاد الرقيــق في حــب صفاء، عشقها ليس من أول وهلة وإنما بعد فترة من معرفته لها، عام كامل معه وكل يوم يعرفها فيه، يزداد اقترابه منها وتعلّقــه بها، فهو لم يغتر بالوجه، والجسد المثيرين.

وشعرت صفاء بمشاعر زميلها نحوها، ولكنها تعرف أنها لا تستطيع مجاراته رغم أنها اتفقت مع رفيق عمرها على الفــراق، ولكنها بحق لا تقدر على أن تعرف غيره، أو تحب سواه، ولكن هل ستقضي عمرها كله بدون أحد، بدون مخلوق في حياتها؟!! كان هذا السؤال يؤرقها في الآونة الأخيرة رغم أنّ مــستقبلها وحده هو ما يشغلها، ولكن كيف لها أن تجاريه وتفتح قلبها له وهي لا تستطيع أنْ تعده بشيء، فقد لا تستطيع في النهايــة، ليس لأنّ قلبها ملك فتحي، ولكن لسبب آخر وهو أنــه قــد يُعوقها عن مواصلة طريقها بأي شكل من الأشكال فيضطرها إلى قلب الأحداث رأسًا على عقب، وإنهائها بشكل مأســاوي يُخلف وراءه الضحايا.

وعاد سؤال آخر يتردد داخلها، أليس من الممكن أن تتجــه مشاعرها إليه أو إلى غيره ممن يتهافتون عليها ويعرضون هواهم يومًا بعد الآخر؟!

ولأنها لن تتمكن من خداع أحد أبدًا، فهي صــريحة مــع الجميع، قررت أنْ تبدأ من جديد، ومع زميلها هذا، قررت ألا تستجيب بسهولة، ولكن بغير صدود وكأنها تتمنّع، وصــارت ترد مجاملاته وكلماته اللطيفة بلطف أشد وبأسلوب أشعره بأنها مستجيبة له، مما شجعه لأن يدعوها لتناول الغــداء، ولكنــها رفضت وتكررت الدعوة وهي تتعلل بأسباب واهيــة، وبعــد إلحاح وافقت، وذهبت معه لمكان راق جدًا، لم يأتْ ببالهــا أن تدخله يومًا، وبرغم فخامة المكانَ إلا أنها بدأت المقارنة بينــه وبين الحبيب المفتقد، لقد كانت الأماكن التي يرتاداها رديئــة بالمقارنة بهذا المكان، إلا أنَّ إحساسها وقتها ليس كإحــساسها البارد الآن، وسعادتها حينها لمْ تحــسها الآن، وحاولــت أنْ تستمع إليه وأن تدع مقارنتها هذه قليلاً فقال لها: نفسي تحكي لي شوية عن حياتك؟

-حياتي مفيهاش كتير يتحكي، وبعدين ليه ما تحكيش إنت الأول؟

-ماشي أحكي أنا.

سكت قليلاً ثم قال: أنا يا ستي اسمي أيمن كريم الــساعاتي. أبويا رجل أعمال عنده مزارع دواجن وماشية، وأمــي ســت

بيت بتقضي وقتها بين النادي والجمعيات النسائية، تعتبر النموذج العصري للمرأة كما يقولون، لكن أنا حاسس إني مش منهم، صحيح ابنهم لكن حاسس إني غريب وسطهم، عشان كده أخدت طريق مختلف، كان نفسي أتعيّن في النيابة لكن مكنش ليا حظ، وأبويا رفض يشوف لي واسطة عشان يضيّق على الخناق، وأشتغل معاه، واضطريت الجأ لقريب ليا يعرف الدكتور سيد، اتوسط لي عنده، واشتغلت في المكتب، وكنت عارف إن الدكتور سيد متخوف مني جدًا، لكن لما حس بمدى جديتي وحبي لشغلي، اتمسّك بي.

عندي أخ وأخت، أختي آخر العنقود اتجوزت، وسافرت مع جوزها كندا، شغله هناك، وأخويا محاسب بيشتغل مع بابا، ماسك كل حساباته، أدي حكايتي ببساطة.

روت له صفاء مقتطفات من حياتها ولكن لم تتطرق بالحديث إلى فتحي، لم تتحدث عنه مطلقًا حتى حينما سألها عنه، عندما رآه معها في المحكمة، لم ترد عليه، وحاولت تغيير الموضوع، لم تعطه الفرصة ليسأل مرة أخرى، وتعددت لقاءاتهما، وفي أحد اللقاءات وجدت صفاء أنها لا تجلس إلى أيمن أو تتحدث إليه، وإنما أمامها فتحي، وتتحدث إلى فتحي، إنه يتجسّد أمامها فتحررت صفاء من قيودها وتحدثت بطلاقة كما لو أنها في قاعة المحكمة حتى نادته، وقالت اسم (فتحي)، هنا فقط أفاقت لتجد أمامها الواقع، إنه ليس فتحي، وعلمت،

وأدركت لحظتها، أنها ما زالت تبحث عن فتحي، وتريده، وأنه أبدًا لنْ يحل محله مهما حدث.

و لم تعرف بماذا ترد غير أن تقول الحقيقة، وتخبره أنها بحق لمْ تكن تريد استغلاله، هي فقط كانت تريد بداية جديدة، ولكنها لم تقدر عليها.

و لم يستطع أيمن أنْ يتفهم دوافعها، وشعرت صفاء أنها فشلت لأول مرة كمحامية، فدفاعها تلك المرة لم يكن قويًا، لم يقنع القاضي، و لم يبرر جريمتها، لقد كانت مخادعة من وجهة نظر المدعى عليه والقاضي في نفس الوقت.

وعادت صفاء لتغلق على نفسها حياتها وتعود صندوقًا محكم الغلق، وقررت أن تُلقى بمفتاحه في النيل حتى لا يتسنى لها فتحه مرة أخرى.

ولأن ربها يعلم أنها لم يكن في مخيلتها أنْ تخدع أيمن، فلقد أنقذها من مواجهته، أو البقاء في المكان الذي يجمعهما سويا، فهي مشيئة الله، إنه يقدّر الأشياء، ويفعل دائمًا ما هو صواب لكل مخلوقاته وليتهم يوقنون ويعلمون ذلك.

بعد أيام قليلة مما حدث بينها وبين أيمن -الذي كانت تتفادى مواجهته أو لقاءه بشتى الطرق، كانت تحس أن نظرات عينيه تعريها، تجرحها- دعاها الدكتور إلى مكتبه، فدخلت على الفور، استقبلها بوجه بشوش، وعيون لامعة.

رقال: اقعدي عاوز أكلمك في موضوع.

-تحت أمرك.

-الأمر لله وحده، إنتي ليه ما بتفكريش تدرسي دراســات عليا، وتاخدي الماجستير والدكتوراه؟

-مش عارفة.. حاسة إنها مش هتفديني قوى كمحامية.

-طب والقانون الدولي؟

-ياه يا دكتور... دا الحلم الكبير.

-واللي يحقق لك الحلم؟

-إزاي؟!!

-هتسافري فرنسا وترجعي الدكتورة صفاء.

-نعم؟!!! قالتها والدهشة ترتسم على ملامحها.

-زى ما قلت لك كده، وأنا هساعدك في المصاريف... ده غير إنك هتشتغلي عند محامى فرنسي صديقي جدًا.

-أنا مش مصدقة نفسي... ليه حضرتك بتعمل كده؟ أنــا حاسة إنك بتديلي مصباح علاء الدين، وبتقــول لي شـــبيكي لبيكي.

-اعتبريني المصباح يا ستي ويلا جهزي ورق السفر.

-لازم أعرف ليه أنا؟

-لأنك ببساطة الطالب اللي كنت بدوّر عليه عشان أنفــذ وصية أستاذي ورغبته.

عاد بذاكرته للوراء وهو يقول: كنت طالبًا مجتهدًا، تحديت ظروفي المعيشية بالعمل والدراسة، فلم أجعل الفقــر يقهــرني، وكنت الأول بلا منازع، وفي أحد الأيام وجــدت أســتاذي أستاذ القانون الدولي يناديني، ليعرف مين اللي جاب امتياز في مادته، الدرجة التي لم يعطها لأي طالب طوال مدة عملــه في التدريس، واقترب مني الرجل بشكل كبير، وخاصة أنه كــان يعيش بمفرده مع زوجته و لم يكن لديهما أولاد، كان ثريًا جدًا وساعدني كثيرًا وكأني ابنه، وفتح لي بيته، ومكتبته، وحياتــه، وعُينت معيدًا، وحصلت على الماجستير تحت إشرافه، وأرسلتني الجامعة للخارج للحصول على الدكتوراه من فرنــسا، كــل مصروفاتي هناك كانت على حسابه، خاصة أن مرتب البعثــة كان صغيرًا جدًا، وعدت لأجد مكــاني في مكتبــه مــا زال موجودًا، وأجدني مدرسًا زميلاً له، ولكني أبدًا لم أكن لأرفــع عيني في عينيه أو أنظر مباشرة إليهما، دائمًا ما كنــت أشــعر بفضله يطوقني، وأنه أكبر من أنْ أكون متطلعًا إليــه مباشــرة هكذا، وحين تُوفي وجدته قد كتب لي مكتبه باسمي، وظللــت أعمل فيه مدة طويلة، إلى أنْ أصبح العقــار آيــلاً للــسقوط، فاضطررت لتركه وكنت آخر واحد تركه، كانت وصــيته لي إن وجدت طالبًا يشبهني أنْ أقف إلى جــواره، ولا أتــردد في مساعدته يوما مهما حدث، وكنت أنت هذا الطالب.

-أنا مش عارفة أقول إيه يا أستاذي؟ أنــا ملــك يمينــك، وتساقطت دموع الفرح من عينيها.

فربت الأستاذ كتفها في حنو الأب وقال لها: يلا، اجهـزي بسرعة، الوقت ضيق.

وعرفت صفاء أنْ الدنيا لم تكن تبتسم فقط، وإنما صـارت تضحك وتقهقه ملء شدقيها، فلقد كان الأستاذ طيلـة العـام الماضي يُعدها لهذا المستقبل، وتلك المفاجأة، لقد أصرَّ أنْ تتعلم الفرنسية، وكانت تجهل أسبابه، وعندما أتقنتها تمامًا، كان قـد أجرى ترتيباته لسفرها، وإلحاقها بـأعرق جامعـات بـاريس (السوربون).

وسريعًا انتهت من تجهيز أوراق السفر، وكالعـادة تكفّـل الأستاذ بكل المصاريف حتى تكاليف جواز السفر، وبقى شيء واحد، بل كان أهم وأصعب شيء يجب عليها فعلـه، وهـو الوداع، وداع الأهل، والحبيب الذي تقاطعه ويقاطعها، ولكنه مازال الحبيب.

وعادت لبلدها قبل موعد السفر بيومين، لم يكن أحد مـن أهلها على علم بتلك السفرية، عادت ليلاً حتى لا يـشعر بهـا أحد، واستقبلها أبوها وأمها بكل ترحاب، وهلل إخوتها ممـا حملته لهم جميعًا، وجلست تفاتح أباها وأمها في مسألة سفرها، لا لتأخذ رأيهم، بل لتبلغهم بموعد الطائرة، ولْم يكـن أبوهـا ليمانع أبدًا فهو لم يكن يتصور أنْ تصل ابنته إلى كل هذا، إنها تكبر، وتكبر بسرعة فائقة، كان فرحًا فخورًا بها، ولكنه خائف خوف الأب على فلذة كبده من الغربة، والاغتـراب في بلـد

بعيد، كل ما فيه غريب، إلا أنها ضمأنته بكلمات لم تطمئن لها مشاعر الأب داخله، وبعد حديث طويل دخلت حجرتها، كم اشتاقت لسريرها الذي ارتمت عليه بشوق واستقبلته بلهفة وظلت تتقلب عليه، وكأنها تذوب فيه، وبعين مختلسة رفعت رأسها، وفتحت عينيها ببطء في خلسة لتراه، لم يكن بالحجرة فواربت الشباك لتجلس خلفه تنتظره، ورأته وهو قادم كان يسير بتؤدة على غير عادته، دخل البيت، وغاب داخله وأخيرًا فتح نور حجرته، شاهدته وهو يبدل ملابسه، كان مطمئنًا أنّ لا أحد أمامه في شباك الحجرة المقابلة له، لم يكن يعلم أنها تقبع خلف خصاص النافذة تنظر إليه. جلس على السرير ولم يتطلع نحو الشباك، وقالت في نفسها: "ليته يفعل" حتى يتسنى لها رؤيته أكبر وقت ممكن وانتظرت طويلاً حتى جلس على إفريز النافذة العريض من الداخل، يتطلع للسماء، وكأنه يدعو الله ويرجوه ليحقق له شيئًا يأمله، كم كانت عيناه ذابلتين. تلك العينان اللتان كانتا تمتلئان بالحيوية، وبريقهما لم يكن له مثيل أبدًا!

ظلت في جلستها حتى استلقى هو على سريره، وغلبها النوم فنامت، وصحت في وقت متأخر. كانت صلاة الجمعة على وشك الانتهاء حين استيقظت. كانت تعلم أنه يأتي بعد الصلاة بساعة، حيث يأخذه الحديث دائمًا مع أصدقائه. ولم تفطر وانتظرت أباها لتتناول غداءها معه، ومع الأسرة كلها، وأكل الأب مسرعًا ليعود للورشة فقالت له: مش النهارده أجازة؟

-عندنا شغل كثير قوي. مش ملاحقـين.. ولازم يتـسلّم لأصحابه.

أيقنت صفاء أن فتحي في الورشة، كان عليها انتظاره حتى يعود، لابد أنْ تودعه، وانتظرت حتى السابعة حين أتى ودخل منزله، فتبعته إلى بيته بعد دخوله، فتحت لها أمه، واسـتقبلتها بوجه متجهم، لم تسلّم عليها كعادتها، فقالت صـفاء: سـلامٌ عليكُم.

-وعليكم السلام.. اتفضلي، قالتها كمن تقول لها: "ارحلي لا نريدك هنا".

-فتحي فين يا خالتي؟

-عايزة منه إيه؟ ما تسيبيه في حاله بقى!

سارع أبو فتحي يقول: إيه يا وليّة الكلام اللي بتقوليه ده؟ خشي يا بنتي اتفضلي.

وهنا قالت صفاء: ليكي حق يا خالتي... بـس النـهارده بالذات لازم أشوفه، يمكن ما تتقابلش الوشوش تاني.

قال أبو فتحي بتعجب: يعني إيه يا صفاء؟

-أصلي مسافرة يا عمي.

هنا خرج فتحي، لقد كان يستمع إلى الحديث من خلـف الباب، منذ أنْ دخلت البيت، قال:على فين يا صفاء؟

-فرنسا.

-الماجستير والدكتوراه؟

أومأت برأسها تؤيد كلامه فقال: هتسافري إمتى؟

-كمان ساعتين.. الطيارة ميعادها الساعة أربعة الصبح.

-هاجي معاكي.

-بلاش أرجوك.

-لازم آجي.

-هفوت عليك وأنا ماشية.

سلّمت على الجميع، واتجهت لمترلها، لتجلس مع أبيها، وأمها، رفضت أنْ يأتي معها أي أحد منهم بحجة ألا داعي لتعبهم، واطمأن الأب لمرافقة فتحي لها.

وفي الطريق كانا صامتين، لمْ يتبادلا الحديث، لم يَكن هناك ما يُقال، وصل معها إلى المكتب حتى أعدت حاجياها، ثم توجه معها ومع الأستاذ يصحبهم أيمن للمطار، دخلت صالة المطار لأول مرة في حياها، دخلتها لتغادر البلاد وهي لا تعلم متى سيحين موعد العودة.

وجاءت اللحظة الحاسمة، لحظة الوداع سلّمت على أيمن، احتضنها أستاذها وقبّل جبينها، وبقى الأعز والأصعب على النفس فراقه.

ما إنْ وضعت كفها بين يديه لتُسلم عليه حتى ارتمت في حضنه، اعتصرها واعتصرته، وتعانقت دموعهما بغير حديث،

لم تكن تريد تركه مطلقًا، وأخيرًا تركته لتسلّم جواز سـفرها للضابط المختص، ولكنها ما إنْ خطت خطوتين حتى عـادت لحضنه مرة أخرى وهي تقول: سامحني.

-إنتي معملتيش حاجة أسامحك عليها............. إنـتي عمري.

انطلقت صفاء، و لمْ تستطع النظر خلفها، فهي تعلم أنها لو نظرت إليه فسوف تعود، إنّ فراقه داخل البلد أهون بكثير من فراقه في بلد آخر، وقارة أخرى، إنها في بلدها، قد تـرى لـه أشباهًا وسط الناس، قد ترى وجهه في كل رجل يحمل سُمرة وجهه، أما في فرنسا فإن الأشكال تختلف، والوجـوه المحمـرة البيضاء ليس من بينها وجه حبيبها، إن حميمية المكان كانـت تشعرها بوجوده أما هذا الاغتراب فهو يبعده كل البعد.

و لم ينتظر فتحي إقلاع الطائرة، بل انطلق يعـدو خـارج المطار بكل جهده في وسط دهشة أسـتاذه وأسـتاذها، إنـه يتذكره، فكثيرًا ما رآهما، لكنها يوما لم تذكره له، لم يعـرف عنه شيئًا، و لم يسألها، وحين سأل كانت قد رحلت.

وأخذه أيمن، وروى له حكايتها معه، ومع فتحي، روى كل شيء طوال طريق عودتهما، وتعجب الأسـتاذ مـن تـصرف صفاء، فكيف لها أنْ تضحى بكل هذا الحب من أجـل مجـد يصعب الحفاظ عليه؟!! كيف لها أن تترك حبًا كهذا في زمـن ندر فيه الحب والمحبون؟!! إن أي مجد مهما كـان لا يـساوى

دموعها المنهمرة وهى تعانقه محتضنة دموعه، بـــل لا يـــساوى العذاب الذي سوف يعانيه كل منهما، إن الشوق نار، والنـــار تشوّه كل جميل وتمحو كل أثر، ولا يبقى سوى الأطلال.

قال تلك الكلمات لأيمن فقال له الشاب: هذا يا دكتـــور لأنك من الزمن الجميل، زمن العواطف والحب والصداقة، أما الآن فلا شيء من هذا، لم يعد هناك سوى المصلحة والطموح والرغبة، ولم تعد هناك امرأة تقنع بكونها زوجة وأمًا، بل هـــي تطلب أكثر من هذا ألف مرة وأنى لأجزم أن بداخل كل امرأة صفاء أخرى تريد التمرد على حياتها، تريد نفسها دون إفساح مجال للآخرين في دنياها!

-لا تلق باللوم على الزمن، فنحن نلوم الزمن، والعيب فينا كما قال الشاعر، نحن الذين فقدنا القدرة على الحب، أصـــابنا السعار، فصرنا ننبح خلف غرائزنا ورغباتنا، فساءت الحياة من حولنا.

-تفتكر يا دكتور إنها هترجع؟

-أكيد هترجع بس مش دلوقتي خالص.

-إمتى يعنى؟

-لما تستكفى يا أيمن.. لما تشبع صفاء اللي جواها.

-وإنْ ما شبعتش؟

-كل ماعون يأتي له يوم ويمتلئ. ويحتاج لأنْ يُخلى من محتواه حتى يمتلئ في مكان آخر، وهذا ما سوف تفعله، لذا فهي ستعود حتمًا.

خرج فتحي من المطار وهو يشعر بأن هناك شيئًا قد اقتُلع بشدة من داخله، وخلّف وراءه جرحًا داميًا وعزًا آلمه، كما لو كان شجرة اجتثت من فوق الأرض بخشونة، مخلفة وراءها بعضًا من جذورها في الأرض التي خرجت منها، هكذا رحلت صفاء تاركة جذورها داخله مقطوعة تمزقه.

وصل فتحي منزله، ولم يبرح حجرته، حتى عمله لم يذهب إليه، رغم كثرته، لقد طمأن الجميع عليها. ودخل حجرته، أخرج كل شيء يخصها ويخصه، كل صورة لهما، كل هدية منها، وأخرج من عقله وقلبه كل ذكرياته معها.

كل صورة لها مناسبة، تاريخهما كله في تلك الصور. منذ أن كانا طفلين يلهوان سويا، وكانت هي بالضفائر ذات الشرائط الحمراء دائما، لقد كانت تحب ضفائرها بالشرائط الحمراء دون أي لون آخر، كان يعلم كم كانت تهوى شعرها هذا وتتفنن في تصفيفه.

وتلك صورهما في الأعياد حين كانا يأخذان العيدية ويعدوان جهة أستوديو التصوير، ليلتقط لهما المصور صورة بملابس العيد الجديدة. فهي مرة في العام التي يحصلان فيها على ملابس جديدة.

الكثير من الصور تروى حياتهما معا، لقد رحلت، وتركت له الذكرى نبعًا يَنهل منه كلما كثرت أوجاع الفراق وعبث الشوق بعقله.

لقد مضت، وتركت العين تبكى، فإذا بالعين تجف، ويظل القلب يبكى بكاءً محمومًا، ينعى هواه الذي ذهب في أوج عزه ومجده، ينعى الظروف التي حالت دون أنْ يبقى المحِب بجوار حبيبه.

أما هي فطوال الطريق وهى تمسك بصورته، تتأملها ويطفر الدمع من عينيها، دون كلل، ساعات السفر تلك كانت أصعب وقت مر عليها، حاولت أنْ تتماسك، لكن دون جدوى، وظلت تحاول إلى أنْ وجدت مضيفة الطائرة تهنئهم بسلامة الوصول.

(١٦)

نزلت صفاء أرض المطار وبعد أنْ أنهت إجراءات الوصـــول سمعت اسمها يتردد عبر مكبرات الصوت عاليًا، كـــان صـــديق أستاذها بانتظارها، قابلها الرجل بحفاوة، وذهب بها إلى المكان الذي استأجره لسكنها، كانت حجرة صـــغيرة بهـــا ســـرير، ودولاب صغير، ومكان للمطبخ، وحمام فقط، ولكنها أنيقـــة جدًا، وجميلة سعدت بها كثيرًا.

قال لها الأستاذ الجديد والذي يدعى جوزيسف: ســـأدعك ترتاحين الآن، وسأرسل لك مـــن يـــصطحبك للمكتـــب في السابعة مساء لتعرفيه.

-أشكرك جزيل الشكر..

لم تكن بحاجة لمترجم، فهي تتكلم معه كما لـــو كانـــت فرنسية، رغم اللكنة العربية التي تتكلم بها، ولكن ليست تلـــك المشكلة المهم أنها تفهم ما يقول، ويفهم هو ما تنطق به.

نامت صفاء نومًا عميقًا بسبب التعب والإرهاق من مـــشقة السفر، وفي المساء مرت بها سكرتيرة المكتب، وذهبت بهـــا إلى هناك، وعرفتها كيف تستقل المواصلات إليه، ولم يكن بعيـــد فهو على مسافة عشر دقائق بالسيارة، كانت مشكلة صفاء أنها سوف تتعلم من جديد بعد أنْ كانت محامية متمرسة يُشار إليها بالبنان، ولكن صفاء المثابرة أقنعت نفسها أنَّ فترة تعلمها لـــن تطول، ويكفي أنها أتت لتلك البلد بجـــرد محاميـــة، وســـتعود

الدكتورة صفاء، إنه المجد الذي حلمت به، لذا يجب أنْ تتعلم وتتعب قليلاً.

وبدأ المشوار، لقد عرفت طريق الجامعة وعلمت مواعيد المحاضرات، وانتظمت في العمل بالمكتب بعد المحاضرات وفى أيام إجازتها من الجامعة تعمل بدوام كامل كما كانت في مكتب الأستاذ سعيد في أثناء دراستها.

اختلاف المكان والناس كان حائلاً بينها وبين التعرف على الآخرين، كانت تخشاهم، فالعادات والتقاليد المختلفة كانت تؤرقها، وما كانت تسمعه عن هؤلاء الناس، كان يخيفها، فخشيت أنْ تتورط، ظلت فترة منطوية، وحيدة لا علاقات لها.

وبعد شهر من انتظامها في الدراسة كانت تجلس منصتة للأستاذ الذي يحاضرهم حتى وجدت أحد زملائها يطلب منها بأدب أنْ يأخذ كراسها لينقل بعض ما فاته، فسمحت له، وبعد انتهاء المحاضرة شكرها الشاب بشدة، وعرّفها بنفسه.

-اسمي ليونيل بلزاك، وإنتِ؟

-صفاء محمود.

-من أي بلد؟

-مصر.

-رائع. لقد زرتها مرة من سنتين.

-بجد؟

-نعم واستمتعت هناك بدرجة كبيرة.

-إنت من فرنسا.

-أيوه، أبا عن جد.

-لقبك بلزاك إنت......؟

قاطعها ضاحكًا: لست قريب الأديب الكبير بلزاك، مجـــرد تشابه أسماء، وصمت برهة ثم أردف: مـــن أول مـــا بـــدأت الدراسة والجميع تعارف، وتصادق إلا إنتي ليه؟

-أبدًا. بس أصلي مش بتعود على الناس بسرعة.

-بتخافي منهم؟

-بالعكس، بس يمكن عشان دي أول مرة أخرج برّه مصر، وأشوف ناس غريبة عني، خفت شوية.

-على العموم اعتبريني صديقًا من الآن، وأي شـــيء تحـــبي تعرفيه، أو تفهميه، أو أي مكان تحبي تزوريه في فرنسا أنا تحت أمرك.

-متشكرة ليونيل.

-لا إحنا بقينا أصدقاء وجميع أصدقائي ينادونني ليو.

-شكرا ليو.

-العفو يا صوفي.

-صفاء، وليست صوفي.

-صعب عليا نطقه.

-خلاص صوفي.. صوفي.. مش هنفرق.

وضحكا بشدة، وقضيا اليوم سويًا، وتناولا غداءهما سويا قبل أن يذهب كل منهما إلى عمله.

إنَّ الحياة في فرنسا سريعة بشكل مذهل، وتذكرت صفاء كمْ كان الكبار في مصر يلومون جيل الشباب على إيقاع حياتهم السريع والذي سرق منهم متعة الحياة، ولكن حين تقارن السرعة في مصر والسرعة في دول أوربا فهي أشبه بالمقارنة بين سرعة السيارة وسرعة الصاروخ، فالحياة هناك إيقاعها يعدو بل يقفز بشدة، ومن يتوقف برهة تسحقه عجلاتها بلا رحمة، الجميع في حالة عمل دءوب، الدارس يدرس بجد، والعامل يعمل بجد، الجميع في حالة تأهب لا وقت للهو أو اللعب بأي حال من الأحوال.

وكعادتها دائما فهي تكسب ود وثقة الجميع، وفى الوقت القصير الذي قضته في فرنسا استطاعت أنْ تُجبر الجميع على احترامها والثقة بها بعد أنْ شهدوا دقتها في عملها، وأسلوبها المنظم في التفكير.

وفى المساء كانت تستغل الوقت في المذاكرة حيثُ إنَّ هناك متابعة كل فترة للتحصيل كما لو كانوا طلبة في مدرسة.

لمْ يكن هناك ما يؤرقها سوى فراق الأحبة، والأهل فكم أوحشها أبوها الذي هو أكسير الحياة بالنسبة لها، وشجارها

الدائم مع أمها وإخوتها ومضايقاتهم لها، واشتاقت أكثر، وأكثر، وأكثر، للحبيب الذي أعطاها كل شـــيء، وهبـــها إحـــساس الحب، والعطف، والحنان، والحرية، واختار البعد لكي تحقق ما تصبو إليه، إنه لا يفارقها لحظة، إلا أنها تفتقده جسدًا حيًا، كم قضت من ليالٍ تُمسك صوره وتبكي، وكم من مرة أمـــسكت سماعة الهاتف لتطلبه ثم تعود أدراجها ثانيـــة دون أنْ تطلـــب الرقم، وكم من مرة أوشكت أن تسأل أباها عليه، وهي تهاتفه ثم يعود لسانها إلى لجامه مسرعًا.

خشيت أنْ تعرف عنه شيئًا يؤرق مضجعها، فتهرع إليـــه تاركة كل شيء، خافت أن تسمع صوته، فتنهار كل قواهـــا وتفقد صبرها وتعود إليه، هي تعلم أنها أقوى من أنْ تنـــهار أو تفعل شيئًا من هذا، ولكنها كانت تخاف من ضعفها يومًا لـــذا فلقد آثرت الوقاية التي هي خير من العلاج.

وكانت أسوأ أيامها هي نهاية الأسبوع، يوم الإجازة فهـــي بلا عمل وبالطبع لا تذاكر طيلـــة الوقـــت، لـــذا فالـــذكرى والأشواق يعبثان بها بدرجة كبيرة فكانـــت تخـــرج لتمـــشي، وتمشي، دون جدوى، زارت بعض معالم بـــاريس الـــسياحية ولكن نزهة المرء بمفردة ليست كما لو كانت مع أحد محبيـــه، فكانت تملّ سريعًا، وتعود لحجرتها، إلى أنْ أتى يـــوم وســـألها ليونيل كيف قضت إجازاتها؟ فأخبرته أنها قضتها في حجرتها لم تبرحها، فصعق الفتى دهشة وهو يقول: معقول حد يبقـــى في فرنسا ويقضى أجازته في البيت؟

-يعني هعامل إيه وأروح فين؟

-أنا ها أقول لك تعملي إيه، وتروحي فين بس استني للأجازة الجاية.

في صباح يوم السبت، كان ليو تحت باب العمارة التي تسكن بها منتظرًا إياها حتى تنزل له، وطالعته بوجهها البشوش فأخذها في سيارته وانطلق بها إلى (بوردو) مسقط رأسه، وفي الطريق الطويل من باريس إليها استمتعت صفاء بالمزارع والجمال الطبيعي في فرنسا، ووصلت إلى هناك، وتعرفت على عائلة ليو التي تعمل بكاملها في زراعات العنب، قضت يومين من أجمل الأيام مع عائلة قريبة الشبه بعائلات مصر في ارتباطها وتوادها وعادت مساء الأحد وهي منتشية سعيدة، وقد وعدها ليو بأنْ يجعلها ترى أجمل مدن فرنسا فهو عاشق لبلاده، ومغرم بالسفر والترحال.

لو تأملت ليونيل تجد نفسك أمام شاب مليء بالحيوية، والنشاط في أواخر العشرينيات من عمره، ذي بشرة بيضاء وشعر أسود يشوبه اللون البني، ليس بأشقر، عيونه بنية فاتحة اللون، بديعة، ذات نظرة هادئة طموح، ولكنها ليست همة، لمْ يكن مسيحيًا متدينًا، وكان عصبيًا قليلاً، وسهل استفزازه، وغير هذا فهو شابٌ طيب على أيةِ حال.

كان له مكتبٌ صغيرٌ يعمل فيه بمفرده بعد سنوات قضاها في مكاتب عدة، عرض على صفاء العمل معه، ولكنها رفضت

بحجة أنها تسعى للتعلم من أستاذها الكبير الذي تعمل لديـــه، وتنفيذًا لأوامر من يصرف وينفق على رحلتها تلك.

وصار ليو قريبًا جدًا من صفاء، فلم يعـــد يمـــر يـــوم دون لقائهما،وحاول أنْ يعرف شيئًا عن حياتها السابقة، فلم يعرف إلا ما أرادت هي أنْ يعرفه، في حين روى لها كل شيء عـــن حياته السابقة منذ ولادته، وحتى يوم عرفها وحكى لهـــا عـــن صديقاته، وقصص الحب الفاشلة التي مر بها، حتى أول علاقـــة جنسية قام بها، ورغم خجلها وهو يروي لها، إلا أنها استمعت له جيدًا، ولكنها تذكرت فتحي هي لم تدخل داخله لتعلم هل كان يفكر بها على هذا النحو أم لا، ولكنها تعلم أنها لم تفكر في تلك الناحية مطلقًا، كان يكفيها أن تكون معـــه، تحدّثـــه ويحدثها، كان هذا يُسعدها وأكثر ما تمنت هي قُبلـــة كـــالتي كانت تراها في الأفلام، ولكنها أبدًا لمْ تحصل عليها، و لمْ تكن لتترك نفسها لتحصل عليها، لقد عنى الحـــب لهـــا الاقتـــراب والامتزاج الحسي، والعاطفي، وليس الجسدي، هكذا أحبّـــت، وظنت أنّ فتحي يحب على تلك الشاكلة، فهو لم يُلّمح لها يومًا بهذا الأمر، كان يخشى عليها من الهواء أو أي شـــيء يَجـــرح كرامتها وكبرياءها، أي شيء يمس سمعتها، هذا هـــو الحـــب وليس السعي المستميت وراء الجسد بل والحـــديث عنـــه دون خجل! ولكنه صدام الثقافات واختلاف التقاليد والأديـــان، لا ليس للدين شأن، فمسيحيو مصر كمسلميها في هذا الـــشأن، ولكنها تقاليد الشعوب هي التي تحكمها.

وفي صباح أحد الأيام، جلست صفاء مع ليو في مقهى قريب من الجامعة يستعدان فيها لمناقشات المحاضرة القادمة، فالتعليم هناك قائم على البحث، والنقاش واستعراض الرأي والرأي الآخر، بعيدًا عن التلقين والحفظ والحقائق الجامدة، كانا منهمكين في المناقشة حين وجدا شابةً جميلة رائعة الحسن تقف على رأسيهما، فنظرت لها صفاء بتعجب وكأنها تسألها: ماذا تريدين؟ ولكنها لْم تنطق لأنّ ليو نطق: چينا، عاملة إيه؟

قبّلته الفتاة وهي تقول: اعتقدت إنك هاجرت.

دهش ليو من كلامها وقال: هاجرت؟!! هروح فين يا چينا؟ ازدادت حدة الفتاة، وظهر غضبها: يبقى ليه ما بتردش على تليفوناتي، وكل ما أروح لك لا أجدك في شقتك، أكتر من شهر مش عارفة أشوفك، إيه؟ خلاص چينا راحت عليها.

-لا چينا أنا..........

وظهر على ليو أنه لا يستطيع أن يجد ردًا مناسبًا، وبدا عليه الإحراج الشديد، وما زاد إحراجه أنّ الفتاة قالت له في حدة: مش جديد عليك ليو، أنا عارفة إنهم يومين وهترجع، ولكن المرة دي مش هتلاقيني في انتظارك أبدًا.

وانطلقت الفتاة بسيارتها في سرعة مذهلة، ولكن صفاء لم تعلّق على ما حدث، وكأنّ شيئًا لم يحدث، بينما صمت ليو فترة قصيرة ثم قال: لقد أنهيت علاقتي بها، ولكنها ما زالت تُصر على وجود هذه العلاقة.

-مفيش داعي إنك توضح لي شيء ما يهمنيش.

أسكتته كلماتها، فوضع رأسه في كتابه حتى حـان موعـد المحاضرة، هي بالفعل لم يكن يُهمها علاقات ليو على الإطلاق، فهي لم تفكر به سوى كصديق، وليس بحاجة أن يشرح لها، ما شغلها هو كلمات الفتاة بأن ليو متعدد العلاقات، وأن فتاتـه هذه الأيام سيتركها، ويعود لها من جديد، إن ليو لا يتركها إلا سويعات قليلة هي ما يقضيها في مكتبه، وتقضيها في عملـها، وباقي اليوم، هما معًا، حتى أنها تبيت في مكتبه كـثيرًا حـين يأخذهما الوقت وهما يستذكران، إذن من ستكون هذه الفتـاة سواها؟! يعني هذا أن من يحبها ليو تلك المرة هي صفاء.

وأخذت صفاء تسأل نفسها: كيف هذا؟!! إن بيننا ألـف حاجز وحاجز، لا، لابد أنها فتاة أخرى، ونفضت عن رأسـها الفكرة وحاولت نسيان الأمر.

وبعد هذا الحادث بيومين، حضر إلى باريس أستاذها دكتور سيد في إجازة اقتنصها من وقته المزدحم، ليرتاح هو وزوجتـه من عناء العمل، وانتهزها فرصة ليزروها ويطمئن عليها.

انشغلت صفاء معه كثيرًا وأطلعته على بحثهـا ودراسـتها وحكت له الكثير مما عرفته وشـاهدته، قـضت أسـبوعًا إلى جواره،أنساها موضوع ليو، بل إنها لم تكن تستطيع مقابلة ليو، وإنْ كان قد رآها الأستاذ معه مرات قليلة كانت كافية لـيعلم

أنّ هناك شيئًا داخل الفتى تجاهها لذا قال لها: ماتخليش الحيـاة تاخدك وتعطلك عن تحقيق حلمك يا دكتورة صفاء.

-مفيش حاجة تقدر تأخرني، أنا ضحيت كتير عشان أحقق اللي أنا عوزاه، مش هخلي أي حاجة تقف عقبة في طريقي.

-أتمنى ذلك، وود في نفسه لو يسألها: "وماذا عمن تركتهم في مصر" ولكنه تراجع.

-ما تقلقش يا أستاذي، أنا عارفة نفسي كويس.

-وده اللي مطمني شوية.

ورحل الأستاذ وعادت حياتها لسابق عهدها، تقضي الوقت بين عملها ومحاضراتها وصديقها الذي يقترب منها كل يوم.

لقد صارت لديه شيئًا عظيمًا، ينام وهو يحلم بها، ويـصحو ليراها أمامه، هي طعامه وشرابه وضحكه وبكاؤه، لقد كـان معها ويشعر بالشوق إليها، واكتشف ليو أنها هي حبـه، وأنّ مشاعره تجاهها لم يشعر بها من قبل، وكان يعرف ويـوقن أنّ هذا ضربٌ من الجنون، ولكن إحساسه أقوى من أنْ يكتمه أو ينساه، كان لابد له أنْ يصارحها بمكنون قلبه، فهـي تعاملـه معاملة تثير جنونه بينما هو يذوب عشقًا فيها.

يبدو أن هذا حال كل عاشقيها، ففي فرنسا هو، وفي مصر حبها الكبير، وعاشقها المتيم فتحي الـذي أصـبحت حياتـه

جحيمًا بدونها، فنيران قلبه لا تنطفئ، ولا تجد سبيلاً للانطفاء، فهو في حالة شوق دائم لها، كم يتوق لسماع اسمه يخرج عبر شفتيها، كم هي رائعة لمسة يديها، عيناها المشعتان بالمرح والحب، نظراتها دائما كانت كفيلة بجعله طيرًا يعانق السحاب، كان معها ملكًا حتى وإنْ لمْ يكن بجيبه جنيه واحد، كانت له البلسم الشافي، كم هو مرير فراقها! وكم هي مستحيلة الحياة بدونها! لذا فلقد صار فتحي الميت الحي، لمْ يَعد فتحي الباسم المُقبل على الحياة، أصبح آلة تأكل لتحيا وتعمل فقط، لم يعد يقابل أصحابه، أو يود أحدًا من أحبائه وجيرانه، لم يَعد هناك سوى العمل، وإن لم يجد ما يعمله، فهو يعود لمنزله ويجلس أمام التلفزيون، أو في حجرته، يجتر ذكرياته وحيدًا، أمه الصدر الحنون وبلسم جراحه فهي التي يدفن في صدرها رأسه وفي حضنها يلقي بحموله علها تمتصها فيخف بعض وجعه.

هل هذا قدر كل عاشقيك يا صفاء؟ لماذا العذاب فقط هو نصيبهم والانهيار مصير أحلامهم؟

من قبل فتحي، ثم عماد، وأيمن الذي لا ينساها مطلقًا، بل إنه فشل حتى في محاولته التعرف على غيرها، وأخيرًا ليو، يا ترى من سينضم لقائمة المعذبين؟!!!

كان على ليو أنْ يتصرف سريعًا، له معها عام وبضعة أشهر، صارت لديه كل شيء، زار معها كل مكان في فرنسا.

حتى (كان) في أثناء مهرجانها الشهير، شـــاركها لحظـــات سعادته، وسعادتها، كان لابد أن يفاتحها بأمر هواه، وجب عليه انتقاء اللحظة المناسبة، فكّر كثيرًا، ثم حدد الموعد في عطلة نهاية الأسبوع، ولكن في أي مكان؟

قابلها بعد ذلك وقال لها: إيه رأيك في أجازة في روما؟

-روما؟ إزاي؟

-هنركب القطار، هنكون هناك.

-مجنون.

-عارف، جهزي نفسك.

وهناك جلس أمامها، وضع عينيه في عينيها، نظر إليها نظرة عرفتها على الفور، فقد سبق ورأتها من قبل، وكم خشيت كل كلمة سينطق بها بعد هذه النظرة!

-فيه موضوع مهم عايز أكلّمك فيه.

-خير يا ترى؟

-تتجوزيني؟

اتسعت عيناها دهشة، وفغرت فاها، و لم تنطق بكلمة.

فقال: إنني أكيد حسيتي بحبي ليكي، عشان كـــده بطلـــب منك تتجوزيني، لأنك مش هينفع تكوني معايا من غير جواز.

مازالت صامتة، تحاول استجماع شتات نفسها، بينما هــو يحاول دفعها للإجابة، فاقترب أكثر منها، وأمسك بيديها، هنا فقط شعرت بما حولها، فانتزعت يديها من بين يديه وقالـــت: إزاى يا ليو؟ مينفعش.

-يعني إيه ما ينفعش؟

-فيه عقبات كثيرة، وفروق كثيرة.

-أنا مش شايف أي عقبة.

-إزاى؟ الدين؟ لا يجوز للمسلمة الزواج بغير المسلم.

-ممكن أغيّر الدين وأعلن إسلامي.

-تغيّر دينك بكل سهولة كده عشان أي واحدة تعوزها؟

-ما تصعبيش الموقف أنا بحبك جدًا.

-وأنا لما أتجوّز، لازم أتجوز مسلم، يحفظ دينــه، ويــؤدى فروضه، وأربي أولادي على هذا الدين، يتعلمونه، ويؤمنون به.

-وإنْ درسته، واقتنعت به، وأحببته هتغيري رأيك؟

-طبعًا.

-يبقى اتفقنا.

عادا إلى فرنسا، واسترجعت صفاء الحديث، وصـــلت إلى كلمة اتفقنا، إنها وعد صريح بقبول طلبه، وسألت نفسها: هل حقًا ستتزوجين يا صفاء؟ أهو من سيحل محل فتحـــي؟ إنـــه مختلف تمامًا عنه، بل إنه لا يشبهه في أي شيء، وليس بينـــهما شيء مشترك، وليس به شهامة ونخوة المصريين إنه ليس فتحي.

واستدركت قائلة: لكن به طموحك، وهل الطموح وحده هو ما يُرجح كفته ويُسقط كفة فتحي؟!! من قال هذا؟

إنَّ الفكر يُمزقها، ولا طائل منه فقررت إرجـــاء الـــتفكير والقرار حتى ترى هل سيسلم ليو إسلامًا حقًا أم لا؟

وأخذها العمل والدراسة عن متابعة الأمر، ولكن ليو أصبح يختفي كثيرًا، لم يعد معها كل الوقت كما كان، فهو يحـــضر معها المحاضرات، ويختفي فجأة، دون أنْ تعرف إلى أين يذهب، وحين تتصل به لا تسمع غير صوت آلة الرد على المكالمات، لم تكن تعلم أن ليو يسعى لتنفيذ اتفاقهما، ويحرص كل الحـــرص على أنْ يكون معها عما قريب، لقد التحـــق بأحـــد المراكـــز الإسلامية وطلب أنْ يتعرف على الدين قبل أنْ يعلن إســـلامه، ولم يكن ليتصور أبدًا أنَّه سيجد أمامه شريعةً سمحاء، ومبـــادئ سامية ترقى بروح الإنسان وتحافظ على حقوقه كما وجـــدها بالشريعة الإسلامية، وعرف كم أنَّ وسائل الإعلام والدعايـــة ساهمت في تشويه هذا الدين، ونعتته بأنه دين تزمت وتـــأخر

ورجعية وقتل وسفك دماء، مع أنه يدعو إلى عكس ذلك تمامًا، ويكفي أنَّ علوم أوروبا كلها كانت نقلاً عن علماء المسلمين، بينما كانت أوروبا تعيش عصور ظلامها.

وانشرح قلب ليو للإسلام، ورق قلبه، ولان طبعه حين سمع القرآن، وحين قرأه بالفرنسية، وعرف معاني كلماته، بل وحين سمعه بالعربية، نزل دمع عينيه مع أنه لم يفهم ما يقال، ولقد أسلم ليو عن اقتناع كامل بتلك العقيدة، أسلم بعد ثلاثة شهور قضاها بين البحث والقراءة والإطلاع على دين الله الحنيف، وذهب إليها وهو ليس ليونيل وإنما أحمد المسلم حقًا.

ووجدت صفاء نفسها أمام رجل آخر، شخصية تبدّلت أمامها دون أنْ تدرى، وفوجئت بمسلم مؤمن أشد الإيمان، يتركها في أوقات الصلاة، يتشوّق لرمضان حتى يصوم لأول مرة، ويطلب منها أنْ تروى له الحياة في رمضان والطقوس وكيف يصبرون دون طعام أو شراب، صارت نظرته إليها لا تحمل شيئًا من وقاحتها السابقة، لَمْ يشرب كأس خمر واحدة، أو حتى زجاجة بيرة، إنه رجل آخر يستحق أن يعرفه المرء عن كثب، ويسعد بمعرفته، ولم ينقطع ليو أو أحمد عن زيارة المركز الإسلامي، والصلاة فيه، وسماع الدروس الدينية، بل إنه اصطحبها معه، شعرت بأنه لابد من تلبية وعدها، ماذا يمنعها من الزواج به؟ وسيطرت عليها فكرة الارتباط، وبدأت تفكر فيها ليل نهار، ماذا يضير؟ ليو طموح مثلها، أصبح على خلق

وصار مسلمًا بعد الضلال، كما انه يحبها، ويأمل في نفس ما تأمل، أليس هذا ما تريده في رجلها؟

وفي حفل صغير، ودون أن ترسل إلى أهلها تزف إليهم الخبر، أعلنت صفاء خطبتها لأحمد، أو ليو سابقًا.

وبدأت تبحث عن السعادة معه، ولكن، وآه من لكن، إنّ بداخلها شيئًا يغص به حلقها، يقف حائلاً بينها وبينه، مع أنه يفعل المستحيل لإسعادها، يبذل أقصى طاقته ليرى ضحكة على وجهها، ولكنها لا تستطيع التغلب على تلك المرارة التي بداخلها، إنه يُلح عليها في تعجيل الزواج حتى إنه على استعداد للسفر إلى مصر ليطلب يدها من والدها وأخذ موافقته على الزواج، ولكنها تقف أمام رغبته بحجج واهية، هي لا تعرف كيف تخبره بتلك الحلقة المفقودة بينهما، والتي تحول دون سعادتها معه، إنها لم تستطع إخفاء صورة فتحي عنها، بل ما زالت إلى جوار سريرها تلقى عليها تحية المساء قبل نومها، وتحية الصباح حين تصحو، كل ما فعلته أنْ وضعت صورة ليو إلى جوارها، ولكنها أبدًا لم تنزعها من مكانها.

إلحاح ليو عليها في تعجيل الزواج،كاد يُطير صوابها،إنها لا تستطيع التحمل أكثر من هذا،إنها لا تستطيع أنْ تكون في حضن رجل وبقلبها وعقلها وكل كيانها رجل آخر يسيطر على كل شيء بداخلها،رجل سلبها كل شيء، ولكن أنانيتها هي ما وقف حائلاًبينهما،وكانت أقوى من أنْ تكون له ومعه،

فأبعدها إلى حيثُ هي الآن، ولكنها أبدًا لا تقدر أنْ تنساه، تلك هي الحقيقة، إنها لا تقدر على نسيان فتحي، وحب غيره، وكان عليها أنْ تخبر ليو، بعد قرابة العامين والنصف معًا يجب أن تقول له: "يكفي هذا".

اتصل بها ذات يوم، وكانت في أوج ألمها لفراق فتحي، ومن تعذيبها لليو، وسألها سؤاله المعتاد: إمتى بقى هنتجوز؟ وبثها بعض غرامه، لم تجبه، وقالت: "هجيلك دلوقت".

لقد أخذت قرارها، ستخبره بكل شيء، وستضع حدًا لكل هذا، يكفي أنه يحدثها فترى فتحي في صورته، لقد أصبح وجهه دائمًا محل وجهه كيف هذا؟ لا تعرف!!

واستقبلها بترحاب شديد، جلست وهي تلملم شتات كلماتها، فسألها: مالك؟

-مفيش، فيه موضوع مهم عاوزة أحكيهولك وتسمع من غير ما تقاطعني مطلقا من فضلك.

-خير؟

وبدأت روايتها، حكت كل شيء عنها وعن فتحي، وكيف وصل بهما الحال لما آل إليه الآن، وكيف أنها لا تقدر على نسيانه، وأنها لا تستطيع أن تكون لاثنين في ذات الوقت.

-ليه ما قلتليش قبل كده؟ قالها، وغضبه على أشده.

-ماقدرتش، كنت فاكرة إني ممكن أنسى، وأبدأ حياة جديدة، لكن ما قدرتش أنسى، صورته بقت قدامي كل وقت وفي أي مكان.

وأحس بطعنة قلبه دامية، ولكنه تماسك، وحاول أنْ يُظهر لها أنها لا تعنيه، وأنه أقوى من أنْ ينهار من حب امرأة مثلها، فقال: أنا مش زعلان، أو حتى غضبان، يكفى إنك كنت السبب في اعتناقي دين أندم كثيرًا على إني ما عرفتوش من يوم ما اتولدت، عشان كده أنا مش هقول لك كلمة تضايقي منها، أو حتى أطردك من هنا، أنا هقول لك شكرًا ألفْ شكر، لكن مش عايز أشوفك تاني أبدًا.

خرجت ودموع عينيها تتساقط شلالات، في حين سقط هو على أريكة مكتبه، وهو يعض على شفتيه من الألم، إنه يشعر بغدرها سكينًا قد انغرز في قلبه بلا رحمة، وانسالت دمعات حارّة على وجهه، ولكنها أبدًا لا تُشفى جراحه.

لْم يكن يتصور أنّه سيوضع من قبل في هذا الموقف أبدًا، وسأل نفسه:"هل ترى هذا ذنب الفتيات التي كنت أتركهن من قبل؟ هل كن يعانين مثلي الآن؟" ورفع يده بالدعاء: يا رب، خفف عني ما أعاني، فهو أكبر من احتمالي، وإن كنت قد أخطأت من قبل فاغفر لي، وانخرط في بكاء مرير، وذهبت صفاء لبيتها والنيران تشتعل في عقلها وقلبها، وظلت تبكى مدة طويلة ثم أمسكت بصورة فتحي وهي تسأله: ليه يا فتحي تعمل فيا كده؟ ليه بقيت لعنة تحل عليٍّ كل ما أفكر في الحياة من غيرك؟ ليه يا فتحي ليه تعذبني وأنا بحبك...................... بحبك قوى.

وتوهمت أن يرد سؤالها عبر صورته: أنا مش لعنة إنتي اللـــي عملتي كده في نفسك، افتكرتي إنك ممكن تعيشي مـــن غـــير الحب، وإن الحب في حياتك أضعف من رغباتك، لكنك مش قادرة تنسى الحب ولا عمرك هتنسى، إذا أنا نـسيته في يـــوم هتنسيه يا صفاء.

وزاد بكاؤها وإحساسها بالذنب تجاه ليو يتفـــاقم بـــشدة، وباتت قضيتها وفتحي هي قضيتها الوحيدة الخاسرة.

مرت عدة أيام، لم يكن ليو يذهب للمحاضرات، فقلقـــت عليه، فذهبت إلى مكتبه، وكان هناك، استقبلها استقبالاً فـــاترًا جدا، فقالت: أنا عارفة إنك غاضبان وزعلان، ولك كل الحق، لكن ليه ما بتحضرش المحاضرات؟

-ويهمك تعرفي؟

-ليو إحنا أصدقاء وأكلنا عيش وملح، وده له حـــق عليـــا وعليك، زى ما بنقول في بلدنا.

-إحنا مش أصدقاء.

-خلاص.. بس لازم تحضر.

-شيء ما يخصكيش.

-أنا كنت فاكرة إن إحنا طالما ما قدرناش نبقى زوجـــين، ممكن نفضل أصدقاء.

-ما ينفعش إنتي ليه مش عايزة تصدقي إنه ما ينفعش أكون خبك، وطول الفترة اللي فاتت بحلم بيكى مراتي وفي بيتي، والآخر تقول لي: أصحاب! ما أقدرش وما أقدرش أنسى غدرك.

صمت برهة، زفر زفرة قوية، ثم قال: "أنا بكرهك يا صفاء... بكرهك".

أدار وجهه عنها، فخرجت مسرعة من مكتبه، وهي لا تعرف ماذا تفعل؟ وبعد طول تفكير وهي تسير في الشوارع بلا هدف، لم تجد أمامها غير عملها ودراستها، فقررت أن تهب نفسها لهما أكثر من ذي قبل.

استغرقت صفاء في العمل والدراسة، بشكل مستميت أنساها نفسها، ولكنها كانت تلمح ليو في صفوف المحاضرات، يجلس في آخر صف، ويأتي في الموعد بالضبط، ويخرج أول الطلبة، ولا تراه أبدًا.

كان الجميع يعرفون أنهما خطيبان، ويعلمون أنهما لا يفترقان مطلقًا، لذا فإن قطيعتهما أثارت الأسئلة في نفوس زملائهما، وكانت الأكثر فضولاً هي حَسنة الفتاة المغربية التي تعرّفت عليها صفاء في بداية المشوار، ولكنها لم تصاحبها أبدًا واكتفت بصداقة ليو.

واستطاعت حَسنة أن تنفذ إلى صفاء، وتملأ بعض فراغها، ولقد كانت حَسنة فتاة متحررة لا تضع أي قيود على تصرفاها، ومن ملابسها وملامحها الغربية تكاد تجزم بأنها فرنسية، فلقد هاجر أبوها مع أسرته منذ أن كان صبيًا صغيرًا، أكمل تعليمه وعاش في فرنسا وتزوج من فرنسية وورثت عنها حَسنة جمالها.

ولأنّ حَسنة عاشت حياها كلها في هذا البلد، لذا كان لها شبكة علاقات واسعة ولها أسلوب في الحديث يملؤه المرح والضحك، فكانت تجذب بتلك الطريقة الكثير، منهم الجاد، والبعض منهم عابث، وبسبب هذا الأسلوب المنفتح، كانت صفاء تهابها في البداية، إلى أن دخلت حياها مؤخرًا.

وسألت صفاء نفسها ما الذي منعها من تكوين شبكة علاقات كالتي كانت لها في مصر وهى قادرة على ذلك؟! لماذا

اكتفت بمعرفة أستاذها، وزملائها في المكتب وليونيـل فقـط، لماذا؟ هل للغربة سبب؟ والخوف من الغرباء هو مـا دفعهـا للانغلاق؟ أم لأنها لم تجد بعد مصلحتها منهم؟!

واكتشفت أنها تأخرت كثيرًا، إنّ لها عامين وأكثر في هـذا البلد، دون معرفة الكثير، واتخذت صفاء من حَـسنة سُـلمًا للوصول إلى كل من تعرفهم، وبعدها سوف تحدد ما سـوف تحتاجه منهم، وما سوف تعطيه في المقابـل، ولكـن دون أنْ تعطي ببذخ، وحاولت الاندماج في عالم حَسنة، وتكوين شبكة جديدة من العلاقات، ولكن بطريقة مخالفة لطريقة حَسنة، فهي تعتمد على إظهار الأدب الجم واللباقة والكياسـة في الحـوار والاعتماد على ثقافتها واستخدام جاذبيتها، تلك الجاذبية الـتي تتمتع بها، وكانت عاملاً أساسيًا في نجاحها، دخلـت عـوالم الفرنسيين وبعض المصريين المقيمين هناك، والوافـدين الجـدد والمهاجرين منذ أعوام، والذين تعرفهم حَسنة منذ ميلادها.

تعرّفت على عمال في مصانع، وبائعين في الأسواق والمحـال التجارية، ومضيفي مطاعم ومقاهي، بالإضافة للفرنسي فرنسوا المحاسب، والإنجليزي ديفيد طبيب الأسنان، وإبراهيم المـصري مهندس الإلكترونيات وهو من مواليد فرنسا، ولكـن أبـواه مصريان، وكان الجميع يناديه أبراهام، هؤلاء الثلاثـة معهـم ماري جويل الفرنسية الصحفية المتدربة في جريـدة اللومونـد الشهيرة، كانوا أهم مَن عرفتهم ورغبت في توطيد علاقتها بهم،

واندمجت أكثر في مجتمعهم، كانت عاملاً مشتركًا في سهراتهم، تسمع مناقشاتهم وتشترك فيها بما تعرف أنّ الجميع بحاجة لسماعه، وسوف يسمعون وينصتون، فكانت إذا تحدّثت صمت الجميع، وإذا سكتت استمعت لهم حتى يتسنى لها معرفة أحوالهم وطباعهم لكي تدرسهم بعناية عن قرب.

كل تلك العلاقات لم تجعلها تتوانى عن المذاكرة، مهما كان يومها مشحونًا، فلقد قلّصت ساعات نومها حتى تستطيع أنْ تتواجد بينهم وفى عملها وكذلك بحثها، وفى غمرة انشغالها، نست لوينيل وتناست فتحي أو ادعت أنها نسيته وقنعت بحياتها بغير حب، أو شخص يفرض عليها حبه، ولكن كيف؟ إنما تعيش بلا حب، وفتحي يملأ كيانها، إنّ صعوبة غربتها في البعد عنه!

أما فتحي فحاله في بُعدها عجب، فهو الميت الحي، صارت حياته كلها عملاً بلا توقف، واستغراقه في العمل هكذا بلا مشقة جعل الحاج عبد الله يُغدق عليه الكثير من المال، هذا بالإضافة لكونه يعمل لحسابه في بعض الأحيان، فكان يربح الكثير، فأنفق على أهله المال دون حساب، ولكنَّ أمه كانت تُحثه على الادخار من أجل زواجه، في حين كان يسمع حديثها ويضحك ساخرًا رغم أنَّه في أعماقه كان ضحكه هذا بكاء وعويلاً.

وكانت أمه تأخذ النقود منه وتدخرها بعيدًا عن يديه، ألحت على فتحي رغبة قوية في الانفصال عن الحاج عبد الله

بشكل غريب، وخاصةً بعد ذيوع صيته كنجار، وأقدَم فتحي على الخطوة التي فشل معلمه الأسطى محمود في اتخاذها.

إنَّ تَركْ فتحي للورشة خسارة كبيرة لصاحبها، حيــثُ أنَّ ولديه لَمْ يتعلما الصنعة و لم يريدها أحد منــهما، والأســطى محمود قد كبر وشعر الحاج عبد الله بأنَّ المصائب لن تكف عنه منذ وفاة زوج ابنته، ثم زواجها من آخر، جعلها تترك طفليهــا لديه، وأخيرًا سفر ولديه للخارج وتركه وحيدًا، ثم إذا باليــد اليمنى وصاحب السمعة الأوحد في ورشته يغادرها مــصطحبًا أخويه وابن الأسطى محمود الكبير، فماذا بقي؟!!

لذا، حاول الحاج عبد الله أنْ يُثني فتحي عن قراره، ولكنه أبداً لم يتمكن، فلقد أصَّر، وأخذ قرارًا لن يعود فيه مهما قــدّم له الحاج من مُغريات.

استأجر فتحي ورشة صغيرة، كثر العمل بها منذ افتتاحهــا، فمَن هذا الذي لا يعرف الأسطى فتحي الفنــان؟! و لم تمــضِ أشهر قليلة حتى وقفت الورشة على أقدامها، وربح فتحي مــا يغطي ما صُرف عليها وأكثر.

في حين كانت صفاء تستعد لمناقشة رسالة الماجستير، لقــد انتهت من بحثها، وشُكّلت لجنتها وأُعدت الرسالة، وبقي لهــا موعد المناقشة، فأرسلت لأستاذها ليحضر، وكم تمنت أن يأتي أهلها إلى فرنسا ويروها في هذا اليوم، ويا ليتهم يأتون ومعهــم فتحي.. لقد شاركها فتحي الكثير من لحظات نجاحها، كــان أول من يهنؤها ويفرح لها، ولكن كيف يشاركها هذه المــرة وهي التي لم تراسله ولو مرة واحدة منذ أنْ سافرت أو تــسمع صوته ولو مرة واحدة؟!!!

إنها تعلم أنّ استمرار علاقتهما هو العذاب لكليهما، وهـو وعد يصعب عليها الوفاء به، لذا فهما يتصرفان هكـذا، وفي اعتقادهما أنه يجب أن يكون حالهما هكـذا، وحـان موعـد المناقشة ووقفت أمام لجنة المناقشة والخوف يملؤها رغم الثقـة التي بداخلها ونظرات التشجيع من أستاذها ومـن أصـدقائها الجدد، وأبدعت صفاء وصفّقت لهـا اللجنـة قبـل جمـوع الحاضرين، وحصلت على الدرجة العلمية بجـدارة، وتلقـت التهاني من الجميع، وبين الحضور رأته، وعيناها تلاقت بعينيـه، لقد كان حاضرًا ورآها، ولكنه أبـدًا لم يُهنئهـا وانـصرف مسرعًا، وهكذا لم تتلق التهاني ممن أحبوها بـصدق، ليونيـل الذي حضر وذهب على الفور، ومن حبيبها الذي هو في قارة أخرى بعيدًا عنها بأميال وأميال.

واتصلت صفاء بأهلها، تزفّ إليهم بشرى حصولها علـى الماجستير، وكان عليها الرجوع لزيارتهم على الأقـل قبـل أنْ تسجّل للدكتوراه، ولكن كان لـديها ارتباطـات كـثيرة في العمل، لذا تعذر عليها السفر، وحضور زفاف أختها سمية التي حصلت علي دبلوم التجارة وخُطبت لمدرس من نفس البلـدة، وعلمت بأنّ سيد أخاها استقلّ في العمل مع فتحي في ورشته، فهو دائما شريكهما، ولا يصغرهما إلا بعام واحد فقط، حصل سيد على دبلوم الصنائع من عدة سنوات، أما عزت فحـصل على البكالوريوس من كلية العلوم، ولكنه لم يجد عملاً سـوى مع أبيه.

تفوق صفاء ورسالتها المتميزة، كانت بؤرة الضوء التي سُلطت عليها وجعلت عيونًا كثيرة تتفتح عليها، وصارت موضع اهتمام كثير من زملائها الراغبين في الاستفادة منها، ومن بعض الأساتذة الذين وجدوا فيها طالبة مجتهدة تستحق المساعدة والاهتمام، وعلى رأسهم البروفسيور جيرارد سرنينيه، لم يكن هذا الأستاذ سوى رجلٍ في الخامسة والأربعين، هيٍّ الطلعة مهيب المظهر، أستاذ في مادته، ومطلّق منذ عامين.

اعتقدت صفاء أنه سيكون مثل الدكتور سيد، حيث سَيمُد لها يد المساعدة لشعوره باحتياجها واستحقاقها تلك المساعدة، هكذا ظنت في أستاذها الجديد الذي قدّم لها بعض المراجع التي لم تجدها بالمكتبة، وأبحاثه الخاصة، لتجمع مادتها العملية الجديدة للدكتوراه، ولكن بعينيّ المرأة وحاستها السادسة، رأت في أستاذها أنّه لا يفعل هذا لكونها تلميذة مجتهدة يجب رعايتها، وإنما لأنها امرأة راقته ولعبت على أوتار عواطفه، لم يَكن يُلّمح لها في البداية ولكنها أحسته، ورأت في عينيه ما أخفاه، إلا أنها لا تستطيع التملص منه، إنها بحاجة إليه، ولاعبها هذا الرجل بإتقان شديد، فلقد عرف أنها بحاجّة إليه، ورمى لها الطعم بأن أعطاها الكثير مما يملك، وأطمعها فيما لم يُعطها، حتى صارت في شبكته، بقي عليه أنْ يتكلم، ليس فقط يلمح وإنما يتكلم بصراحة ويعرض حبه بوضوح شديد، وحقًا قد أربكها، رغم أنها تُحس من فترة، ولكنها لم تكن تتخيل أنّه سوف يتعدى كل المراحل ليصرّح هكذا.

وحاولت الإفلات منه بدعوة أنها ستفكر وأنها فوجئت وأنها تعتبره أستاذها، وهكذا حتى تركها الرجل لتفكر.

وكيف لها أن تفكر؟ إنها ما زالت بحاجة إليه، إنّ للرجل علاقات واسعة بأصحاب الأمر في فرنسا، إنه قد يكون سبيلها للارتقاء أو حتى للتعيين بالجامعة، كيف لها أنْ تهرب؟ لم يكن أمامها سوى التعلق باختلاف الدين وتقاليدها التي نمت وعاشت تتلقاها.

وذهبت إليه وهي تتحاشى التقاء عينيهما، حتى لا يعرف أنها تتملص منه ولا تريده، فهي لا تشعر نحوه بأي شيء، حتى مشاعر الصداقة لا تحسها تجاهه.

وبمجرد رؤيته إياها، هَبَّ من على مكتبه ليقف قبالتها تمامًا وهو يرسم على وجهه ابتسامة عذبة مستبشرة، فقال: إيه الأخبار؟ يا ترى فكّرتي؟ صمتت برهة ثم قالت بصوت هادئ: فكرت.. حضرتك إنسان عظيم ولك مكانتك وتحتل في نفسي مكانة كبيرة.. بس أي علاقة بينا غير الصداقة أو الأستاذ والتلميذة مش هتنفع.

-ليه؟ وعشان إيه؟!

-عشان اعتبارات كثيرة جدًا، أولها إني ما أقدرش أكون معاك من غير جواز، وعشان نتجوز يبقى لازم تبقى على ديني، أو أكون على دينك، وهذا مستحيل.. مستحيل.

-قصدك إني لازم أكون مسلم.

-أيوه.

-وليه إنتي ما تبقيش مسيحية؟

-أنا لا يمكن أن أتخلى عن ديني أبدًا مهما حصل، وهل أترك ديني من أجل رجل؟ أبدًا مش هيحصل.

كان ردها قويًا وليس فيه من الكياسة ما يحفظ لها مصلحتها.

-الموضوع فعلا محتاج تفكير كبير، بس فيه مصريين مسلمين متروجين من فرنسيات.

-إنَّ الدين الإسلامي يُبيح للرجل المسلم الزواج بمن تسدين بغير الإسلام، ولكنه لا يُتيح للمرأة المسلمة ذلك.

-ليه؟

-النسل على دين أبيهم.

-ولكني مسيحي متدّين جدًا، ولا أترك آحاد إلا وأكون أول مَنْ يذهب إلى الكنيسة، لقد كنت على وشك أن أصبح رجل دين.

-مش قلت لك إن الموضع ده مستحيل؟

-بس أنا بحبك.

-لكن أنا ما أقدرش أعيش مع أي راجل في الحرام، إنَّ المسيحية الحقة لا تُبيح ذلك.

-يعني إيه؟

-يعني يكفي أنْ نكون أصدقاء، أو أنسحب مـن حياتـك بهدوء زي ما دخلتها بهدوء.

-أنا ما أقدرش أستغنى عنك.

-هتتعود صدقني.

وانصرفت صفاء، اختفت من حياة الرجل أيامًـا عديـدة، وهي تشعر أنها ستعود، وأنّ الرجل سيسترد عقله، فهو يمتلـك فكرًا وعقلاً يحسده عليه الجميع، وسوف يزن الأمور بميـزان العقل.

وفى تلك الأثناء التي كان يفكر فيها، كانت هي منشغلة في مكتبها، وفى إعداد الرحلة التي كانت سـتخرج إليهـا مـع أصدقائها الجدد، حَسنة وإبراهيم وفرنسوا وديفيـد ومـارى جويل، حيثُ اتفقوا على أن تكون إجازتهم تلك المـرة علـى شاطئ الريفيرا الساحر، وكان الجميع على استعداد للـسفر إلا إبراهيم، فلقد كان متخوفًا من أنْ يظهر له عمل في آخر لحظة، ولكنه استطاع السفر وقضوا وقتا طيِّبا سويًا في حـين كـان جيرارد يبحث عنها في كل مكان.

وأخيرًا وجدها يوم الاثنين في مكتبة الكلية، خرج معها من المكتبة إلى حجرة مكتبه، جلس صامتًا حتى أتت القهوة الـتي

طلبها لها وله، ثم قال: كان لديك كل الحق في علاقتنا، لقـــد فكرت جيدًا، ولكني أطمـــع أن تكـــون صـــداقة، فأنـــت لا تتصورين مدى احترامي لك رغم غضبي الشديد منك، والذي كان كفيلاً بإنهاء تلك العلاقة مدى الحياة، لكني تراجعت حين تأملت تمسكك الشديد بتقاليدك ودينك، وهذا هـــو الأهـــم، هناك أشياء ليس للمرء أن يعبث بها على الإطلاق أو يغيّرهـــا مثل الدين، أنا أشعر بأنه إذا غيّر المرء دينه فإنه يستطيع أنْ يغيّر أي شيء آخر، وأنْ يبيع أغلى وأعز شيء، وسيكون من السهل عليه ذلك دون أنْ يطرف له رمش.

-أنا سعيدة جدًا بكلامك يا بروفسيور.

-وأنا سعيد بمعرفتك وعندي ليكي مفاجأة.

-خير إنْ شاء الله.

-بحث الأستاذ الأمريكي بروس وود الذي كنت تبحـــثين عنه، لقد راسلته، وبعثه، وها هو ذا.

-أنا مش عارفة إزاي أشكرك؟

-مفيش شكر بين الأصدقاء... ولاّ إيه؟

-طبعًا.. طبعًا.

-إيه رأيك نتغدى مع بعض النهارده؟

-معنديش مانع، هحضر محاضرتي الباقية وبعدين أمر عليك بعدها.

-في انتظارك.

وشعرت صفاء بشعور المنتصر، فهذا الأستاذ مكسبٌ كبيرٌ في حياتها ونصرٌ قويٌّ يجب الحفاظ عليه مهما حدث، ذهبت معه لتناول الغداء، تحدثا طويلاً وأكلا قليلاً، إنَّ الحديث معه شيق بدرجة أنَّ محدثه يحزن لو تركه دقيقة واحدة، بل ثوان معدودة، وهو لا يتكلم أي كلام، وإنما يتكلم كلامًا مرتبًا ذا معنى، وفي مواضيع هامة، لذا فالاستفادة منه ستكون جمة، بشرط معرفة ما يريده المرء حتى يستطيع سؤاله عنه فيأخذ إجابات شافية.

لذا فقد بذلت جهدًا خارقًا للحفاظ على صداقتها معه، دون أن تكون متواجدة في حياته على الدوام، حتى لا يستيقظ داخله شعور المحب الواله بها مرة أخرى.

١٩

بدأت صفاء مرحلة جديدة من حياتها، فهي تعد للدكتوراة بجهد شديد، أخذها من أشياء كثيرة وناس كُثر، لـــذا كانـــت حَسنة وأصدقاؤها يحرصون على أن تكون بينهم ولو يومين أو يومًا واحدًا في الأسبوع، وكانت صفاء تسعد بهذا اليوم لأنهـــا تجد فيه إبراهيم الذي تتحدث معه بالعربية وبالعامية المـــصرية، فتشعر بأنها في بلدها، فكلام حَسنة لا تستطيع فهمه كله، لـــذا فهي تُؤثر الحديث معها بالفرنسية، أما إبراهيم فهي تتحـــدث معه كثيرًا ويروقها حديثه رغم الشجن الذي يمـــلأ عينيـــه ولا تعرف له سببًا، وحاولت أنْ تسأل حَسنة فلم تجبها وقالت لها: إنه دائمًا هكذا.

وصار اللقاء الأسبوعي هذا عادة يحرصون عليها، ولا يفوت أحد منهم هذا اللقاء مهما حدث.

وفي إحدى المرات انتهزوا فرصة إجازة نهايـــة الأســـبوع، وخرجوا في نزهة منذ الصباح، وعند الغروب كـــانوا علـــى ضفاف نهر السين، حيثُ جلس إبراهيم بمفرده يتأمل حركـــة المياه الهادئة والشمس التي تتوارى بهدوء شديد فاقتربت منـــه صفاء وقالت: مالك؟

-مفيش بحب أشوف الغروب.

-هي دي شمس وده غروب؟ دي بلاد عايشة في غـــروب على طول، الشمس في مصر والغروب هناك، آه لو شـــفتها في القاهرة وهي بتغوص في النيل بدلال زى ما تكـــون عروســـة مكسوفة من الناس فبتدارى ورا طرحتها شوية بشوية!!

-تعرفي إن من يوم ما اتولدت ما رحتش مصر غير مرة، ولا اتنين، مش فاكر بالظبط.

-مصر على أد ما فيها من مساوئ، على أد ما شوقي ليها أكبر مما تتخيل، دي بلد مش زى أي بلد، طول عمرها خيرها مش ليها، وطول عمرها مطمع للجميع، وكل شيء فيها مـــن أهلها همّ السبب في التدهور الموجود فيها، لو الناس انصلحت واتطورت، بحثت ودرست دراسة جيدة للعالم المحيط، وأُعطيت الفرصة للمجالات العلمية ومساحة للبحث العلمـــي لـــتغيرت البلد دي تماما.

-واضح إنك بتعشقيها... أنا مش حاسس بيها مطلقا.

-مع إنك بتتكلم لغة أهلها كويس، إزاي كلامـــك بلغـــة أهلها مبيشوقكش ليها؟

-لولا بابا وماما وإصرارهم إني أتكلم عربي ما كنت حـــتى فكرت إني مصري.

-يمكن، أصل حب الوطن مـــش بالوراثـــة، دي حاجـــة بتتحس، تلاقيها كده جواك من غير ما تفكر أو تشغل فكـــرك بأي حال، دا إنت بتلاقي نفسك كده غيـــور عليـــه، اسمـــه

بيزلزلك وتلاقي رعشة تسري في دمك، هناك في مصر الحيـــاة والروح.. تعرف؟ ساعات بحس إن الناس فيها مـــش بتنـــام.. الناس في الشارع بالليل زى النهار، في حب، في ألفة، في أمان اتربيت هناك وعشت وأكلت وشربت واتعلمـــت وكـــبرت، هناك كل حاجة تخصك وتدل عليك.

-كويس إنك حاسة إن ليكي وطن وبيت أما أنا فتايه كان لي وطن هجرني، كانت ليّا أرض وراحت.

-الوطن ثابت، إحنا اللي بنهاجر، إحنا اللي بنفارق.

وهنا نزلت عَبْرَة حارقة من عينيّ إبراهيم، جعلـــها تـــسأله بلهفة وقلق: إيه اللي حصل، أنا قلت حاجة زعلتك؟

فإذا به يندفع في بكاء حار لا يتوقف، حاولت إسكاته دون جدوى، فألقى برأسه على كتفها، فلم تستطع فعل شيء سوى أنْ تربت كتفه حتى سكت، ثم قام، وتركها فعدت خلفه: إنت رايح فين؟ نطقتها ودهشتها على أشدها.

لم يجبها فقالت: ما تسبنيش كده، أنا عايزة أفهـــم... أنـــا قلت إيه ضايقك كده؟ استمر في سكوته فقالت: على العموم إنت حر.. بس أنا مش هتلكم معاك تاني.

ناداها وهى تهم بالانصراف: صفاء..أنا آسف. بس أصـــل أنا..............

قالت: إنت إيه؟

-كلامنا عن الوطن والبيت والأرض فكرني بالوطن اللـــي راح والأرض اللي انهارت والمكان هنا بالذات فكـــرني بيهـــا، كانت كل شيء، هي وطني اللي بحق، أرضي اللـــي عـــشت وكبرت عليها، راحت وسابت لي الألم والحزن مـــن بعـــدها، كانت أجمل من النسمة، وأرق من الندى على ورق الـــشجر، عشنا سوا من وإحنا صغيرين، ما عرفتش بنت غيرهـــا، هـــي كانت كل شيء في حياتي، دخلنا نفس المدارس إلا أني درست هندسة، وهي درست فن، كانت مغرمـــة بالرســـم والفنـــون التشكيلية، عمرنا ما افترقنا يوم، إنتي ما انتش عارفة يعني إيـــه تكوني مع إنسان من أول حياتك لحد ما تكبروا.

وسمعت كلماته وقالت في نفسها: "مش عارفة؟!! ده إنت اللي مش عارف إنك بتحكي حكايتي، إنك بتدوس على كل عمري في لحظة واحدة".

انتبهت لحديثه، فلم يكن انتهى، فإذا به يقول: كنا بنستعد لحفلة تخرجنا، كانت حفلتها بعد حفلتي بأسبوع واحد، رحنا نشتري أجمل وأحلى فستان في باريس، كانت الفرحة في قلوبنا أكبر من إني أوصفها لك، اشترينا الفـــستان، وســـبتها عنـــد الكوافير، أخدت الفستان لبيتها واستنينا عودتها انتظرنا كـــتير، بس ما رجعتش، خطفها الموت فجأة من غير وداع، راحـــت مني بعد ما بنيت قصور في الخيال، راحت وسابتني وحيد، بلا حضن دافئ، بلا حياة، غابت بعدها الابتسامة، أكتر من سبع سنين مرت على موتها، وأنا حاسس كل يـــوم إنهـــا ماتـــت امبارح، ومن يومها ما قدرتش أكون مـــع واحـــدة غيرهـــا،

مقدرتش ألمس بنت من بعدها، كل بنات الدنيا مش هيعوضوني فراقها.

-ياه يا إبراهيم! فيه إنسان بالوفاء والإخلاص ده؟ أو فيه حب بالشكل ده في الزمن ده؟ تعرف إنك بتفكرني بواحد أعرفه؟ وياما أنا خايفة عليه ليعيش زيك كده! إبراهيم، لازم تعيش وتبص للدنيا، إحنا ملناش غير عمر واحد، والحياة أقصر مما تتخيل، في لحظات بنعيشها مُرة، ولحظات حلوة، وكله بيعدي لأن الحياة لازم تستمر، اتعلم كمان ما تديش الحاجة أكتر مما تستحق، لا تزيد من الفرح عن حقه ولا الحزن عن حقه، كل حاجة ليها نصاب وليها وقت.

-مش كل الحب اللي بيتنسي، أصلك ما تعرفيهاش.

وعادت صفاء لتسأل نفسها: "وهو وإنتِ قدرتي تنسى فتحي؟ تنسى حب العمر؟ بس يا ترى هو هيقدر ينساني؟"

التفت إليها وسألها: "إيه رحتي فين؟"

- أبدًا، بفكر في كلامك.

انتهى اليوم، وقد خرجت منه بحنين جارف إلى الوطن، وإلى الحب الذي هو الوطن والأرض، إلى فتحي، العمر في أحلى مراحله وأوج أيامه، وباتت وفي حضنها صورته وفي عينيها ابتسامة.

لقد كان فتحي يبيت لياليه صيفية أو شتوية وهي بين ضلوعه، وليس فقط صورتها، إنه يضعها كلها داخله، وقد أحكم الإغلاق عليها، فلم يستطع يومًا نسيانها أو حتى فك حبسها.

ومن خلف معاناته، كانت أمه تخطط لزواجه، بعد أنْ تيسر حاله وكثر ماله، ففي الأيام الأخيرة كانت تتودد إلى قريبة لها في بلدها، لديها فتاة شابة أنهت تعليمها الجامعي قبل أشهر قليلة، ولقد أحست أم الفتاة برغبة أم فتحي في تزويج ابنتها لابنها.

بدأت أم فتحي تُلح على ولدها، ولكنه كان يرفض أشهرًا طويلة، منذ أنْ كانت الفتاة في الدراسة إلى أنْ أنهتها وأم فتحي تلح عليه، عام ونصف العام وهو يرفض الأمر نهائيًا، ولكن الأم لم تيأس وظلت تلح، ولأنّ أم فتحي هي أغلى شيء في حياته، فلم يستطع أنْ يُغضبها أكثر من هذا، ووافق على خطبة الفتاة، وخاصة أنه قد رآها من قبل ويعلم أنها جميلة وهادئة، وذهب فتحي مع أبيه وأمه لطلب يد الفتاة التي كانت طائرة من الفرح، فلقد وقعت في غرامه منذ أنْ وقعت عيناها عليه، شغل تفكيرها وشغفت به، حتى تمنته، وأخذت تدعو الله أنْ يكون من نصيبها دون أن تدرى أنها سوف تخسر الكثير والكثير.

كان معها جسدًا بلا روح، فلقد كانت روحه مع التي سلبتها منذ نعومة أظفاره، لقد كان يتعامل معها بلطف، ولكن لمْ يكن باستطاعته أنْ يهواها، وإحساسه بالذنب تجاهها يتضاعف يومًا بعد يوم، ولكن ما بيده حيلة، إنه شاب فتيّ له متطلبات ورغبات وجسد جائع بحاجة لأنْ يشبع، ولكن ما ذنب فاطمة؟ سؤال كان يتردد داخله بقُوة ما ذنبها؟!

ما ذنبها؟!! رقتها وعذوبتها معه كانت تذكّره دائمًا بجرمه الذي يرتكبه في حقها، رغم أنه كان فرحًا بكلمات الفتاة

وأسلوبها، كان سعيدًا بمصدر حنان آخر غير أمــه، وحــاول جاهدًا أنْ يُحبها، ولكن دون جدوى، ومنذ قراءة فاتحتــهما، وهو يحاول، حتى حان موعد حفل الخطبة، فاشترى لها شــبكة قيّمة وأقام والد العروس الحفل في بيتــه، وجلــس إلى جــوار عروسه السعيدة وحاول أنْ يرسم ابتسامة على شفتيه، ولكـــن هيهات، فقلبه يتمزّق كلما نظر لفاطمة ويرى محلها صــفاء، وحينما يكتشف وهمه، يتمنى أن يكون وهمه حقيقــة واقعــة وليس خيالاً!

وبعد انتهاء الحفل، عاد مع أسرته لمترلهم، دخل حجرتــه، أغلقها خلفه، وألقى جسده على السرير، وظل يحتضن صورتها وهو يسألها: ليه؟ ليه فارقتيني؟ ليه كل العذاب ده؟ وبكى كما لم يبك من قبل!

في هذا اليوم، كانت صفاء تشعر بانقباض شديد وقلــق لمْ تشعر بمثله من قبل، لذا بمجرد طلوع النهار، ذهبــت لأقــرب كابينة تليفون واتصلت بأهلها، كلمت أباها وأمها، واطمأنت عليهم، ثم طلبت أنْ تكلم أخاها سيد، سلّمت عليه ثم وجدت نفسها تسأل عن فتحي لأول مرة منذ سافرت، فهي لمْ تــسأل عنه مطلقًا، لم تُدرج اسمه في حديثها معهم ولا مرة، رغم أنهــا في كل مرة تحدثهم، تكاد تهم بالسؤال ثم تتراجع، فأخبرها بأمر خطبته بالأمس، فوقع الخبر عليها وقع الصاعقة وأغلقت الخط مع أخيها على عجل.

انطلقت تعدو في الشارع والدموع تتساقط من عينيهـــا، صعدت بنايتها وأغلقت شقتها عليها، فصلت التليفون وظلت تبكي وتبكي وتنظر لصورته وتسأله: ليه يا فتحـــي؟ صـــحيح قدرت تنساني؟ نسيت صفاء يا فتحي؟ حطيت إيدك في إيـــد واحدة تانية غيري؟

آه... آه وانطلقت الآه منها تزلزل كيانها كله.

(٢٠)

مرت أيام وكلٌ منهما يحاول أنْ يُلملم جراحه ويداويها قدر الإمكان، غير أنَّ صفاء كانت وحيدة في مداواها، بينما حنان فاطمة واحتواؤها خطيبها واهتمامها به، كان له أثر فعال لدى فتحي، فالتأمت جراحه رغم عدم شفائه وأعطى عقله، ولمْ يستطع أنْ يهب قلبه وروحه، لأنهما ببساطة ليسا ملكًا له، إنهما مع صفاء صاحبتهما، وهما قيد يديها.

واصطبغ وجه صفاء بصبغة حزينة وعيون تلمع فيها الدموع دائمًا، ولم يكن أحد ممن يعرفونها في بلاد الغربة يصدق أنَّ هذه صفاء، ولمْ يتمكن أحد من معرفة ما بها، حتى إبراهيم الذي أعاد عليها الكلام الذي أسمعته إياه والنصائح التي قدّمتها له، وهي ألا يُعطى حزنه أكثر من حقه، وأنه لا شيء يَستحق كل هذا الألم، ولكن ما من شيء كان يُجدي معها، ولمْ يستطع أي منهم أنْ يعرف سر حزنها أبدًا.

وبعد حوالي أسبوعين من معرفتها الخبر المشئوم، كانت في أحد المطاعم تتناول غداءها، فإذا بإبراهيم يدخل المطعم ذاته، ويراها، فيجلس معها ويطلب غداءه هو الآخر.

قال: أنا مش هسألك تاني: "إيه اللي مزعلك؟"، ولا هقول لك أي نصايح، بس نفسي أطلب منك نكون أصدقاء من النهارده.

-طب ما إحنا أصحاب.

-لا أنا قصدي أصحاب بجد، مش مجرد نزهـــات بنخـــرج فيها بس، أنا قصدي نكون أصحاب نخاف على بعض، نهـــتم ببعض، أعرف اللي يضايقك وتعرفي اللـــي يـــضايقني، اللـــي يفرحك ويفرحني، يعني أصدقاء بالمعنى المتعارف عليه.

-فهمتك.. بس أنا باعتبر نفسي صديقة ليكم كلكم بالمعنى ده.

-رغم إن إحنا ما نعرفش بعض غير من فترة صغيرة.

-لأنّ الصداقة في نظري ملهاش غير معنى واحد، هو اللـــي إنت كنت بتشرحه من شوية.

وسكتت قليلاً، ثم أردفت قائلة: إنت عارف؟ طول عمري بفصل مشاكلي عن الناس، دايما أخليها جوايا، أنا بس اللـــي أعرفها عشان ما أقعش في مأزق الأسئلة الكتير، وكلمة مالك، لكن المرة دي كانت أقوى مـــن إني أخفيهـــا جوايـــا، إزاي هضحك في وش الناس وأكلّمهم وأداري دموعي وأنا أصـــلاً مش صفاء اللي بتقدر تعمل كده؟! أنا شبح ليها، مش عارف يعمل حاجة غير إنه يحزن عليها ويبكيها، كنت بعتبر نفـــسي ضايعة وناقصني كتير، لكن دلوقتي أنا مش بس ضايعة، أنا مش موجودة، أنا انتهيت.

-كل ده ليه يا صفاء وعشان إيه؟!

-إنت حزين ومهموم لأن الموت خطف منك حبيبتك، وده شيء غصب عنك ومش بإيدك، ويكفي إنك عارف هي فـــين

وفي إيد مين، أما أنا فضيعته من إيدي، سيبته، سافرت، قلت له "طريقنا مش واحد"، والآخر لما ارتبط بغيري، ببكي وأصـــرخ مع إن أنا السبب!

-معقول الكلام ده؟!!

روت صفاء لإبراهيم حكايتها منذ بدايتها، من ولادتها إلى هذه اللحظة، وسمع إبراهيم، و لم يصدق أذنيه أنّ هناك امـــرأة تبيع هواها لأجل طموح زائل، ورغبة غير أكيدة.

ولأنه اتخذ قرارًا أنْ يكون صديقها، فلقد وقف إلى جوارها في محنتها وحاول جاهدًا أن يُعينها على النسيان.

وتوطدت علاقتهما، فأصبح سلواها وصارت معينته، كمـــا توطدت على الجانب الآخر علاقة فتحي وفاطمة، فكل يوم يمر وهي تزداد عشقًا له واعتمادًا عليه، بينما هو يسعد باهتمامهـــا به، وبطيبة قلبها، وبالجلوس معها، ولكن قلبه مازال كما هو، مسلوبًا منه، كما أن إحساسه بأنه مسئول عن أحد دائمًا مـــا يروقه.

إنّ إبراهيم هو الثاني ممن عرفتهم صفاء، وكان يعلم كـــل شيء عنها منذ البداية، كان عماد من قبل يعلم بحقيقة علاقتها مع فتحي، ولكنه أبدًا لم يجد السبيل لمصارحتها بحبه، فلقد كان الاثنان دائمًا أمامه يشكلان حائلاً أمام هواه، ولكنه عرف منذ البداية أنّ الطريق أمامه مسدود، لكن كل من عرفتهم صـــفاء بعد ذلك، كانوا يجهلون علاقتها بفتحي وهواها لـــه فـــذابت

أحلامهم فجأة أمام عيونهم حين صدمتهم صفاء، أما إبــراهيم فلقد كان يعلم جيدًا الحكاية من مولدها وحتى نهايتها، ويعلــم أنَّ النسيان صعب على صفاء، حتى إنها تعتبر هواها المفقود هو اللعنة التي انصبّت على حياتها وسوف تصاحبها ما دامت حية.

ولكن هناك أشياء كثيرة تقرّبه منها وتعجبه فيهــا، فهــي ليست سيئة على الإطلاق، إنه يسعد بالحديث معها ويــشعر بتفاهم كبير وبدأت الصداقة تتحول إلى انجذاب، ولكن هل من الممكن أن تصبح حبًا؟ هذا هو السؤال الذي كان يتردد داخله ويؤرقه، إنه لا يتخيّل أن يكون مع امرأة غير حبيبته المتوفاة ولا يمكن أن يكون مع امرأة يمكن أن تبيعه وتتخلى عن هــواه إذا كان هذا الهوى عقبة في طريق طموحها، إنه لا ينسى ما فعلته مع حب عمرها، وكيف يأمنها وهو يعلم فعلتــها؟ وكيــف يرضى بأن تكون في حضنه وهي عاشقة لغيره؟

الكثير والكثير يتردد في داخله ويؤرقه، ويؤلمه، لــذا آثــر الابتعاد عنها، فقرر أن يسافر، لم يخبرها أو يخبر أحدًا، ولكن ما إن انقضى يوم، حتى عاد في صباح اليوم التالي دون أن يُكمــل إجازته، فلقد اكتشف أنها تغلغلت داخله إلى درجة بات مــن الصعب انتزاعها، بقي له أنْ يعرف ماذا يمثّل هو في حياتها؟ هل من الممكن أنْ تبدأ معه وتنسى الماضي؟

سؤالٌ آخر هام: هل يحبها حقًا؟!

استقبلته صفاء بغضب، وقالت: إزاى تسافر من غير ما تقول لي؟

-هو لازم أقدّم لك كشف حساب؟

استمعت صفاء للكلمات التي نفذت إلى أذنها فقالت: أنا آسفة. بعد إذنك. واندفعت خارجة، فجرى خلفها وأمسك بيدها وهو يقول: أنا آسف.. آسف يا صفاء.

-ليه قلت كده؟

-غصب عنى، أنا تعبان، كنت عايز أبقى لوحدي، لكن ما قدرتش، وجيت قبل ما تخلص الأجازة.

-إحنا مش اتفقنا إن همومنا نشيلها سوا؟

صمت و لم يتكلم فقالت: احكي لي، فضفض، يمكن أقدر أساعدك.

-أنا عارف إنْ إنتي الوحيدة اللي هتقدر تساعدني، وفى نفس الوقت تقدري تقتليني.

-أنا مش فاهمة حاجة.

-بلاش نتكلم دلوقتي.. هييجي يوم وتفهمي.

قال تلك الكلمات وتركها ومضى، وقد ظن أنها لم تفهم و لم تعرف شيئًا، ولكن حاسة صفاء تجاه هذه الأشياء أقوى من أي شيء، فلقد عرفت دون أن يُخبرها أنه يعاني هواها، تلك هي الحقيقة.

لقد تسرّب حبها إلى قلبه دون أنْ يدري، كان يحـــاول ألا يقع في شراكها، لكنه هوى، وسأل نفسه لَمَ لا يترك الأمـــور تسير بطبيعتها؟ لَمَ يعقّدها؟ ومن يعلم ماذا سيحدث غدًا؟

ومرت أيام، و لم تسأله صفاء عن ســـر تعبـــه و لم تـــدرج الموضوع في حديثها مطلقًا، وهـــو كـــذلك، ثم انـــشغلت في رسالتها، كانت تسابق الريح في تحضيرها وجمع مادتها، وبالفعل استعدت صفاء لمناقشة رسالة الدكتوراه بعد عامين بالضبط من البدء فيها، وكان إبراهيم أول من كان إلى جوارها، وفي قاعة المناقشة كان الجميع معها، حتى ليونيل لم يتغيّب، والبروفسيور جيرارد سرنييه، وبنفس ثقتها الـــسابقة وإحـــساسها بكيانهـــا وجهدها المبذول، أبدعت صفاء، ونالت الـــدكتوراه بـــأعلى درجة، فرحتها بإنجازها لا توصف، حتى إنها شعرت برغبـــة في أن ترتمي في حضن أحد، يُحجم فرحتها تلك، وكان إبـــراهيم أول من كان إلى جوارها فارتمت في حضنه وهي تبكي، فـــإذا بالدكتور سيد يربت كتفها ويُهنؤها على هذا الإنجاز، وأقام لها إبراهيم حفلة رائعة، سهروا فيها حتى الصباح.

في مساء اليوم التالي، كان الدكتور سيد يستعد للسفر، فلقد اقتطع هذين اليومين بصعوبة من وقته، فجلس إليها وسألها: إيه مخططك يا صفاء للأيام الجاية؟

-بصراحة لسه ما قررتش.

-طب هترجعي مصر؟

-ما أعتقدش دلوقتي، أصل فيه احتمال أتعين في الجامعة، إذا صح هذا، بالطبع سأستمر هنا، أما إذا لم يكن، فسأعود على الفور.

-على العموم مكتبي تحت أمرك وقت ما ترجعي.

-حضرتك مش عارف إنت بتمثّل لي إيه؟ يكفي إن كل حاجة وصلت لها وبقيت فيها، بفضلك، أنا من غيرك ما كنتش أساوي أي حاجة.

-لو ما كنتيش تساوي، مكنتش دورت عليكي وساعدتك، إنتي كنت حتة دهب محتاجة تتوضب عشان تظهر ويبان بريقها.

أسعدها كلماته فابتسمت وهي تقول: ولولا المكتشف لما كانت قطعة الذهب.

لم يمض أسبوع حتى استدعاها جيرارد، ليزف إليها خبر تعيينها مدرسة بكلية الحقوق، خرجت صفاء من الكلية وهي تعدو، وفي الشوارع كادت ترقص من الفرح، إنها تحقق أحلامها كلها في لحظة واحدة بفضل جهدها ومثابرتها.

اتصلت بأهلها تبشّرهم، فطلب أبوها أنْ يراها، له خمس سنوات لا يرى سوى صور لها، فوعدته بالحضور في أقرب فرصة، حيثُ إنها لا يمكن أن تأخذ إجازة وهي لم تتسلم التعيين بعد.

وكلّمت الدكتور سيد الذي فرح كثيرًا من أجلها، وتمنى لها مواصلة نجاحها ووعدها برؤيتها عما قريب إن شاء الله، وحدَّثت كذلك الأستاذ سعيد معلمها الأول، فهي أبدًا لم تنسه، وعلى اتصال دائم به، وكم فرح الرجل لأجلها.

استلمت صفاء عملها بالجامعة، مدرّسة لمادة القانون الدولي، وفي صباح أول أيام عملها بالجامعة، وقفت أمام مرآتها وهي تقول: صحيح يا بت يا صفاء اللي إنتِ فيه ده؟ بقى إنتِ بنت النحار اللي عاشت طول عمرها خايفة اليوم الجديد يجي لاحسن ما يكونش مع أبوها المصروف اللي هتدفعه تمن أكلها ولا مواصلاتها؟ معقول يا صفاء النهارده أستاذة في أكبر جامعات فرنسا ومرتبك ماوصلوش عقلك في يوم؟

كان إحساسًا بالفخر والزهو لا مثيل لهما، اتصلت بأهلها في أطول مكالمة أجرتها معهم منذ سفرها قبل سنوات، أخذت تصف لهم ما آل إليه حالها حتى أنَّ أباها بعد انتهاء المكالمة، قام بتوزيع الشربات علي كل أهل الشارع، ذلك الشارع الذي كانت أمنية صفاء أن تخرج منه للأبد.

وأمسك فتحي كوب الشربات وهو يرى صورتها تنطلق منه، وابتسامتها التي طالما أسَرَته، فقال لأبيها: وزع إنت الشربات وأنا هسقيهم حاجة ساقعة على حسابي.

فنظر الرجل إلى عيني فتحي، وهو يدرك ما بداخله، وابتسم له ابتسامة تقول له: عارف باللي جواك بس بإيدي إيه؟ ولم ينطق، وترك ابتسامته تقول ما عجز اللسان عن قوله.

واحتسى فتحي كوب الشربات ووزع زجاجـــات الميـــاه الغازية، وانطلق لمترله الذي كان يستعد لزفافه، ودخل حجرته وأغلقها خلفه، عاد ليتجرع أحزانه ويستعيد ذكرياته، كم تمنى أنْ يسمع صوتها ولو لمرة واحدة! وتراها عيناه ولو لثانية! ولكن كيف؟؟

واستيقظ من غفلته على صوت أمه وهى تناديه: يا عـــريس هتعبك، بس عايزين يا ضنايا باكو شاي ومحدش من إخواتـــك هنا.

-حاضر يا أمّه هروح أهو.

لقد انقضى مرور عام كامل منذ أنْ تمت خطبـــة فتحـــي، وكان قد اتفق مع والد عروسه على أنْ يتم الزفاف بعد عـــام دون زيادة، واقترب موعد الزفاف، وزاد معه اضطراب فتحي، فهو بعد لا يتصور ألا يكون مع صفاء، وأنّ هناك امرأة أخرى سوف تكون بديلة لها، وأخيرًا أتى يوم الزفاف في اليوم الـــذي حدده فتحي بنفسه في شهر ديسمبر، في منتصفه بالضبط، بعد خمسة عشر يومًا من مولده، أي يوم ميلاد صفاء! لقد اختـــار اليوم وهو يعرف السبب، أراد أنْ يكون يوم زفافه دائمًـــا في فكره، لأنه لن ينساه أبدًا، ولتكون مشاعره في هذا اليوم دائمًا متأججة، فلا تكتشف زوجته يومًا أنه ليس معهـــا أولا يهـــتم بيوم كهذا، فهي تحبه بشدة، كما أنها طيبة بدرجة يصعب معها أن يجرحها، وكان حفلاً رائعًا جميلاً مبهجًا، لم ينقصه سوى أنْ

يبتسم العريس من قلبه، وليس تلك الابتسامة الباهتة التي بين حين وآخر يرسمها على وجهه.

وانتهى الحفل، ودخل العروسان شقتهما، ودلفا لحجرتهما، كانت فاطمة تقف في منتصف الحجرة بينما هو يقف قرب بابها كالمتردد هل يدخل أم يخرج، ثم التفت إليها، فإذا به وجهًا لوجه أمامها، ورأى الدنيا كلها تسطع فجأة، فخطا نحوها واحتضنها، حتى كاد يعتصرها بشدة، فإذا بها تخاف وتستملص منه وتقف بعيدًا، مرتعدة، يتصبب منها العرق، فيفيق ليجد النور الساطع قد انطفأ، واكتشف أنها فاطمة وليست صفاء، فربت كتفها ليطمئنها، فوجدها تنتفض، فترك الحجرة وخرج آخذًا بيجامته معه وأغلق بابها خلفه.

فبدلت ملابسها وخرجت من الحجرة لتجده في المطبخ فقالت: عايز تتعشى؟

-لا، أنا بس عايز شاي.

-طيب سيبني. هعمله أنا.

-لا، إنتي عروسة تقعدي هانم، وما تعمليش حاجة أبدًا.

-إزاى بس؟

-زى ما بقول ولا إنتي مش عايزة تسمعي كلامي؟

-هو أنا أقدر، وصمتت برهة ثم قالت: بس تتعشى قبل الشاي.

-ماشي يا ستي حاضر.

وتناولا عشاءهما سويًا، وفي أثناء احتسائهما الشاي قال: أنا آسف على اللي حصل من شوية.

-ما حصلش حاجة، وضحكت وقد اكتسى وجهها بحمرة الخجل.. فأمسك بيدها وطبع عليها قبلة رقيقة.

وبينما كان فتحي غارقا في العسل، كانت صفاء تحتفل بعيد مولدها مع أصدقائها، وبداخلها هاجس تجاه فتحي، ولكنها حاولت التغلب عليه، وعدم السؤال، فلقد أدركت ما يحدث وعرفته وخشيت أن تسأل، كفاها هاجسها ولا حاجة لأن تتأكد فيزداد عذابها، ولكنها تساءلت لماذا في يوم مولدها؟!!

وانشغلت بعملها، لتثبت فيه جدارتها، واكتشفت شيئًا كان خافيًا عليها وهو قدرتها على التدريس والشرح، لم تكن صفاء تدرك أنها ليست محامية جيدة فقط، وإنما هي كذلك محاضرة رائعة وممتازة، في أشهر قليلة استطاعت أن تجتذب الطلبة إليها وتكون أستاذتهم المفضلة.

وانطلقت في عالم النجاح يومًا بعد آخر، وتركت مكتب المحاماة الذي تعمل به لتفتح لنفسها واحدًا خاصًا بها.

وكان إبراهيم خلفها مشجعًا، فقد كان غارقًا في هواها، إلا أنه يخشاها، كلما اقترب منها خطوة، ابتعد ميلاً، فهو يدرك أنَّ قلبها لا يمكن أنْ تهبه لأحد مهما حدث، إنَّ قلبها مع من أحبه.

قلبه فقط هو الذي يعشق، ولا سبيل له معـــه، فكيـــف إذا وقعنا في الحب يمكن أن نفر منه؟!

وخُيل لإبراهيم أنها نسيت محبوبها، فبدأ يترك العنان لنفـــسه ولا يقف عائقًا أمام هواه، فاندفع بكل قوة نحوها حتى شعرت بهواه يطوقها من كل جهة، ولم يكن في مقدورها الفرار، كما لم يكن بمقدورها الإنكار بأنها تشعر بالنشوة والسعادة معـــه، يكفي ما تحسّه حين تقف أمام مرآتها، وتتذكر كلماتـــه الـــتي تشعرها بأنوثتها وكونها امرأة.

رغم النجاح الباهر وطموحها الكـــبير، وجـــدت نفـــسها تتعجب سعادتها من بضعة كلمات بسيطة تجعلـــها تطـــير في السماء، سعادة تختلف عن سعادتها بنجاحها، وكأنهما يسيران في طريقين، لكلٍ منهما اتجاه وسمة تميزه ولا غنى لأحدهما عـــن الآخر، فهي لن تتخلى عن طموحها، ولا تستطيع أن تتبرأ من كونها امرأة بحاجة لرجل يُفجر طاقتها كأنثى ويـــشبع فيهـــا رغبتها في الهوى والحياة.

لذا أخذت قرارًا مع نفسها، أنْ تندفع نحو إبـــراهيم بكـــل طاقتها، وأنْ تتناسى فتحي، وتعيش كما عاش هو، لقد علمت بأنه تزوج وزوجته حامل أيضًا، لم يعيش هو ولا تعيش هي؟! سؤال بدأ يزلزلها، إلى متى ستظل أسيرة عواطفها تجاهه؟ كيف هربت منه ومازال طيفه يقيدها؟

مضت أشهر، وهي مع إبراهيم كحبيبة، وليست صـــديقة تسعد بكلمات غزله لها، وعباراته الرقيقة، بل وتحثه علـــى أنْ يُزيد منها.

كان فتحي يعيش حالة صراع مستمر، إنَّ زوجته تبذل مـــا في وسعها لتنال رضاه، ولا يُنكر أنَّ بداخله شيئًا نحوها، ولكنْ صورة صفاء وحياته السابقة معها، ما زالـــت تحـــول دون أنْ يكون كلية لزوجته، التي تعشقه بكل كيانها.

بل إنَّ مولوده السعيد، أو بمعنى أصح طفلته السعيدة، أسماها صفاء، ليظل حبيس هذا الاسم وصاحبته طول العمر، ورغـــم معارضة والدته إلا أنه أصّر أن تكون ابنته باسم أعـــز مخلوقـــة لديه.

كل هذا وصفاء تظن أنه نسيها، ولا تعرف كم هو مُعذب بهواها!

في إحدى الليالي الصيفية الجميلة، التي تنتعش لها بـــاريس، كانت صفاء مع إبراهيم في واحدة من نزهاتهمـــا، تتـــشابك أيديهما، وكالعادة كان يبثها غرامهُ وفي غفلة منها تلامـــست شفتاهما وذهبا في قبلة طويلة، كانت أول قبلةً في حياتها، أفاقت منها وهي خجلة توارّي وجهها عنه، وهي تقول: كـــده يـــا فتحي تخليني أعمل كده؟

هنا أفاق إبراهيم من نشوته على تلك القنبلة التي انفجـــرت في وجهه لتوها، وهو يصرخ: فتحي أنا مش فتحي... مـــش فتحي ومش هكون.

وانطلق بعيدًا عنها، وتركها وحدها والدموع تنهمر من عينيها، إنه ما زال عائقًا حائلاً بينها وبين أي رجل، لن تنساه ولن تستطيع أن تكون في حضن سواه، إنه اللعنة الأبدية التي تحيط بها.

ليه يا ربي كده؟ أنا عملت إيه في دنيتي عشان أتعذب العذاب دا كله؟ ليه كل واحد أعرفه يبقى في نظري هو؟ ليه؟ ليه هو عايش حياته واتجوز وخلف وأنا مش قادرة أعيش حياتي زيه ويبقى لي بيت وأولاد؟ وأتاها من داخلها صوت يقول بكل قوة: ألم ترفضي يومًا هذا البيت وهؤلاء الأولاد؟ ألمْ تقولي إنهم ليسوا شيئًا، والمهم هو الطموح؟ وها أنت قد أخذت ما تمنيت، لماذا تريدين أخذ كل شيء؟ و لم الطمع؟

-ولكني بحاجة لرجل آنس إليه، وأفرح معه وبه، تدغدغني كلماته وتشعرني بأنوثتي، لمسته تحيي مشاعري الساكنة، كانت أجمل لحظاتي حين كنت في حضن إبراهيم ولامست شفتاي شفتيه، تلك القبلة التي لم أتذوق مثلها من قبل، وما أجملها، ولكني أفسدتها بظني أن صاحبها هو فتحي، ولكنها أمنية قلبي أن يكون فتحي صاحبها، فهو وحده من أشعر بنشوة الحياة معه، وبمعناها وهو إلى جواري، لقد اكتشفت أنني لم أضحك من قلبي و لم أحزن حزنًا عميقًا على أحد تألم أو رحل، إلا حينما كنت معه، مع حبيبي.

أما الآن فكأنني لا أحيا، ولا أعيش، لقد أتيت إلى هنا وتركت خلفي إحساسي بالحياة، ومشاعري، وكل شيء يجعلني حية، تركته حيث هو.

-إذن عودي يا صفاء عودي إليه..........

-كيف؟ هل أترك عملي الذي يحسدني عليه كثيرون؟ وإذا عدت ماذا سيكون حالي وقد تزوج من أخرى؟ لمن إذن أعود؟ لا أستطيع!

-هل عرفت الآن أن المرء لا يستطيع أن يحيا بمفرده؟ هل أدركت أنه مهما وصل المرء في حياته إلى المجد والشهرة، فإنه يظل بحاجة لنصفه الآخر ليحيا؟ هل ذقت برودة فراشك وعلمت كم هو عذابه؟

-كفاكِ تعذيبًا وتقريعًا لي، أنا لا أحتمل.

وأخذت تبكي وتبكي، وأصرّت أن تعتذار لإبراهيم مهما حدث، وتطلب منه الصفح، وتعده بمحاولة نسيان فتحي، وأقدمت بالفعل على ذلك، ولكنه لا يرد على تليفوناتها أبدًا، فذهبت إليه ووقفت أمامه والدموع تبلل عينيها، ولكنه لم يصفح، وصرخ في وجهها قائلاً: ابعدي عني، مش عايزك، كفياكي خداع بقى!!

-أنا ما خدعتكش، إنت كنت عارف كل حاجة من الأول.

-أوهمتيني في الفترة الأخيرة إني كل حاجة في حياتك.

-هي دي الحقيقة بجد.

-كدابة لا يمكن أقدر أصدقك، قلت لك ابعدي عني وعن حياتي.

قالها وأدار لها ظهره، فخرجت محرجة متألمة، ومرت أيــام وهي تتجرع كأس مرارها وحدها، حتى قابلت حسنة وماري في أحد الأيام، وكان قد مرت بضعة أسابيع، وسألتها متعمدة عن إبراهيم، فأخبرتها حسنة أنه ترك باريس وذهب للعمــل في ليون، دون أن يفهم أحد لماذا فعل ذلك!

وصمتن قليلاً ثم قالت حَسنة: إذا كان فيه حاجة حــصلت بينكم قولي يمكن أقدر أصلح.

وأتبعتها ماری: أي شيء مهما كبر أو صغر يمكن مداواته.

سكتت صفاء و لم تعقّب.

فقالت حسنة:سكوتكم دا هو اللي مكبر المشكلة.

قالت صفاء: سيبوه يعمل اللي هو عايزه مادام فيه راحته.

ماری: ومين قال إنه مرتاح؟

صفاء:وما أدراكِ؟

حسنة: أصلك ماشفتيهوش كان عامل زی ورقة شــجر في الخريف!

سمعت صفاء كلماتها وقد آلمها هذا الوصف، فأخذت حقيبتها وقامت مسرعة، إنّ إبراهيم شخص رقيق، ما كان لها أنْ تجرحه أبدًا، "ولكني لم أقصد جرحه لم أقصد" قالت ذلك لنفسها.

-ماذا أفعل لأكفر عن ذنبي؟

-تعرفي أنا حاسة إنْ ربنا عمل كده عشان يخلصه منك ومن أنانيتك الزايدة عن حدها دي، يتألم دلوقت شوية وبكره ينسى.

-طب وأنا؟

-ليكي ربنا يمكن يغفر لك.

كعادتها دائمًا، دفنت نفسها في عملها إلى أقــصى درجــة حتى تنسى مشكلاتها، وانعزلت بعض الشيء عــن أصــدقائها الذين هم أصدقاء إبراهيم، مع أنها كانت في شوق لأن تتسمع أخباره.

تشاغلت بعملها في الجامعة، ومكتبها ولقاءاتها مع المصريين المقيمين هناك، تلك الطبقة المطحونة التي تشقى من أجل لقمة العيش، وتتحمل الغربة من أجل أناس تحيا على نقودهم.

فهذا أحمد يعمل في أحد الفنادق، ليجمع القــرش فــوق القرش لكي يتزوج وتكون له أسرة يستقر معها، ويستظل بها، وهذا عبد المنعم الذي يبيع الزهور في الصباح وبعد الظهر يعمل جليسًا للأطفال أحيانًا، أو أي عمل يُدر عليه مالاً، لكي يعود بما يكفي لتُجري زوجته عملية تغيير صمامين في القلب، وحتى تتزوج ابنته، وغيرهم، هؤلاء الناس كم تشعر صفاء بهم بشدة! لا لشيء سوى أنها منهم وأنَّ حياتها قبل أنْ تأتي إلى هنا كانت تشابه حياتهم.

وعادت بذاكرتها للوراء عندما كانت صغيرة، ويومية أبوها في الورشة بضعة جنيهات، لا تفي احتياجاتهم، وخاصة مع أمهــا المبذِّرة وتذكرت حين كانت بحاجة للكتب الخارجية، ولم يكن في مقدور أبيها توفيرها لها كلها، وكذلك لم يكن مع فتحــي، فحاله أصعب منها، فكانا يشتريان كتابًا واحدًا ويقتسمان ثمنه،

ولم يكن باستطاعتهما أخذ دروس خصوصية في أي مادة، كم تحملا اضطهاد المدرسين وإهاناتهم لهما لأجل هذا! بالإضافة لكونهما دائما ممن يقفون في الفصل، ويتم تقريعهم بالكلام اللاذع، لأنهما من المتأخرين في دفع مصروفات المدرسة، والكثير من الأحوال المعيشية الصعبة التي عايشتها والتي تجعلها تشعر بهؤلاء الناس، لذا كانت دائمًا إلى جوارهم، عونًا لهم، ونجدةً تحل مشكلاتهم بفضل.صلاتها ودراستها للقانون الدولي العام، الذي هو أحد فروع القانون العام الذي يتضمن القواعد التي تنظم العلاقات التي تنشأ بين الدول، أو بين الدولة وهيآتها العامة من ناحية والأفراد من ناحية أخرى.

سارت الأيام بها وقد أخذت عهدًا على نفسها ألا تسمح لرجل أيا كان أن يخترق حياتها، وكفاها ما حدث.

كان فتحي يشعر بالدنيا قد ابتسمت له منذ أنجب طفلته صفاء، أو صفصف كما يناديها، وكما كان ينادي محبوبته، لقد عاد الابتسام لوجهه المتجهم دائمًا وعادت عيناه تلمعان من جديد، ولكنهما أبدًا لا تلمعان إلا لها، ولا تبتسمان لسواها، إنه يعود معها طفلاً صغيرًا يلهو معها، ولم يعد يمضي يومه كاملاً في الورشة كما كان يفعل، بل صار لزامًا عليه أن يأتي في الرابعة عصر كل يوم ليراها، وما كان أشد حزنه عندما كان يجدها نائمة، فيعود للورشة وهو حزين، لأنه لم يداعبها، وكثيرًا ما كان يخرج بها لأي مكان حتى للورشة، لم يزعجه يوما بكاؤها في عز نومه بعد عناء عمله، بل كان يقوم قبل أمها ليُسكتها ويهدهدها، ويحرك سريرها الذي صنعه بيديه خصيصًا

لها، ولا ينام إلا إذا نامت، ولكم اشتعل قلب أمها غيرةً منـــها، ولكنها كانت أعقل من أنْ تتكلم، أو تتحدث معـــه في هـــذا الموضوع، فتجر على نفسها مشاكل لا حصر لها، ولا سبيل لها معها، ولكنها سعيدة لأنها عرفت الوجه الحقيقـــي لزوجهـــا، الوجه الخفي عنها، هذا الطفل البريء الساكن خلف واجهتـــه الصلبة المتجمدة، والتي لم تكن يومًا كذلك، فهي لم تعرفه حين كان ذلك الشاب الضاحك الباسم الذي يشيع في الدنيا كلـــها أملاً ونورًا وراحة، إذا غدا أو راح أو حتى تكلم.

ولكنه لم يعد باقيًا منه سوى أحزان تطل من عينيه وصلابة تنبع من ألمه.

وفى مساء أحد الأيام، كان كعادته مع طفلتـــه الـــصغيرة، وكان قد أتى لها بألعاب كثيرة، فقالت فاطمة وهى تنظر إليـــه نظرة ممتلئة بالحب والحنان والعطف وبكلمات لا تخلو من الرقة الممزوجة بالعتاب: يا سلام لو تبقى مع كل الناس زى ما بتبقى معاها.

رمقها بنظرة سريعة ثم عاد بوجهه لطفلته، فلقد فهم ووعى ما تقصده، فعادَ الألم يتسرب له، لأنَّه يَعلم أنه يظلمها في كل يوم ألف.. ألف مرة، يكفى أنه يكون معها وهو في قرارة نفسه يعتبرها صفاء، ودائمًا لا يراها ولا يرى ملامحها وإنما ملامـــح محبوبته حتى وهى في حضنه، ولكم يعذبه ضميره! ولا حيلةَ له.

وحينما وجدته زوجته عاد لحزنه، و لم يعقب عليها قالـــت: أنا آسفة يا فتحي ما أقصدش أضايقك.

-بتتأسفي على إيه؟ هو إنتي عملتي حاجة؟

-كلامي ضايقك.

-إنتي عمرك ما تضايقيني، وهو فيه نسمة تتعب حد ولا تضايق حد؟

ابتسمت في خجل وهي تقول: نسمة؟ أنا؟! ربنا يخليك لي.

-إنتي بس اللي مش عارفة قيمة نفسك، هو إنتي لو ماكنتيش نسمة كنتي تستحملي واحد زيي؟

-وإنت مالك بقى؟ ده إنت أحسن واحد في الدنيا دي.

-الله يجبر بخاطرك.

-والله بتكلم جد، إنت مش عارف إنت بالنسبة لي إيه، ده أنا نفسي أصرخ بعلو صوتي وأقول أنا بحب الراجل ده وهفضل أحبه لحد ما أموت.

خرجت زفرة قوية من صدر فتحي، وهو يجز على شفتيه ويغمض عينيه، إن أي رجل لو سمع هذا الكلام من امرأته لطار من السعادة، ولكن كلماتها تذبحه، هواها هذا يقتله، ليتها لم تكن تحبه، كان أهون عليه، إن عذاب هواها لا يقارن بأي عذاب، كلما شعر بحبها له، عذّبه ضميره حتى صار كالسياط تضرب بلا رحمة.

اقتربت منه وقالت: مالك يا فتحي؟ فيك إيه؟

-أبدًا.. مفيش حاجة.

-نفسي تفتح لي قلبك، وتحكي لي اللي مضايقك، وأمسكت يده ولثمتها، ثم تابعت: أنا مراتك يا فتحي، مش حد غريب.

قَبَّل جبهتها وضمها لصدره وهو يقول: عارف، وعارف كمان إني مليش حد غيرك إنتي وصفصف ربنا يخليكم ليل.. بس صدقيني مفيش حاجة.

-على راحتك يا أبو صفاء.

-الله جميلة الكلمة دي، أول مرة تقوليها لي والنبي قوليها كمان.

-أبو صفاء.

ونهض فتحي وحمل ابنته وأخذ يدور ويلف بها وهو يقول: أبو صفاء، أبو صفاء، ويضحك وتضحك زوجته وهي تشاركهما لهوهما.

لم يكن يَخفى على الزوجة الشابة المتعلمة أنَّ بحياة زوجها حبًا ضائعًا، ذهب بقلب زوجها للأبد، وأنها مهما فعلت فلن تسترده، وبمعشيتها في حي زوجها وبقليل من الجهد، ربطت بين الأشخاص والأحداث والحكايات القديمة التي يتندرون بها على زوجها، التي كان القاسم المشترك فيها اسمًا واحدًا، اسمًا رفضت يومًا ما أمه أن تتسمى ابنتها به، وأمام إصرار زوجها سُميت البنت بهذا الاسم، إنها صفاء التي بعمر زوجها والتي

درست معه بنفس الكلية، ولكن أين هي صفاء؟ سؤال تـــردد داخلها، و لم تتردد في أن تسأل: أين هي صفاء؟

جاءها الإجابة، علمت كم أن زوجها مجروح، وارتضت أنْ تعيش إلى جواره وهو لا يُحسها على أن تعيش بعيـــدًا عنـــه، وتتجرع ألم فراقه وهو حبيبها، ارتضت أن تتعـــذب دون أنْ يعلم أحد معاناتها، ولكنه كان يعلم ويتعذب من أجلها، وكم تمنى أن ينتزع قلبه من داخله ويلقى به بعيدًا! حتى ينتزع حب صفاء منه، ويزرع بداخله حب المرأة جميلة المـــشاعر، حلـــوة المعشر، المضحية التي تعيش معه، تلك المرأة الـــتي رفـــضت أن تعمل بشهادتها لأجل أن تتفرغ له ولبيتها.

أواه منك يا صفاء جرحت قلوب كثيرين، وكم من معذبين تركتهم وراءك وفى طريقك تمضين!

كان قد مر عام على فراق صفاء وإبراهيم، حـــين دعتـــها حسنة لحضور حفل زفافها إلى رجل مغربي مـــن المقـــيمين في فرنسا، تعرفت عليه من مدة قصيرة، وسرعان مـــا وقعـــت في هواه، أو أنها شعرت به يروقها ونظرت لسنها وأن العمر يمضى من بين يديها، فقررت ترك حياة اللـــهو لحيـــاة الاســـتقرار والزواج.

.وفى الحفل رأته، كان كما هو حين عرفته أول مرة، وقـــد عادت الأحزان تُطل من عينيه، حاولت أن تقترب منه وتحدثه فأتاها حديثه باردًا غير مَعنيّ بها، كأنها لم تكـــن شـــيئًا علـــى

الإطلاق في حياته، تعالى على أحزانه معها، بل إنه كان قادمًا وفي صحبته امرأة فرنسية قال: "إنها خطيبته"، وشعرت صفاء أنه تجاوز الأزمة مثلما فعل ليونيل، ولكن كلٌّ بطريقته، لقد حضر ليونيل حفل الزفاف أيضًا، صار ليونيل مسلمًا متعمقًا في الإسلام حتى إنه بنى مسجدًا في باريس ملحقًا به مركز تعليمي، وصار شغله الشاغل الإسلام والمسلمين، وسخَّر مكتبه للدفاع عن قضايا المسلمين المتهمين بالإرهاب والمهضوم حقهم في بلاد أوروبا، إنها لسعيدة به حقًا، وبمعرفته، حتى لتعترف بأنه أفضل مَن عرفت على الإطلاق، ورغم أنه كان صريحًا مع نفسه في أنه لا يستطيع نسيانها، إلا أنه بعد فترة من التأمل، أعاد علاقته بها في حدود الزمالة والاستفادة من محامية متميزة مثلها، وقد دعاها لحضور مناقشة رسالة الدكتوراه خاصته، والتي كانت قبل أشهر قليلة من هذا الحفل.

ولأن حسنة هذه مجنونة فعلاً، فلقد أقامت حفل زفاف مغربيًا خالصًا في قلب العاصمة الفرنسية باريس، وارتدت أزياء غريبة وفقًا للتقاليد المغربية، وبعد الحفل سافرت إلى المغرب لقضاء شهر عسل على الطريقة المغربية أيضًا، وأجمل ما فيها أن ما تريده تنفذه دون تفكير أو تعقل دائما تفعل ما تريد.

بعد الزفاف، أوصلها ليونيل أو أحمد إلى منزلها، وفي تلـــك الليلة شعرت صفاء بأنها قد تخلصت من وزرها تجاه إبـــراهيم، كما تخلصت من وزر ليونيل من قبل، شعرت بالصفاء النفسي على الرغم من نظرة الشجن واللوم والعتاب والألم التي كانت في عيني إبراهيم، وقد أيقنتها فعلاً، ولكنها تشعر بالارتياح رغم كل شيء.

ومرت أيام بعد الزفاف حين كانت في مكتبها دلـــف إلى غرفتها رجل قال لها: السلام عليكم ورحمه الله.

ردت التحية وهي باسمة: وعليـــك الـــسلام ورحمـــه الله وبركاته.

لقد كان ليونيل، تلك أول مرة يزور مكتبها وقـــد أبـــدى إعجابه الشديد بذوقه الرفيع، رحبت به أشد الترحيب، جاءها ليعرض عليها قضية مهمة أراد أن يأخذ رأيها فيها فقـــال: "لم أجد سواك يُسدي إليّ النصيحة في تلك القضية".

-أنا تحت أمرك في أي شيء.

وجلسا معًا، تباحثا كثيرًا في كل ركن من أركان القـــضية، حتى شعرا أنهما استوفيا كل شيء، ولم يعد هناك شيء بـــاق، كما أنهما أحسا صداعًا فجلسا يشربان فنجاني قهوة قبـــل أن ينصرف.

ضحك أحمد وهو يقول: تعرفي يا صفاء أني مدين لك بدين كبير جدا لحد دلوقتي مش عارف إزاي أرده.

-دين إيه يا ترى؟؟

-أنا مدين ليكي باللي أنا فيه دلــوقتي، حيــاتي الجميلــة، والسعادة اللي عايش فيها وراحة بالي وارتياحي النفسي وصفاء قلبي، كل ده إنتي السبب فيه.

-أنا؟ طب دلني عملت إيه لك عشان أعمله لنفسي؟!!

-إزاى مش عارفة، مع إنك دلتيني على الطريق؟ وزفر زفرة قوية حاملة الكثير والكثير من الإعجاب وهو يقول إنه الإيمــان والقرب من الله عز وجل، لكم أشكرك واعترف بفضلك!!

-تشكرني على إيه؟ "إنك لا تهدي من أحببت ولكــن الله يهدي من يشاء" لقد كتب الله لك الهداية، وكنتُ سببًا فقط.

وصمتا برهة قبل أن تُكمل: تعرف إن المركز بتاعك جميـــل قوي؟ أنا زرته أكثر من مرة وصليت في الجامع.

-صحيح عجبك؟!

-جدًا.. أنا بتابع كل أخبارك، وحضرت كتير من القضايا اللي بياخدها مكتبك.

-غريبة عمري ما شفتك.

-إنت طلبت مني إنك ما تشوفنيش مرة ثانية.

-تعرفي أنا مُشفق عليكي أكثر من إني أكون غاضب منك؟

-مُشفق عليا؟!

-مسألة الغضب منك حسمتها من فترة، قبل ما أدعيكـــي لحضور مناقشة رسالة الدكتوراه بتاعتي، وأخذت مـــن هـــذه المناسبة فرصة لإنهاء فترة الخصام، أما إشفاقي عليكي، فنابع من تأملي لحالك وإحساسي بعذابك اللي إنتي السبب فيـــه، إنـــتي إنسانة رائعة بكل المقاييس، لكن أنانيتك وحبك لذاتك هـــم سبب معاناتك وهيفضلوا سبب ألمك دائمًا.

-بس أنا............

-عارف اللي عايزة تقوليه، مش بإيديك... صح؟

وقبل أنْ يُعطيها الفرصة لتجيب، أكمل هو: لا.. بإيدك يا صفاء، إنتي فهمت نفسك وعرفتيها... كـــان لازم عليكـــي تحجميها وتقفي حائل بينك وبين رغباتك اللي سبتيها لحد مـــا بقت أقوى منك، جريتي ورا طموحك اللي كان لازم تحذري أنانيته الشديدة، وقدر يسيّرك مش انتي اللي تسيريه، وســـألها فجأة: لسَّه بتحبيه؟

-أحبه! ده هو الهوا اللي بتنفسه.

صمتت برهة ثم قالت بلهجة خطابية بعض الشيء: إنه شيء عجزت عن وصفه أو حتى تسميته يكفي أن أقول إنَّ الحياة معه لها طعم وشكل مختلف لْم أشعر بفرح أو حتى حزن إلا معه كل شيء بدونه لا شيء على الإطلاق.

-إذن عودي يا صفاء، إنتي حققت اللـي حـبيتي عـشانه ارجعي له.

-ما ينفعش.

-ليه؟ لسه سايبة أنانيتك تحكمك؟

-لا أبدًا، بس معدش فيه فتحي اللي بحبه، خلاص نـسيني وتزوج وأنجب، عاش الحياة اللي كان عاوزهـا، أنـا اللـي ماقدرتش أعيش زي ما هو عايش دلوقتي، رضي بحضن غيري، وأنا اللي فشلت إني أكون مع أي مخلوق غيره، كل رجـل في عيني يحمل صورته، أنا بتقطع وأنا بتصوره كل ليلة في حـضن واحدة تانية بايت جنبها، خلاص نسيني ونسي حبي، وطفـر الدمع من عينيها وهي تقول: هو عايش وأنا ميتة.

-ومن قال لك إنه عايش؟ مش يمكن يكون متعذب زيـك بالظبط؟

-يعني إيه؟

-يعني يمكن اتجوز تحت ضغط أهله ورغبتهم في إنهم يفرحوا بابنهم، مش لو كنتي هناك كان زمان أهلك ضغطوا عليكـي عشان تتجوزي؟

-طبعًا.

-أنا أكاد أُجزم إن ما أقوله هو اللي حصل، ألحوا عليـه في الزواج، وتحت الضغط ورغبة الجسد، سمع كلامهم، بس مـا

أظنش إنه عايش يا صوفي، مش عايش، كل اللي حكيتيه عن علاقتكم ومدى امتزاجه بيكي، يخليني أقول إنه لا يمكن يكون حي، عايش ميت مش حاسس بمراته ولا حياته عشان إنتي مش فيها!

-بجد الكلام ده؟ قالته وهى تمسح دموعها.

فضحك أحمد ضحكة عالية.

-بتضحك ليه؟

-عشان اللي إنتي فيه دلوقتي، عندك استعداد تسامحيه وتنسى غضبك منه على طول كده، إنتي فعلاً بتحبيه!

-وعشان بحبه لازم أفضل هنا بعيد عن حياته، كفاني تدمير له ولحياته كفاني تعذيب له وهو أنقى مخلوق على وجه الأرض.

-مش عايزه تشوفيه وتسمعي صوته؟!!!

-أشوفه وأسمع صوته؟ ده أصبح حلمي، طول السنين اللي فاتت كنت بتجنب أنزل مصر أو حتى أتصل بيه، عشان عيني لا تشوفه ولا حتى أسمع صوته، لأن لو ده حصل، ما كنتش اتنقلت من جنبه أبدًا، وخاصة بعدما جربت نار فراقه.

وسرحت بعيدًا إلى حيثُ شباكيهما وصباح الخير التي ينطقاها في صوت واحد، كلما جلسا يتحدثان سويا عبر هاتين النافذتين، كانت صحبته وأصحابه في أحيان كثيرة، لم يكن

يخرج في صحبة أترابه وكان يؤثر الجلوس إليها ومحادثتها هي، وهي كذلك، كان الصاحب الأوحد وأي بنت تعرفها كانت مجرد زميلة، هو سرها وهو جعبتها وهي سره وكل ما يملك أو كان يظن أنه يملك.

وأفاقت على صوت أحمد يقول: إيه؟ رحتي فين؟

- رحت للأيام الجميلة، رحت له، ويا دوب لسّه راجعة.

-قربي من ربنا، صومي، ادعيه يلهمك الصبر والرضا بما كتبه لك، آه لو تعلمي كم أنّ هذا الرضا هو أكبر نعمة من نعم الله في الأرض! إنه شعور كفيل بإحالة الجحيم جنة، والألم فرحًا والعذاب سعادة.

-يا رب..............

تعددت لقاءات أحمد وصفاء بشأن القضية، ثم القضايا التي تلتها، وبدأت تزور مركزه كثيرًا وتستمع للدروس، وبدأت تجد في القرب من الله سلوى لكل آلامها وإن كانت لم تنسَ.

بينما كانت صفاء تتقرب إلى الله وتغرق في عملها وحياتها المليئة بالعمل، كان فتحي يتوسع في عمله وبدأ يأخذ عمليات كبيرة لأصحاب المعارض، وفتح الله عليه كثيرًا، كان هذا رزق مولوده الجديد فادى على حرف الفاء كأبيه وأمه، كان يحلم حينما أراد صفاء زوجة أن يكون أولاده على حرف الفاء مثله وإخوته ولكن حين تزوج أتت زوجته على حرف الفاء بينما لم يستطع أن يسمي ابنته سوى صفاء.

وفرحت العائلتان بالولد، وأخذ البعض ينادون فتحي "أبو فادى" فكان ينهرهم حتى الناس الأغراب أيضًا نهرهم فهو أبو صفاء، أبو صفاء وكانت حجته أنها ابنته الكبرى، وهي أحق بأن يُنادى باسمها فهي أول من رأت عيناه.

بعد أنْ ترك فتحي ورشة الحاج عبد الله تدهور حالها، وخاصة بعد مرض الأسطى محمود الذي أعجزه عن العمل، وأصبح ولده الذي يعمل مع فتحي هو من يعول الأسرة، لذا كان فتحي يجزل له العطاء لمعرفته بالظروف، وقبل بعمل أخوه معه أيضًا، واضطر الحاج عبد الله لبيع ورشته، أكبر ورشة موبيليا في البلد، ولم يكن هناك من مشترٍ سوى فتحي سلامة الذي اشتراها وأسماها ورشة الصفا لصناعة الأثاث.

بعد أنْ فتح الله على فتحي بهذا الشكل، كانت زوجته تُلح عليه ليشترى بيتًا أخر أوسع وأكبر وفى شارع أفضل، إلا أنه

كان يرفض رفضًا باتًا رغم أنّ الشارع يفقد أحبته واحدًا وراء الآخر، فبداية صفاء التي هاجرت ولم تعد منذ أكثر من سبع سنوات، وتلاها أولاد الحاج عبد الله، ثم وفاة كريمة زوجة الشهيد أخو الحاج عبد الله.

لم يعد للشارع طعم، ولا معنى، ولكن فتحي كان يشعر أنّه لو خرج من هذا الشارع فسوف يموت على الفور.

على الجانب الآخر، كانت صفاء قد أعدت بحثًا جديدًا من أبحاثها العديدة، وذهبت إلى البروفيسور جيرارد لتعرضه عليه، فما إنْ رآها وهي تلجَ إلى مكتبه وقبل أنْ تلقى عليه التحية قال: كويس يا صفاء إنك جيتي دلوقت، أنا كنت عاوزك ضروري.

-خير يا دكتور؟

صمت برهة قبل أن ينطق قائلاً: أنا عاوزك تاخدي حذرك من كل اللي حواليكي يا صفاء.

تعجبت صفاء، وعلت الدهشة وجهها وقالت: حذري من إيه بالظبط؟ وليه؟ ممكن حضرتك تفهمني؟

-هيبدؤوا يحاربونك.

-يحاربوني أنا؟ وعشان إيه؟

-أول ما رشحتك للعمل في الكلية، كان فيه ناس متخوفين جدًا من وجود حد جديد، المكان مغلق عليهم من سنين، وأي حد جديد يدخل المكان بيكون من اختيارهم، أما وافد جديد ومن جنسية مختلفة وكمان مسلمة، كان بالنسبة

ليهم صعب، عشان كده كانوا مش عايزينك، ولما اتعينتي كانوا بيتعاملوا معاكي من جانب اللا سلم واللا حرب، على الحياد من بعيد لبعيد، لكن لما سحبتي البساط من تحت رجليهم، بدؤوا يحضروا أسلحتهم.

-أنا عملت إيه لأي حد عشان يحاربني؟

-إزاي بقى؟ أبحاثك المتميزة اللي بتلقى تقدير واحترام الجميع، وكمان تعاملك مع الطلبة اللي بيحبوكي، ونشاطك معاهم، كل ده أصبح بيثيرهم بشكل فظيع، أنا خايف عليكي يا صفاء.

-ما تخافش يا دكتور، في بلدنا بنقول اللي معاه ربنا عمره ما يخاف، ولا يقدر حد يئذيه، وأنا طول عمري ربنا معايا وبفضله وصلت للي أنا فيه، وبفضله هحافظ عليه وهيحميني إن شاء الله.

-بس عايزك برضه تاخدي حذرك.

-حاضر يا دكتور، المهم حضرتك نسيتني أنا كنت جاية ليه.

-إنتي كنتي جاية ليه؟

-كنت جاية آخد رأي حضرتك في بحثي الجديد ده.

-إنتي يا بنتي بتلاقي وقت منين لكل ده؟

-وأنا ورايا إيه؟ مفيش حاجة في حياتي غير العمل، شغلي في المكتب وهنا وبس.

-وحياتك يا صفاء؟

-حياتي عملي، والعمل عبادة.

-لكن هتتعبي، وجسمك يشتكي.

-راحة جسمي في الشغل، أنا عارفاه كويس، أنا اشتريت العمل، وهو اشتراني، ومفيش أَمَة بتهرب من سيدها، ومفيش عاشق يعيش بعيد عن معشوقه.

وحين نطقت الكلمة سكتت، وسرحت بعيدًا، وقالت في نفسها: "انت العاشق اللي عايش بعيد عن معشوقه، بس ده عايش جوايا مش بعيد ولا حاجة".

-صفاء رحتي فين؟

-هه؟ لا أبدًا.. افتكرت حاجة بس.

وجلس الاثنان يراجعان البحث وهو معجب بفكرته، وكل كلمة كتبتها وصاغتها صفاء فيه.

وانصرفت صفاء دون أن تفكر في الحرب التي سوف تُشن عليها ولم تعطها بالاً، وإنما مضت في حياتها بشكل طبيعي، فلا شك أنه إذا أتى شر، فهو اختبار من الله، فلقد قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- (لو اجتمعت الأمة على أن يضروك بشيء فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك) وما كتبه الله فقبوله واجب، ونحمد الله على كل شيء.

وفي مساء هذا اليوم، كانت ستحصل على أجرها عن إحدى قضايا المكتب، ففتحت حقيبتها وأخرجت معظم ما معها وأرسلته بالبريد إلى أسرتها، هي لا تعرف أنّ أباها مريض، ولكنها تعلم جيدًا كم هم في حاجة إلى المال، لذا فهي ترسل كل شهر مبلغًا كبيرًا باسم أخيها سيد، وكان أخوها يصرف المال عن آخره على علاج أبيه.

في أحد الأيام، جلس سيد أمام الورشة وهو مهموم فجاءه فتحي وسأله: مالك يا أبو السيد؟ فيه إيه؟

-أبدًا.. مفيش.

-قول يا راجل خير، أبوك فيه حاجة؟

-لا أبويا بخير والحمد لله.

-أمال مالك يا أخي؟ تكونش صفاء فيها حاجة؟

-لا.. ما أعرفش.

-وحياة أبوك لتقول فيه إيه.. إحنا إخوات يا وله.

-أصل صفاء كل شهر بتبعت مبلغ كبير بيروح كله على علاج أبويا ومتابعة الدكتور، والفلوس ما وصلتش في ميعادها أديلها أسبوع متأخرة، وبعدين صفاء ماتعرفش إن أبوها عيان، وخايف أتصل بيها أستعجل الفلوس، حاسس إنها مش ظريفة.

-وليه صفاء ماتعرفش بعيا أبوك؟

-رغبة أبويا، إنت عارف صفاء روحها فيه، ولو عرفت من الصبح هتبقى هنا.

-أشك.

-ليه يا فتحي؟

-لأن صفاء لسه ما استكفتش.

قالها وأخرج من جيبه حافظة نقوده، وأخرج منـــها مبلغًـــا كبيرًا، مد يده به لصديقه، فأبى سيد أنْ يأخذه وقال: هو أنـــا بفضفض معاك عشان تديني فلوس؟

-هو عيب لما أخوك يديك فلوس؟

-بس.

-خدهم دلوقتي مشّي حالك، وأما صفاء تبعت ابقى ردهم.

-وإن ما بعتتش؟

-يبقى ساعتها يحلها الحلال يا أبو السيد، فكها بقـــى يـــا أخي.

احتضن الأخوان بعضهما وقال سيد: ربنا يخليك ليا.

وفى صباح اليوم التالي مر ساعي البريـــد علـــى الورشـــة، وأعطى سيد الخطاب المسجّل، وبه الحوالة ليصرفها، فابتسم له فتحي وقال: ما ضاقت إلا ما فرجت. يـــلا.. روح اصـــرف الفلوس جري.

اقترب موعد رمضان الذي تستعد له كل أسرة في مـــصر، والعالم الإسلامي استعدادًا خاصًا، فهو شهر ليس كباقي شهور السنة، وإنما نفحة من الإله يهبها لعباده، تعم فيه البركة وتوصل الأرحام، وتكثر الخيرات والصدقات ويسارع الناس لفعل الخير حتى يرضى عنهم ربهم، حتى إن الناس تغبط الميـــت في هـــذا الشهر، لأنه مات في أيام كأيام رمضان، تحدثت صفاء مع أحمد عن شهر رمضان.

فقال أحمد أعرفك منذ سنوات ولكن لم نتحدث يومًا عــــن رمضان، إلا مقتطفات قصيرة، بل إنك كنت تعتزلين الجميع في هذا الشهر.

-هذا في البداية حين كنت لا أعرف سواك، أما بعد ذلك فقد كنت أتشارك معظم الأيام الإفطار، مع حسنة وإبـــراهيم، ودعوت الجميع للإفطار أكثر من مرة، بما فيهم مارى وديفيــــد وفرانسوا.

-وأنا أيضا أفطرت يوما معك.. أتذكرين؟

-بالطبع أذكر.

-أتعلمين إنني قبل إسلامي حين رأيتك تصومين، حاولــــت الصيام مثلك وامتنعت عن الطعام والـــشراب فلـــم أســـتطع وشعرت ببرودة خفية تسرى في جسدي كله و لم أكمل اليوم؟

-والآن؟

-إنها أكثر العبادات حبًا إلى قلبي حتى إنني أصوم غالبًا يومي الاثنين والخميس أسوة بالرسول صلوات الله وسلامه عليه.

-عليه الصلاة والسلام، بس اللي ما زار مصر مــا عــرف رمضان.

-يا سلام!

-رمضان في مصر حياة روح، كل حتة فيكي يــا بلــدي بتنطق في الشهر ده، في بلدنا اللي بتنام من العــشا، رمــضان بيعمل لها حس، فما بالك بالقاهرة والسهرات اللي فيها لحــد السحور والصخب والحياة والناس اللي مالية الشوارع ملــهاش عدد، ومسجد الحسين رضي الله عنه، والندوات الدينية الــتي تعقد فيه وإلى جواره الخان والميدان الزاخر بالبشر! كنا بنشوف الحاجات دي في التلفزيون، وعمري ما شفتها بجد غــير لمــا عشت في القاهرة سنتين قبل ما أجي هنا.

-بقى تبقى بلدك، وما تشوفيش فيها كل حاجــة وكــل شيء؟

- ما يقدر على القدرة إلا ربنا، فيه حاجات كــثير رغــم بساطتها إلا إنها تعتبر بالنسبة لنا رفاهية، مانقــدرش عليهــا، ورغم إني عشت في القاهرة سنتين، برضه مكنتش أقدر أشوف كل حتة فيها، رمضان فيها شكله إيه.

- طب إيه رأيك نتزل مصر يومين أجازة ونرجع؟

-ما أقدرش.

-ليه؟

-لو نزلت مصر مش هقدر أرجع تاني هنا.

-والله العظيم إنتِ غريبة، صمت برهة ثم قال: المهم هنا تفطري معايا طول الشهر.

-إزاى بقى؟ فيه أيام بيبقى عندي شغل في الجامعة لبعد الآذان.

-حاولي تخلّصي بدري شوية، وأنا هستناكي ويوم تعملي الأكل ويوم أنا.

-موافقة طبعًا، ده رمضان تحلى فيه الصحبة، وكمان أخد ثواب إفطار صائم.

وجاء رمضان، وجلس أحمد وصفاء إلى مائدة واحدة وقد أعدت له أشهى الطعام، وجلسا يتناولان إفطارهما وفى أثناء تناولهما طعام الإفطار قال أحمد:

-احكي لي كنتِ بتعملي إيه في أيام رمضان زمان؟

-كان لينا طقوس خاصة، يكفى إني كنت بشوف خالي حسن اللي ماكنش يجيي من قريتنا إلا في رمضان والعيد بس، وخالتي صفاء، وخالتي سامية، وعمى سليمان.

-خالتك اسمها صفاء برده.

-قالوا إني اتولدت على إيديها، فأسماني أبويا صفاء على اسمها، بس تعرف أنا كنت بتضايق من الأيام اللي بتروح فيها عندهم، كنت أحبهم همّ اللي يجونا.

-أنا عارف ليه.

اتسعت عيناها دهشة وقالت: عارف ليه؟

-عشان فتحي مش معاكى.

ابتسمت في خجل وهى تقول: صح، كنت باخده معايا، وأحيانا كان بيتكسف، وكنت بروح معاه عند خالته في البلد، أما باقي الأيام اللي ما فيهاش عزايم، كنا بناكل مع بعضنا كل يوم، أسرته وأسرتنا، زى أنا وإنت دلوقتي، كنا نتجمع على مائدة واحدة.

-جميلة قوى الحياة دي، فيها ألفة ومودة وإحساس.

وقفت صفاء بكل ثبات كعادتها في قاعة المحاضرات تلقى الدروس على طلابها في الكلية، وفجأة رفع أحدهم يده طالبا الحديث، بعد أن أنهت صفاء الدرس، وطلبت منهم أسئلتهم إن صعب عليهم شيء، فطلب هذا الفتى السؤال فقالت: إسأل عن اللي إنت عايزه يا جو؟

-يا دكتور معذرة إن كان السؤال خارج الدرس.

-هات ما عندك.

-هو مش برضه بيقولوا على بلد حضرتك -أنا آسف- من دول العالم الثالث؟

-صحيح.

-وبتبعتوا من عندكوا ناس تتعلم هنا، وترجع عشان تعلم أهل البلد اللي اتعلمتوه عندنا في العالم الأول؟

-أيوه.

-طب ليه حضرتك ما رجعتيش تعليمهم اللي اتعلمتيه هنا؟

-عشان أنا لسه ما عرفتش كل شيء في العالم الأول، ومش هرجع بلدي إلا إذا عرفت كل حاجة تفيدهم بجد، بحر العلم واسع.

-بس كده ممكن السنين تعدي، وتبقى ما عملتيش حاجة.

-على فكرة أنا هنا بفيدهم أكثر، أنا بعمل أبحاث متوفر عنها كل أركانها والأبحاث في عالمنا الآن في متناول الجميع وتنشر في مجلات تصل إلى بلدي وإن لم تصل، أرسلها بنفسي، أنا لست بعيدة عن عالمي، أنا مازلت جزءاً منه، وصمتت قليلاً ثم ضحكت وقالت: غريبة يا جو إنك بتقول كده وعايزني أمشي رغم إنك بتجيب تقديرات كويسة في المواد اللي بدرّسها لك، على العموم أنا هستنى هنا وإن ماكنش عاجبك تدريسي فده كلام تاني نبقى نتفق عليه بعدين.

-لا.. لا أنا ما أقصدش كده.

-كفاية إنت ضيعت وقت زملائك.

وبعد المحاضرة جرى خلفها، هي تعلم أنّ جو فـــتى رائـــع، ولكنه يحب مصلحته كثيرًا، وأكيد أنا من دفعه لإلقاء أســـئلة كثيرة في موضوعات لا تخصه في الآونة الأخيرة هـــم الـــذين يتشوقون لكي تترك رالمكان.

قال الفتى: لم أكن اقصد مضايقتك يا دكتور.

-مفيش مضايقة بس أنا عايزة أقول لك حاجة.

-قولي تحت أمرك.

-إنت شاب كويس ومخك كويس وعارفة إنك بتحـــسب لكل خطوة بتخطيها، لكن متخليش حـــساباتك توقعـــك في مشاكل إنت في غنى عنها، وتحطك وسط ناس ممكن يتخلـــوا عنك لما تقضي لهم المصلحة اللي كانوا عايزينها منك، لأنـــك دلوقتي لا تساوي من وجهة نظرهم غير ورقة يلعبون بها.

-أنا مش فاهم.

-لا فاهم، ولما يبقى عندك عقل وبتفكر، وبـــرغم كـــده مصلحتك تخليك تنقاد ورا ناس مش عايزين مصلحتك، تبقى ما فرقتش كثير عن دول العالم الثالث اللي من كتر احتياجاتها بتجري ورا العالم الأول، يمكن تنول شيء رغم إن ما بيدهاش شيء غير فضلاته.

-أنا متحير.

-أنا مش عايزاك تتحير، أنا عايزاك تمشي صح، في بلدنا مقولة بتقول: "امشي في طريقك عدل يحتار عدوك فيك"، يعني ما تحاولش تسبق الوقت، وتختصر الطرق عشان توصل لهدفك، لأن الطريقة دي ممكن تفتح سكك لأعدائك ولناس ممكن تخطيك، وساعتها تبقى خسرت كل حاجة.

-أنا هافكر في كل كلمة حضرتك قولتيها.. ومن فضلك سامحيني.

-أنا ما أقدرش ازعل من طالب مجتهد زيك، يلا روح شوف محاضراتك. ورمقته وهو يمضي بعيدًا.

لقد أرادوا أن يكون الفتى مصدر قلق بالنسبة لها داخل المحاضرات، ولكنها استطاعت بمهارة، وبقليل من التفكير، أن تكسبه إليها وفي صفها وضمن محبيها، هكذا هي صفاء اعتادت أن تربح كل الجولات ولا تخسر أبدًا.

مضت عدة أيام بعد موقفها مع هذا الطالب الذي فكر جيدًا فيما قالته له، واستطاع أنْ يكسب ودها عن حب واقتناع، وفي نفس الوقت لا يُغضب من دفعوه لمضايقتها، وأيقنت صفاء أنّ الله مازال إلى جانبها، وأنه سوف ينجيها من أحقاد الآخرين ومكائدهم، وواصلت عملها بنفس الثقة والنجاح التي اعتادت عليهما.

في مساء أحد الأيام اتصل بها أحمد، وأخبرها أنه يريد لقاءها في ظهيرة اليوم التالي، فاتفقت معه أن تلقاه في الثالثة من عصر هذا اليوم، بعد انتهائها من محاضراتها في الكلية.

وأنهت صفاء المكالمة وأعدّت لنفسها عشاءً خفيفًا، تناولته وجلست تشرب الشاي ولكنها شعرت بثقل شديد في رأسها وإحساس بالبرودة يتسرب إلى جسدها، فاتجهت إلى سريرها، ودثرت نفسها جيدًا، وغرقت في نوم عميق، لم تصحُ منه، وجاء موعد أحمد و لم تأته صفاء، فاتصل بها في مكتبها فلم يجدها، أخبرته سكرتيرتها أنها لم تأت و لم تتصل، فظن أنها مازالت بالجامعة، فاتصل بها -تلك أول مرة تتأخر عن موعدها، فهي دقيقة جدًا -و لم يجدها أيضًا بل قالوا إنها لم تحضر هذا اليوم، و لم تعتذر.

استبد به القلق، وبدأ يسأل نفسه: "ترى ماذا حدث؟!!" وحاول الاتصال بمنزلها ولا من مجيب، أين أنت يا صفاء؟ سؤال مزق عقله، لم تذهب لعملها وليست بمنزلها، أين هي؟! وظن أن يكون تليفون منزلها به عطل ما فذهب لمسكنها، وسأل حارس العقار، فأكد له أنها لم تنزل هذا الصباح مطلقًا، وهو لم يترك مكانه منذ الصباح الباكر، فقال له أحمد: إنني اتصل بها ولا تجيب، قد يكون بها شيء.

وصعد أحمد والحارس وفتحا الشقة بمفتاحها الاحتياطي وأخذا يناديان عليها وأيضًا لا تجيب، دخلا حجرة نومها فإذا بها مستلقية على السرير، اقترب منها أحمد تحسس رأسها، فإذا بمرجلٍ يغلي ماؤه وتعلو وجهها قطرات العرق كما أنها تنتقض بشدة وترتعد، لقد كانت محمومة.

قال الحارس: دكتور سيزر صعد لشقته توًا، سأناديه.

أحمد:حَسنًا وأنا سآتي بقطع ثلج لخفض الحرارة.

وقام أحمد بعمل كمادات الماء البارد لخفض حرارتها، حتى يأتي الطبيب، كانت تهذي بكلمات غير مفهومة وتردد اسمًا واحدًا فقط، استطاع أحمد تمييزه، أتى الطبيب وكشف عليها سريعًا، وطلب دواءً كتبه بسرعة، وذهب الحارس ليحضره وأتى على الفور، أعطاها الطبيب حقنتين وطلب من أحمد إعطاءها حقنتين مماثلتين بعد ست ساعات، وأنْ يواصل عمل الكمدات حتى تنخفض الحرارة تمامًا، وقال إنه سوف يراها في الصباح.

وظلت صفاء تهذي، وترتعد، وظل أحمد إلى جوارها يطببها، بينما كان هناك من هو قلق عليها يشعر بأناتها رغم بعد المسافات واختلاف الأمصار.

في نفس اليوم الذي مرضت فيه، صحا فتحي من نومه، وهو يشعر بانقباض وقلق فظيع، وتجسّمت صورتها في مخيلته لا تبرحها، وكأنه يشعر بها، ويحس مرضها، وبدا على وجهه التجهم، سألته زوجته عما به، فصمت، ولم يُجبها، ذهب للورشة طالعه وجه سيد أخو صفاء، فسلّم عليه، ثم أخذه من

يده نحو مكتبه وجلس إليه والكلمات تتعثر على لسانه فسأله سيد: مالك يا أبو صفاء؟

كان التردد يمزقه، ولكنه حسم أمره وقال: إنت ما كلمتش صفاء قريب؟

-بقالها كم يوم ما اتكلمتش.

-طب روح اتصل بيها دلوقتي.

-ليه فيه إيه؟

-روح بس.

-حاضر.

وذهب سيد للسنترال، واتصل برقمها وبالطبع لم ترد، كرر المحاولة، ولم ترد، عاد حيث فتحي الذي سأله بلهفة فقال له: إنها لم ترد.

فزاد تجهم فتحي، ثم عاود يسأله: اتصل بيها في شغلها؟

-ما ينفعش.

-ليه؟

-ما أعرفش غير رقم شقتها بس.

-إزاي ده؟

-ما إنت عارف صفاء. ماتخدش منها غير اللي عايزة تديه بس.

-والعمل؟

-نستنى شوية، ونتصل تانى.

ولكن كيف لفتحي اأن ينتظر، وهو يحترق من داخله، قلقه على أشده، إنّ قطعة الخشب تصرخ تحت يده حـتى المسمار الذي يدق عليه بمطرقته قد اعتصره، إنّه عنيف جدًا اليوم، ولا يطيق كلمة من أحد، ليته كان معها ليته يعرف ما ألم بهـا، آه قوية تتردد داخله ولا يستطيع فعل شيء.

اقترب منه سيد وقال: بالراحة على نفسك شوية يا فتحي.

-إزاى أرتاح وأنا عارف إنها تعبانه؟

-أنا هروح أتصل بيها تانى.

-بسرعة والنبي.

وعاد سيد بخفي حنين، وقد اعتراه القلق هو الآخر، وجُـن جنون فتحي، و لم يعرف سيد كيف يهدئه فقال: أنا ما كنتش عارف إنك لسه بتحبها بعد اللي عملته فيك؟

-صفاء ما عملتش حاجة فيا!

-إزاي ده؟

-اللي إنت ما تعرفهوش إن أنا رحت لصفاء مصر أيام مـا كانت بتشتغل هناك، وقلت لها لازم تواصل طريقها وتكمـل نجاحها.

-إنت عملت كده؟! قالها ودهشته على أشدها.

-كان لازم أعمل كده بعد ما شفت أد إيه هي عظيمـــة، وبتحب شغلها.

-تعيش في العذاب ده عشان هي تنجح؟

-عشان أنا وهي زى بعض، إحنا الاثنين حبينا شغلنا أكثر من حبنا لبعضنا، حلمنا كل واحد في مجال مختلف، رغم إننـــا عشنا روح واحدة في جسدين، كنا دايما زى بعض، لحد مـــا دخلنا الكلية، صفاء عشقت المهنة، وحبت تنجح فيها في حين حبيت صنعتي وعشقتها، لا أنا رضيت أتخلى عنها ولا رضيت صفاء تتخلى عن عملها، إحنا الاتنين كنا أنانيين وما حدش فينا رضي يضحى عشان حبه، لكن ضحينا بحبنا عشان شغلنا، أنا عملت اسمي وهي كمان، لكن عمري ما نـــسيتها ولا هقـــدر أنساها، هي كل حاجة في عمري كله، هي ضـــحكتي اللـــي راحت وفرحتي اللي انطفت من يوم بعادها.

وصمتا قليلاً ثم أردف فتحي قائلًا: روح اتصل تاني.

وذهب سيد وعاد كما ذهب دون جدوى.

اعتصر القلق قلبيهما، ولكن ما من شيء يفعلانه فجلـــسا دون حراك أو كلمة، وبعد طول صمت قاطعه سيد قائلاً: يلا يا فتحي قوم روح كلك لقمة، وريح شوية. زمان أم صـــفاء قلقت عليك.

-أروّح أرتاح وآكل؟ وأنا مش عارف هي فيها إيـــه؟ مـــا أقدرش.

-وذنبها إيه مراتك يا أخي دي ست مفيش أختها.

-عارف.

-وبرغم كده معيشها في عذاب، ذنبها إيه تتحمل شـــيء ملهاش ذنب فيه، إنت وصفاء رضيتوا تعذبوا روحكـــم ليـــه تعذبوا غيركم معاكم؟

-حرام عليك يا سيد، أنا مش ناقص.

-طب يلا قوم روّح.

-نتصل بها مرة كمان.

-تعرف إني بدأت أصدقك.

-تصدق إيه؟!!

-إن صفاء فيها حاجة.

-ليه؟

-لأنها برضه بتحس بيك وبتعرف عنك كل حاجة.

-إزاي؟

-فاكر يوم خطوبتك.

-طبعًا.

-تاني يوم الخطوبة الصبح بدري جدًا لقيت تليفونها علـــى غير العادة -عمرها ما بتتصل في وقت زي ده- عملـــت إنهـــا بتسأل علينا وفجأة سألت عنك، وصوتها كان قلقان،تعبان وما

أخدتش بال،ى قلت لها إن خطوبتك كانت امبــارح، قلتــها وملاقتش صوت الناحية التانية، وسمعت السماعة وهي بتتقفل، وما سمعناش منها كلمة إلا بعد ثلاث تيام مــن المكالمــة دي، وعرفت بجوازك لوحدها، وقالت لي أقول لك مبروك، وقالت لي أقولك: "اشمعنى اليوم ده اللي اختارته؟".

-يا حبيبتي يا صفاء، اتعذبت وأنا السبب، آه............ وانسابت دمعتان من عينيه زادتا حرقته عليها.

أمضى فتحي الليلة دون طعام، ودون أنْ يكلم أحدًا دخــل حجرته، وحاول أنْ ينام ولكن بلا جدوى، كانــت زوجتــه مستغرقة في النوم حين جلس على سريره وأســند رأســه إلى ظهره، وصحت زوجته فوجدته هكذا فقالت: خير يا فتحي؟ مالك؟

-أبدًا مفيش حلم وحش.

-استعيذ بالله من الشيطان، واستغفر، ومدت يــدها لــه بكوب الماء فرشف رشفة صغيرة، وأعطاه إياها، ثم ترك السرير وقام.

-على فين؟

-نامي إنتِ.. أنا مش جاي لي نوم.

وجلس ساهرًا، لم يغمض له جفن حتى الصباح،وانطلق نحو الورشة قبل موعد نزوله إليها،وقابل سيد الذي ما إن رآه حتى

ربت كتفه في صمت، و لم ينطق فلم يعد هناك شـــيء يقـــال، ومن نظرته فهم أنه يريد أن يقول اذهب واتصل.

ذهب سيد مرات ومرات إلى أن أمسى اليوم، فذهبا لآخـــر مرة وهنا وأخيرًا ردت صفاء بعد أن أفاقت من مرضها، فلقـــد فصل أحمد التليفون حتى ترتاح وكانت قـــد أفاقـــت لتوهـــا، فقامت متوجهة للحمام لتغسل وجهها وتتوضأ لتصلى ركعتين لله تحمده وتشكره وتتناول الطعام الذي أعده أحمـــد، فلقـــد أمضى يومين جالسًا إلى جوارها.

-"أهلاً يا سيد إزيك يا حبيبي" هكذا ردت عليه بـــصوت واهن.

-إنتي بخير يا صفاء؟

-الحمد لله. ده شوية برد مفيش حاجة.

-يعنى كنتِ تعبانه بجد؟

-وإنت إيه اللي عرفك إني تعبانة؟

-هه؟ أبدًا.. مفيش... الحمد لله إنك بخير.

-فتحي اللي قالك... مش كده؟

-أيوه هو، ونظر لفتحي نظرة تعنى "تكلمها، ولا لأ"؟

تردد فتحي ثم اختطف التليفون من يده، كانت أول مـــرة يحدثها منذ أن سافرت، أتاها صوت زفرته فقالت: "فتحي؟"

تسمر أحمد في مكانه يتسمع كلامها.

قال فتحي: "ألف سلامة".

-"وحشتني" قالتها والدموع تنهمر من عينيها.

فقال: "وإنتي كمان".

ومنعته دموعه من أن يواصل، فألقى التليفون من يده ليلتقطه سيد ويغلق الخط.

أغلقته هي الأخرى والدموع تواصل انهمارها.

"تعرفي إنك غريبة بجد أنا تعبت معاكي"، كانت تلك الكلمات التي صرخ بها أحمد في وجهها، لم ترد عليه فتابع قائلا: إنتي إيه؟ إيه اللي مخليكي راضية بالعذاب ده كله وانت داية دوب في هواه؟ وإنتي محمومة مكنتيش بتنطقي غير اسمه، كلمة واحدة معاه، وشلالات دموعك مش عايزة تقف، عذبتي ناس معاكي عشان حبك ليه، حبك اللي إنتي مش قادرة تنسيه، ليه؟ وعشان إيه؟

-عشان بحب صفاء أكثر.

-صفاء هي اللي بتحب!!

-صحيح صفاء بتحب فتحي، لكن صفاء بتحب صفاء أكثر من حبها لفتحي.

-ولسّه صفاء عايزة إيه بعد اللي وصلت له؟

-مش عارفة، لسّه عايزة كتير، لكن اللي عارفاه إني ما أقدرش أرجع دلوقتي ما أقدرش.

وشعرت صفاء أنها لا تقدر على الوقـــوف، فأعادهـــا إلى السرير وقال: آسف، أنا احتديت عليكي.

-أنا اللي آسفة، أنا تعبتك معايا أكتر من اللازم.

-ما تقوليش كده، إحنا أخوات... ولا إيه؟

-طبعًا.. طبعًا.

انطلق فتحي نحو مترله ودخل حجرة نومه وأغلقها عليــه، وجلس على طرف السرير منكسًا رأســه لا يحــرك ســاكنًا، دخلت عليه زوجته وهى تقول: أنا مش هسألك تاني مالك يا فتحي؟ بس حرام عليك اللي إنت عامله فيَّا وفيك، أنا ملــيش ذنب، يا ريت كان بإيدي كنت ريحتك من اللي إنــت فيــه، لكن مفيش في إيدي حاجة.

أمسك فتحي برأسه وقال: أنــا تعبــان.. تعبــان قــوي، وانسابت دموعه لتراها زوجته لأول مرة، فأخذت رأسه علــى صدرها واحتضنته بشدة، وهى تقول: "سلامتك يا نور عيني، سلامتك، يا ريت كان بإيدى كنت جبت دواك لحد عندك يا عمري يا ريت كنت أقدر".

لم ينطق فتحي، بل ظل في حضنها يــدفن فيــه أحزانــه وتساءل: "يا ترى يا صفاء ما هو حالك الآن وفى حضن مــن ستدفنين حزنك يا مسكينة؟!"

وظلت زوجته -التي هي المسكينة بحق- إلى جواره حــتى نام.

وفى الصباح، لم يستطع ترك السرير، فهو يشعر بوهن شديد حتى إنه تناول إفطاره في السرير، وانتظره الجميع في الورشة إلى بعد الحادية عشرة و لم يأت، فاتصل سيد به في المنزل، فأتاه صوت فاطمة فقال لها: صباح الخير يا أم صفاء.

-صباح الخير يا أسطى سيد.

-فين فتحي أمال؟

-ده تعبان شوية.

-تعبان؟ ألف سلامة، طب ممكن آجي أشوفه؟

-تشرف..البيت بيتك.

وذهب سيد على الفور، ودخل حجرة فتحي ليجده جالسًا على السرير، فقال في انزعاج: مالك يا فتحي؟

-مش قادر أقوم من مكاني.

-عشان إيه ده كله؟ يا أخي حرام عليك مراتك وولادك وشغلك، لو هي مكانك عمرها ما هتسيب شغلها يوم واحد، ولا حد هيحس باللي فيها، اعمل زيها يا أخي، دارى حتى على مراتك دي، ربنا يكون في عونها.

وهنا دخلت فاطمة فقالت: شوف صرفة للأستاذ اللي بيتدلع ده.

-والله عندك حق يا ست فاطمة، بيتدلع، يلا يا راجل قوم، ورانا شغل كثير وطلبات عاوزة تخلص.

-مش قادر.

-لا. هتقدر، دا إنت طول عمرك مهما كان فيك بتشتغل، قوم بس معايا.

وذهب فتحي، وأمسك مطرقته ومسماره وقطع الخشب واستغرق في العمل حتى مر به الوقت دون أن يدري، هكذا هي سلواه ولن يكون غيرها.

صارت الأيام تمضى بسرعة شديدة، وكلٌ منهما يمضى بـه طريقه كما هو، شهور مضت، سنوات مرت، وهما يعمـلان كثيرًا، صار لديه عمال كُثر، وآلات وعدد حديثة، وصار على وشك أن ينشئ مصنعًا خاصًا ويكون لديه معرض خاص بـه، ويكفيه أنّ إنتاجه يُعرض في أكبر معارض القاهرة والإسكندرية بالإضافة لطنطا أول أسواقه والمحلة الكبرى.

سُمية أخت صفاء أصبحت أمًا للمرة الثالثة، وسيد أخوهـا تزوج من أخت زميل له في الورشة، فتاة طيبة تـدعى ثنـاء تصغره بخمس سنوات، وأنجب منها طفلاً أسماه (محمود) علـى اسم والده، أما عزت أخوها الرابع فلقد وجـد عقـد عمـل كمدرس في الخارج، وسافر على الفور دون تـردد، ولم يبـق للأب المسكين المريض سوى زوجته التي يعشقها عـشقًا بـلا حدود، وكم أرهقه عشقها ماديًا ومعنويًا! ولكن ما بيده حيلة فهو يهواها.

أما صفاء فلقد دخلت مع أحمد عالمًا آخر، العـالم الـذي دخله وحده من قبل، عالم النضال والكفاح من أجـل قـضية سامية، مما جعل صورها تحتل الـصحف المـصرية والعربيـة والفرنسية.

ففي صباح أحد الأيام، قابل سيد وهو في طريقـه للعمـل أحد جيرانه الموظفين الذي قال له: يا سـيد، روح اشـتري الجرنان صورة أختك الدكتورة فيه اجري بسرعة الحقه.

وذهب سيد على الفور وقابله فتحي، فسأله عن سر ابتسامته فقال: بص شوف صورة صفاء في الجرنان، أنا هروح أفرّح أبويا، وانطلق فتحي ليشترى كل الصحف، ليجد صورة محبوبته تتصدر الصفحة الأولى والعناوين تسطع باسمها.

محامية مصرية أستاذة في السوربون تدافع بقوة عن الفلسطينيين الذين تم تعذيبهم في سجون إسرائيل، إنها تحاكم الحكومة الإسرائيلية كلها وتضعها أمام القانون في قفص الاتهام، تقدم مرافعات قوية وتستشهد بدلائل وقرائن تحسن من موقفها، وشريكها الفرنسي الذي له باع طويل في مثل هذه القضايا، هكذا أصبحت صفاء بجدها وتعبها طوال سنوات مضت، تحفر فيها الصخر لتنقش اسمها بحروف من نور تسطع دائما في سماء المجد، إن القضية الفلسطينية هي المسمار الذي دُق في النعش العربي منذ حرب عام ١٩٤٨ بل إنها منذ وعد بلفور ١٩١٧ الذي كان وعدًا صريحًا لليهود بأن يتخذوا من فلسطين وطنًا، والذين تدافع عنهم صفاء الآن ما هم إلا زمرة دخلوا السجون شبابًا سُرقت منهم أيامهم وسنواتهم وخرجوا وقد ولى الشباب وضاعت الأحلام ولكنهم ما زالوا يحلمون بالسلام الحقيقي ويأملون في الحق، وهم الآن يطالبون بحقهم ويطلبون محاكمة من عذبهم وسجنهم وأخذ منهم حياتهم.

لقد شعرت صفاء بالمسئولية تجاه وطنها العربي ومشاكله، بعد أن حققت قدرًا كبيرًا من النجاح، إنّ كلمة واحدة من موقعها هذا تكون مسموعة وملء البصر، ولها تأثيرها، ولهذا

قررت أنْ تخوض المعركة مع صديقها الفرنسي المسلم أحمد أو ليونيل سابقًا.

حين رأى الأسطى محمود صورة ابنته في الصحيفة، انشرح صدره، وشعر أنْ جسده العليل قد برأ من مرضه وطاب، فلـــم يكن يحلم يومًا أنْ تصل ابنته إلى ما وصلت إليه الآن، لقد قـــام من سريره وأراد أن يسير في البلد كلها ويقول هـــذه ابـــنتي.. انظروا..هذه ابنتي.

وشاركه فتحي فرحته ورغبته تلك، إنـــه يكـــاد يحتـــضن الصورة حتى يخرجها من الصحيفة ويضمها إليه، كانـــت أول صورة حديثة يراها لها منذ أنْ سافرت، صـــورتها في المطـــار كانت آخر ما علق بذهنه، وقال في نفـــسه: "لم تـــتغيري يـــا صفاء، لازلت كما أنت، بهية، جميلة، لم تزحف السنون علـــى وجهك، فبقي كما هو بشبابه وجماله".

شهرتها الجديدة فتحت أمامها أبواب الحياة أكثر.. وأكثر، فانهال عليها سيل من القضايا الهامة، وأصبح مكتبها الجديـــد وأسطول المحامين الذين يعملون لديها شعلة من النشاط كخلية نحل، وعلى رأسهم جون تلميذها الـــسابق والـــذي حـــاول الحاقدون عليها أنْ يستغلوه ليحيل محاضراتها سيركًا، ولكنـــها استمالته إليها، وبفضل حكمتها وذكائها صار الفتى أهم محـــامٍ لديها، والذراع اليمنى لها.

وذات يوم أتاها عميل مصري، فقررت مقابلته على الفور، دخل الرجل مكتبها، وكانت له هيبة يستمدها من مظهره، فهو

طويل القامة عريض المنكبين له عينـــان عميقتـــان وحاجبـــان كثيفان، عيناه تلمعان بالذكاء، قدّم لها نفسه على أنه جميل عبد الرحمن الجمال، مصري، هاجر قبل عشرين عامًا إلى فرنسا، له أعمال كثيرة ومتعددة وطلب منها أنْ تكون محاميته، استراحت للرجل، وقبلت قضاياه حين استشفت حسن خلقه من خـــلال متابعتها لأوراق معاملاته السابقة، ويكفي أنه مصري.

وإذا بكل معاملات الرجل تتم من خلال مكتب صـــفاء، وتكفّلت بنفسها بكل شيء خاص به، لتتكلم معه بالعربية التي من ضيق وقتها لم تعد تلتقي بالمصريين الذين تعرفهم لتتكلم بها معهم، ثم إنَّ للرجل أسلوبًا ساحرًا يدخل به إلى عقل من أمامه وقلبه على الفور، وهذا الأسلوب جعلها تندمج معـــه بـــشكل غريب وتنسى الوقت وهى معه.

وفى أحد الأيام، طلب منها أن يلتقي بها وعائلته في إجـــازة الأحد، وافقت على الفور علها تشعر بدفء العائلة المفقود.

ذهبت وهى تظن أنها سوف تلتقي بزوجته وأطفاله، فـــإذا بالرجل بمفرده مع طفليه الذين هم في الثانية عـــشرة والحاديـــة عشرة من عمرهما، رامي ومايا، وسألت عن زوجته فاكتشفت موتها قبل أربع سنوات، قضت يومًا جميلاً معهم، فرحة بالأسرة وباللعب مع الصغيرين، وشعرت أنها بداية جديدة لحياة ظنـــت أنها كفت عن الحلم بها، وتعددت اللقاءات وأحبها الطفـــلان، ولأول مرة شعرت بأنَّ هناك من تهـــتم لأمـــرهم ويـــسعدها

وجودها إلى جوارهم، وخاصة بعد أنْ صار كـــل أصـــدقائها أصحاب أسر، حسنة وديفيد وماري جويل، حـــتى إبـــراهيم، وأخيرًا أحمد الذي تزوج من فرنسية أسلمت في مركزه الديني، وأنجب منها طفلة بديعة كأمها وأبيها، ويحيا أحمد حياة رائعـــة بصحبة ابنته فاطمة وزوجته مريم الوديعة. صار جميل وطفـــلاه جزءًا من حياتها، تحرص دومًا على لقائهم ومعرفـــة أحـــوالهم والخروج معهم، ورأت في شخصية جميل الجديد وكذا الطموح والعمل الدءوب، فاحترمته وشجّعته على مواصـــلة نجاحـــه، وساعدته في إنهاء الأمور المتعلقة بينه وبين عملائه بسرعة تحسد عليها. كانت في الأربعين من عمرها حين تعرفت على جميـــل، وحينئذ راودها إحساس بأنه الرجل الذي سوف تقـــضي إلى جواره باقي عمرها الذي بدأ شبابه ينحسر، رغم أنَّ القلـــب مازال يدق لصاحبه، و لم تستجب لجميل إلا حينما أحست من معاملته لها أنه يحبها ويريدها، فبدأت تلين وتتناسى الماضي وإنْ لم تنس، وفاتحها الرجل في أمر الارتباط و لم يـــسألها أو حـــتى يتطرق لأن يعرف لماذا لم ترتبط في السنوات السابقة، و لم تكن هي على استعداد للإجابة إذا سأل.

وذات يوم كانت في مكتبه، تنهي بعض الإجراءات، وقـــد أنهتها سريعًا وجلست إليه يتحدثان في أمور شتى، فطلب منها التعجيل بالزواج، فلقد تعارفا لعدة أشهر، كانت كافية ليعرفـــا بعضهما، ولكن جميل اشترط شرطًا حيثُ قال في براءة: أنا عايز لما نتجوز تسيبي كل حاجة وتبقى لي وحدي.

قالت في دهشة: أسيب إيه؟

-تسيبي شغلك وتتفرغي ليا وللبيت.

وضحكت صفاء كما لْم تضحك من قبل، ضحكت بشدة بل قهقهت، فتعجّب منها وقال: بتضحكي على إيه؟

حاولت أن تكتم ضحكها بصعوبة ثم قالت: دي أجمل نكتة سمعتها في حياتي كلها.

-أنا مش بهذر.

-مش معقول!!! قالتها وقد تبدلت ملامحها وسكتت ضحكتها.

-لا معقول.. أنا صحيح عايش هنا لكن فكري بعيد عنهم أنا عاوز زوجة.. والزوجة مكانها البيت.

صرخت صفاء بهستيريا: مش معقول لا... لا... لا يمكن... إنت بتقول إيه؟!

وخرجت صفاء تعدو من مكتبه حتى دون أنْ تأخذ أوراقها، حملت حقيبتها وجرت وهو يناديها،وركبت سيارتها ودخلت مكتبها، أغلقت بابه خلفها وجلست بين أوراق عملها تتأملها وهي في حالة من عدم التصديق والدهشة. عجز عقلها أن يستوعب الأمر،فخرجت من المكتب وتوجهت إلى منزلها،وهي لا ترد على أحد،ولا تُكلّم أحدًا ولا تستمع لأحد، فبداخلها صوت قوى يشوش على كل أصوات هؤلاء، صوت

يأتيها من أعماقها يهتف بشدة متعجبًا. "مَن هذا الذي يطلب منها أنْ تترك ما بنته في سنواتها السابقة؟ ما سعت إليه وضحت لأجله"،ولم تستمع صفاء لصوتها هذا ولم تستطع أنْ تفكر في الأمر بل ظلت تتملكها حالة عدم التصديق لدرجة أنّ من يراها يظن أنها في حالة من اللاوعي على الإطلاق!

حين ذهبت لمكتبها في اليوم التالي حاول كل محام لديها أن يعرف ما بها، إلا أنهم فشلوا جميعًا، حتى قام جون بالاتصال بأحمد، فأتى على الفور واقتحم حجرة مكتبها دون أنْ يستأذنها، ردت سلامه بصعوبة.

فقال: ما بك يا صوفي؟

-مفيش ليو.

- لم تناديني بهذا الاسم منذ فترة طويلة أنا نسيته.

-أنا حاسة إني جئت هنا أمس، أنا غريبة، جوايا غربة عن نفسي وشاعرة باغتراب عن أهلي. أنا عايزة أرجع بلدي.

-أول مرة أسمعك تقولي: "عايزة أرجع" من يوم ما جيتي فرنسا.

كانت الكلمات تخرج بصعوبة وغير متلاحقة على لسانها وهي تقول: "لأني حاسة إني ما معملتش حاجة.... كل السنين دي راحت.. راحت كده وكأنها.. ما تساويش"!!.

-ليه يا صوفي؟ حصل إيه لكل ده؟

-حصل إنّ وحدتي باين عليها جننتني، خلتني أشتاق للبيت وللأسرة حتى لو مع أي واحد وخــلاص، صــمتت قلــيلاً، فاستحثها أنْ تستمر، فتابعت قائلة : دخــل حيــاتي إنــسان حسيت إني ممكن أبدأ معاه حياتي رغم إنه سبق له الزواج وله طفلان، تفتكر طلب مني إيه عشان نتجوز؟

-طلب إيه؟

-بكل بساطة وبراءة الأطفال في عينيه طلب إني أسيب كل حاجة.

كانت تتحدث وهي تذهب وتجيء في كل أرجاء الغرفــة، ويداها اللتان تتخذ منهما وسيلة للتعبير والــشرح، ترتعــدان، كما كانت ترتعد الكلمات على لسانها.

-تسيبي إيه صوفي؟

-أسيب شغلي ومهنتي وأبقى زوجة له وأربي أولاده، وهو مين ده عشان أسيب عمري عشانه؟ ده أنا سبت أهلي وبلدي وحبيبي عشان اللي وصلت له دلوقتي، عــافرت في الــصخر عشان أبقى حاجة لها قيمة، وهو بنفسه جه مكتبي وطلب مني أتولى قضاياه لشهرتي ولأني محامية كويسة، يعني جــالي وهــو عارف أنا إيه، طلبه ده خلاني حاسة إني ولا حاجــة، مجــرد موظفة بكام جنيه في الشهر هتفرح لما تلاقي عريس غــني وإني ما عملتش أي شيء يستاهل غربتي ووحدتي.

انهارت صفاء على أقرب مقعد دون أنْ تنطق بكلمة أخرى، ولمعت الدموع في عينيها.فاقترب منها أحمد وربت كتفها، وأخذها من يدها وهي مستسلمة لا تقوى على فعل شيء، فلم تسأله حتى إلى أين؟

قال أحمد لجون : أي تليفون أو أي شيء مهم صفاء عندي، في بيتي واعتبر أنها موجودة بالضبط وأي شيء تحتاجوه أنا موجود.

-مالها الدكتورة؟

-تعبانه شوية.

وانطلق بها ليو لمنزله، فقابلته زوجته وقد أزعجها مظهر صفاء، فطلب منها أنْ تُدخلها الحجرة الإضافية لديهما، وتبدل ملابسها حتى يأتيها وقال في نفسه: "مسكينة يا صفاء بحق مسكينة شقيتي بنفسك لأقصى حد حتى أتى من حقّر بكل بساطة ما أردته نفسك، وكأنك لم تفعلي شيئًا رغم أنك تحمّلت الكثير لأجل هذا، مسكينة يا أختاه".

ودخل الحجرة حيثُ زوجته وصفاءْ التي كانت ترتعد وتسيل دموعها فربت رأسها وقرأ القرآن، وظل يقرؤه إلى جوارها حتى نامت،ولكنها كانت تهذي بشدة، وبين حين وآخر تردد اسم فتحي، فتحي الذي يشعر بكل آلامها وعذاباتها رغم البعاد، كما كانت تحس هي بأفراحه وأشجانه تمامًا،وإذا بتليفون يأتيها لدى أحمد فأعطاها إياه على الفور لأنه من مصر،

هنا دخل أحمد وسمع جملتها الأخيرة فقال:"قولي إن شاء الله"..

-"طبعًا إن شاء الله" وصمتت قليلا ثم قالت: "أنا مش عارفة أشكرك إزاي أنت ومريم".

-فيه حد بيشكر أهله؟

-إنتم فعلا أهلي وأكثر من أهلي.

وعادت حياتها لسابق عهدها بعد مكالمة فتحي التي أحيتها من جديد، ولكن اكتسى قلبها بقسوة وقوة ليس لهما حدود، وقررت قرارا حاسمًا ألا تسمح لأحد مهما حدث أن يدخل حياتها، فهي لن تنسى حبيبها ولن تسمح لأي مخلوق أنْ يجعلها تشعر يوما بضآلتها، يجب أن يعرف الجميع من هي صفاء وكم تساوي! فهي أبدًا لم تسع لتكون مجرد امرأة، وإنما سعت لأن تكون شيئًا وكانت بالفعل، فهي أستاذة تسقى العلم لمئات الطلاب ويشهد لها بتفوقها في هذا المجال أبحاثها التي تنشرها كبرى المجلات والدوريات المتخصصة، يصلها بريد إلكتروني من مختلف أنحاء العالم من المهتمين بمجال القانون الدولي، محامية يشار لها بالبنان، ونادرًا ما تخسر قضية، كبار الشخصيات في فرنسا يتعاملون معها، كل هذا لم يأت من فراغ ولا مصادفة، وإنما بجد واجتهاد سنوات وسنوات.

وكانت في مكتبها ذات ليلة بعد أسبوع مما حدث، حين أخبرتها سكرتيرتها بمجيء الأستاذ جميل، فطلبت منها إدخاله

وهي تكسو ملامحها قوة وثباتًا، ألقى عليها التحيـــة، فحيّتــه بمثلها، جلس قبالتها ثم وضع عينيه في عينيها مباشرة وقال: عايز تفسير للي حصل... تخرجي من مكتبي تجرى من غير ســـبب، وأسبوع كامل أحاول البحث عنك مش عارف، ممكن أفهـــم فيه إيه؟

-معنديش غير رد واحد بس، طلبك مرفـــوض، ومفـــيش استئناف، وقضاياك ممكن تدور على محامى غيري يمسكها.

-بس أنا مش فاهم إيه اللي حصل؟

-طلبت نتجوز وأسيب شغلي وأنا لا بتجوز ولا بـــسيب شغلي، وبما إنك كنت فاكر إني ممكن أسيب شغلي يبقى أنا ما أنفعش أبقى المحامية بتاعتك، رغم إنك جيتني لشهرتي ونجاحي في مجالي اللي بتطلب مني التخلي عنه عشانك، وبأي حق؟ مش عارفة.

-عشان كده.

-أرجوك أنا ورايا شغل، وأي تفاصيل بخصوص قـــضاياك، السكرتارية ممكن تفيدك، شرفت يا أستاذ جميل.

وخرج الرجل من مكتبها وهو غير مُصدق لما يحدث، كل ما استطاع قوله إنها مجنونة، ولأن جميل هو الآخر لم يعتد أبدًا خسارة أي من صفقاته فقد اعتبرها صفقة غير رابحة ذهبت منه على غير رغبته، فأراد أنْ يعرف لماذا خسرها، فتقصى كـــثيرًا، إلى أنْ علم أنها عُرفت بأنها تحيا لعملها وعلمها فقط، وأنـــه لم

يدخل حياتها أي إنسان لهذا السبب، وفهم على الفور أنه قطع معها كل السبل وليس هناك أمل معها، حتى وإن أقنعها بأنه موافق على عملها، فسوف تظل تشك دائمًا في أنه سيأتي وقت ويقول لها ثانية أنْ تترك عملها، ولن تصدقه أبدًا مهما حدث.

وقرر جميل أنْ ينساها رغم أنها بحق راقت له، ويكفي أنَّ طفليه أحباها بشدة ومازالا يسألان عنها، همت صفاء أن تكلّم فتحي مرة أخرى، إلا أنَّ شجاعتها خانتها أكثر من مرة، واعتبرت أنَّ تلك المكالمة التي أجرتها معه آخر مرة وهي مريضة في بيت أحمد، حدثت في اللاوعي وأنها محض خيال، ولكن كيف؟ فهي ما زالت تعيش نفس الإحساس الذي راودها وهي تكلمه، فمن غيره انتشلها من بؤرة ضياعها، لماذا إذن لا تقوى على محادثته ثانية؟!! هل ما زالت خائفة من أنْ تنهار حصونها بعد كل تلك السنين وهذه الغربة؟!

وفرضًا أنها انهارت، وماذا في هذا؟ لمْ يعد هناك شيء لم تصل إليه، لقد وصلت لأقصى طموحاتها، وبقي السؤال داخلها يؤرقها ويؤرق مضجعها، ومازالت كلماته ترن في أذنها لا تنقطع.

أما هو فبقدر سعادته بتلك المكالمة التي أججت شوقه أكثر مما هو، وزادت من لهيب ولعه بها، إلا أنه كبح جماح نفسه، ولم يستطع أنْ يتصل بها ثانية، فلقد اعتبر مكالمته السابقة لها خيانة لزوجته التي شقت معه، والتي فقدت الأمل في أن يكون

لها في قلبه أي مكان، وأخذ فتحي عهدًا على نفسه أنه لا يجب عليه أن يحاول أو يفكر حتى في محادثتها وجرح زوجته أكثر من ذلك.

وقال في نفسه إنه وعد صعب تحقيقه ومؤلم بحق، ولكن أي ألم هذا إلى جوار آلام زوجته، وهو يرقد في حضنها وتشعر به بعيدًا بُعد السماء عنها؟! أي ألم هذا مقارنة بآلام امرأة اعتادت أنْ تعطي وتعطي ولا تأخذ أي شيء في يوم واحد من أيامها معه؟ خمسة عشر عامًا وهي إلى جواره بمثابة السند والبلسم لجراحه وهو لا يهب لها شيئًا أو بعض شيء مما تهبه إياه، فقط يغدق عليها من ماله، أما مشاعره فهو بخيل ضنين بها، كيف يَهب ما لا يَملك؟ فلقد أخذت صفاء كل ما لديه من مشاعرِ حبٍ وتركت له الصمت!!

زادت الفرقة وزاد البعاد والأيام تمضى ولا تقف، وفى أحد الأيام كانت في انتظار مكالمة من أخيها، ولكنــه لم يتــصل، وكلما اتصلت بهم لا يرد عليها أحد، فزاد قلقها عليهم، منــذ متى والبيت يخلو من سكانه؟ سؤال يريد جوابًا، وما من مجيب، وفكرت أنْ تتصل بالورشة ولكنها خشيت أن يكون فتحــي مجيبها، فآثرت أن تؤجل الاتصال حتى أتت صبيحة يوم آخر، فاتصلت لترد عليها شمس ابنة أختها سمية، فداعبتــها قلــيلاً ثم سألتها عن جدها.

فقالت الصغيرة: مش هنا.

سألتها عن جدتها فأجابت في براءة: ماما قالــت إن ســتي راحت عند ربنا.

انزعجت صفاء أشد الانزعاج، وطلبت مــن الــصغيرة أنْ تنادى أمها، وعلى الفور أتت سمية التي لم تكن سمعت جــرس التليفون، وتحدثت إلى أختها التي قالت:فين أمك وأبــوك يــا سمية؟

-في مشوار.

-ما تكدبيش بنتك قالت إن أمك ماتت... صــحيح يــا سُمية؟

ترددت قليلا ثم قالت: صحيح.

-وإزاى ما أعرفش؟

-أبوك ما رضيش نقول لك.

-وهو فين؟

-في المستشفى، ما قدرش يتحمل فراقها وهو أصله عيان وراقد من سنين.

-بتقولي إيه؟!! عيان وراقد من سنين ليه؟ وليه ما أعرفش؟ خلاص نسيتم إني واحدة منكم؟!!

-ما كانش بيحب نضايقك.

بكت صفاء وهي تقول: فين أخوكي سيد؟

-في الورشة... أنا هاخد أكل وهدوم للمستشفى، وهو هيحصلني.

-خلاص أنا هاكلمه حالاً.

واتصلت صفاء بأخيها، وكان هو من رد عليها، فانطلقت فيه معاتبة ولم يستطع أنْ يرد تيار غضبها، وعلمت منه أنَ أباها يصارع مرض الكبد منذ سنوات، وساءت حالته بعد رحيل أمها، فطلبت منه أنْ يستشير الأطباء ليجهزوا سفره إلى فرنسا، وستتكفل صفاء بكل مصاريف العلاج والسفر وكل شيء وأخبرته أنها سوف تعاود الاتصال به بعد أن تتفق مع الأطباء لديها.

كان من بين موكليها مستشفى جيدة، أصحابها من أفضل أصدقائها، فاتحتهم في الأمر، فطلبوا منها تقارير الأطباء،

فسارعت بالاتصال بأخيها ليرسلهم لها عبر الفاكس أو بالبريد الإلكتروني، وفي أيام قلائل كانت كل الترتيبات معدة لاستقبال والدها على الفور.

وفي المطار وقفت تنتظر بشوق ولهفة أباها وأخاها اللذين لم ترهما منذ سنوات بعيدة، كان معها أحمد الذي بين حين وآخر يربت كتفها في محاولة للحد من قلقها، وهي بين وقت وآخر تكرر نفس الكلمات: أنا مش عارفة أصدق إنهم يخفوا عني إن أبويا عيان، وراقد من سنين، وكمان يخبوا موت أمي... أبويا عمره ما قعد من شغله ده هو حياته.

وصلت الطائرة في موعدها وارتفعت دقات قلبها تعانق بها السماء حتى وجدت نفسها أمام أبيها وجهًا لوجه، وهو يجلس على كرسي متحرك، اندفعت صفاء نحوه تحتضنه وتقبل يديه وجبهته والدموع تتسابق لتنزل من عينيها دون توقف، قابلتها لهفة الأب لرؤيتها ودموعه الصامتة والمليئة بالألم، وبعد طول عناق، عانقت أخاها بشدة، وسلمت عليه، ثم ذهب مع أحمد لينهي إجراءات وصولهما.

وعلى الفور كان في المستشفى الذي قرر أطباؤه أنه يجب أنْ يتم زرع كبد جديد له، وأجرت صفاء التحليلات هي وسيد لمعرفة هل تتوافق أنسجتهما مع أبيهما أم لا، وتطابقت أنسجتها وأباها، واستعدت للعملية لأخذ جزء من كبدها، ولكن قبل إجراء العملية، كانت روح أبيها قد صعدت لبارئها

وسط دهشة عارمة منها، وهي التي لم تمضْ سوى يومين فقط معه، تحسن فيهما بشكل واضح، ثم ذهب بغير رجعة، تاركًا إياها في بحارٍ من الألم!

وعادت صفاء تلك المرة إلى مصر، بعد كل هذا الغياب، وهي تحمل نعش أبيها معها، سافرت يومًا وهي تبكي ألم الفراق والوحدة وعاشت على أمل اللقاء وها هي تعود والفراق بلا لقاء هذه المرة!

جلست وسط نسوة نسيتهن وأغلبهن لم تعرفهن، اتشحت بالسواد الذي لم تلبسه يومًا، ولكنها بدت متماسكة رغم أنّ كل قطعةٍ فيها ممزقة ومضى الوقت، وخلا البيت إلا من سيدة لا تعرفها ولم ترها من قبل، ومن أختها وأم فتحي وزوجة أخيها سيد وأطفالهم، ثم ذهبت أم فتحي وبقيت السيدة الغريبة التي اقتربت من صفاء وقالت لها: "كان نفسي أقابلك من زمان يا دكتورة وفي ظروف أحسن من دي".

-بس أنا ما أعرفش مين حضرتك.

-أنا فاطمة مرات فتحي سلامة.

مدت صفاء لها يدها تسلم عليها واحتضنتها بغير حقد، فهي تعلم أنه معها جسدًا، ولكنه معها هي روحًا وحبيًا، وأنه لم يعطها أي شيء من هواه لأنه ملكها فقط، لذا فهي الرابحة وليست زوجته.

وقالت صفاء: "بس غريبة تعرفيني منين؟"



أصحابه، نادتها صفاء فاتجهت إليها الفتاة على الفور فـــسألتها عن اسمها ومن تكون؟

فقالت: "اسمي صفاء فتحي، وحضرتك تبقي مين؟".

-أنا صفاء محمود.

-هو حضرتك، ودمعت عينا الفتاة وهي تقول جدي محمود كان دايمًا يقول لي: "إنتِ غالية واسمك على اسم الغالية"، كان بيجيب لي كل يوم حاجة حلوة وهـــو راجـــع ويقـــول لي: "بتفكريني باللي عمري كله معاها" كنت بحس إنه بيحبني أكثر من جدي سلامة.

احتضنتها صفاء بشدة وهي تقول: "طول عمـــره حـــنين وطيب" وشاركت الصغيرة دموعها وشعرت بنـــشوة غريبـــة والفتاة في حضنها، يومًا ما كانت لتكون تلك الصغيرة ابنتـــها هي، وأفاقت من نشوة شعورها فـــسألتها: "علـــى فـــين يـــا صفصف؟"

-إيه ده؟ بتدلعيني زي بابا ما بيدلعني؟!

ابتسمت صفاء ولم ترد، فهو كان يناديها دومًا بهذا الاسم وأعقبت الفتاة قائلة: رايحة درس الإنجليزي.

ابتسمت صفاء مرة أخرى وقالت: درس!! أبوكي بيديكي دروس؟

-آه ليه؟

-أبدًا.

-كان نفسي أقعد مع حضرتك وقت أكتـــر، بـــس أنـــا تأخرت.

-طيب يا حبيبتي يلا روحي.. بس لازم أشوفك تاني.

-إنْ شاء الله، قالتها الفتاة وهي تمضي بخطى سريعة.

مرت أيام العزاء الثلاثة و لم ترَ فتحي مرة واحـــدة، وقبـــل ذهابها للقاهرة في اليوم الرابع، عرجت على مكتـــب الأســـتاذ سعيد لتطمئن عليه ثم سافرت وهناك قابلت أستاذها وصاحب الفضل الكبير فيما وصلت إليه، الدكتور سيد الـــذي تقاعـــد ويقضي وقته مع زوجته في فيلتهما ومتابعة المكتب الذي يعمل به الكثير من المحامين، وقضت صفاء وقتًا جميلاً معه، وشـــكرته على مواساته لها في وفاة والدها، ثم انصرفت، ابتاعت هـــدايا لإخوتها وأولادهم، فهي لم يسعفها الوقت ولا أتاحـــتْ لهـــا الظروف أن تشترى لهم أي شيء.

وعادت بعد أن حجزت طائرتها واشترت التذكرة وجمعت إخوتها وأعطت لكل منهم ما يخصه ورأت الفرحة في عيـــون أطفالهم، فرحةً بددت الجو الحزين الذي يعيشون فيه منذ فترة، ودخلت حجرتها وجلست إلى جوار الشباك تتطلع إلى ماضيها وذكرياتها مع حبيبها الذي يبيت في الشقة التي تعلـــو شـــقته القديمة، وفى الحجرة التي تعلو حجرته القديمة، هي تُحس عذابه كل لحظة، وهو أيضًا يشعر بها، إنه يتململ في نومه وتشعر به زوجته رغم أنه يحاول إخفاء شعوره عنها ومقاومـــة رغبتـــه

الجامحة في أن يراها ولو من خلف خصاص نافذته، وهي تجلس نفس جلستها القديمة مرتكنة إلى إفريز النافذة، لكـــم يتـــوق للذهاب إليها والجلوس على سور النافذة مثلما كـــان يفعـــل قديمًا، ويحتضنها ليبثها شوقه ولهيبه المضني.

في مساء اليوم التالي، ذهبت وطرقت منزل أهـــل فتحـــي، وفتحت لها أمه واستقبلتها بفتور لا يليق بطول غيابها ومصابها، فالمرأة تكرهها منذ أنْ جرحت قلب ولدها، أما أبـــو فتحـــي فاحتضنها ورحّب بها بشدة وأجلسها إلى جواره وظل يتحدث إليها ليعرف أخبارها، وتكلمه عن حالها في الغربة وهي تحتسي معه الشاي، رغم أن أولادهما جميعا تزوجوا و لم يبقَ أحد سوى فتحي الذي يعيش في شقته فوقهم تماما، إلا أنها أحـــضرت للجميع هدايا، لم تنسَ أحدًا منهم، وبعد أن وزعـــت هـــدايا الجميع، بقي كيس واحد وفرد واحد لم تذكره، مدت يدها به إلى أبي فتحي وقالت: الكـــيس دا لأســـرة فتحـــي، يـــا رب يسعدهم.

وانصرفت على الفور، لتستعد لغربتها القادمة، وفي فجـــر هذا اليوم انطلقت صفاء وأخوها صوب المطار لتغـــادر أرض مصر تاركة فيها روحها وعمرها في نفس الوقت الذي كانت فاطمة تفتح كيس هدايا صفاء ووجدت هديـــة قيمـــة لهـــا، وهديتين لطفليها ولا شيء لفتحي، لم يعلق فتحي على كلمـــة زوجته التي قالت: "بينها نسيتك يا أبو صفاء".

هو يعلم جيدًا أنه ليس هدية أو غيرها ستتذكره أو تهـواه، ولكنه يعلم أنَّ هديته يجب أنْ يتلقاها منها شخصيًا، وهو وهي لا يقويان على اللقاء بعد، في نفس هذا الوقت كانت صـفاء تعطي أخاها علبةً صغيرة زرقاء اللون، وتوصـيه أن يعطيهـا لفتحي وهي تقول: "أمانة يا سيد. أمانة".

طارت إلى باريس في حين عاد سيد إلى بلدهم في المـساء، ليجد فتحي مازال في الورشة لم يبرحها و لم يذهب للعاشر من رمضان لمباشرة بناء مصنعه هناك، فقال: السلام عليكم.

-وعليكم السلام.. سافرت؟

-أيوه وسابت لك دي، أعطاه العلبة ليفتحها فتحي علـى الفور، كان بها قلادة ذهبية صغيرة بها قلب صغير أيضًا يحمـل حرفي اسميهما ومع القلادة ورقة كتبت فيها "ارتديتها منـذ أنْ وطأت قدمي أرض الغربة لم أجد أعلى منها لأهديها إليك يـا أعز الناس". كلمتان لا أكثر ولا أقل، بنفس خطهـا الـذي اعتاده حتى إنه يعرفه من بين ألف خط وخط، أغمض عينيـه واحتضن القلادة في يديه وذهب بها إليها يشكرها عبر خيالـه وحلم بها وهي في حضنه ويدها الرقيقة تربت شعره، وبسمتها التي تضيء حياته نورًا لا مثيل له.

تركه سيد يتجرع مرارة ذكرياته وآلام حبه اللامنتهي وهو يلوم أخته، فهي وهو أقرب الناس إليه، وأحبهم إلى قلبه، لكم يشقى بعذابهما! لكن ليس بيده ما يفعله.

احتفظ فتحي بالقلادة والوريقة في خزانته بالورشة، لم يكن باستطاعته أن يأخذهما للبيت، كان بالخزنة كل شيء يحبه، بل كل شيء كان له معها، كل هداياها وصـــورهما وذكرياتهمـــا معا، شيء واحد لم يتخل عنه طوال هذه السنين، تلك القلادة الفضية التي يرتدى نصفها وترتدي هي النصف الآخر، كانت نصفين بأحدها لا اله إلا الله، وبالآخر محمـــد رســـول الله، لم يخلعها يومًا واحدًا، كذلك هي مهما اشترت من حُلي فهي لا تخلع تلك القلادة أبدًا.

وصلت صفاء باريس، وكان أحمد وزوجته في انتظارهـــا، ذهب معها لمترلها وقضت باقي اليوم معهما، وفي الصباح بدأت حياهَا من جديد، كما كانت ولكن بعدم رغبة في الاستمرار.

مرت بها الأيام والأسابيع وهي تشعر بأن رغبتها في كـــل شيء تنقضي، وتفعل الأشياء بلا إحساس، وكأن بهـــا شـــيئا ناقصًا مفقودًا، حماسها السابق لا أثر له داخلها، وبدأت تسأل نفسها: "ماذا حل بك يا صفاء؟ ماذا جرى لـــك ولنـــشاطك وحبك للعمل؟" وبدا عليها حالها، وظن الجميع أنَّ حزنها لفقد أبيها هو السبب، ولكن لم يكن هذا السبب أو تلك الفكرة عن سبب عزوفها عن الحياة تروق لأحمد، أو يقتنع بها.

قرر أن يسألها وهو يعلم أنها لن تخفي عنه شيئًا بعد صـــداقة تلك السنين، فسألها: -مالك فيكي إيه؟

فقالت والأسى يعلو وجهها: من يوم ما رجعت هنا، وأنـــا حاسة إني مش عايزة أعمل أي حاجة، عايزة أرجع تاني، مـــا أعرفش إيه اللي جرى لي، غبت عن مصر عشرين سنة كاملـــة ما نزلتهاش ولا مرة واحدة ويمكن ما حستش فيها بالـــشوق، وحتى إن حسيت بسرعة كنت أكتمه وأشغل نفسي، وأنسى، ونسيت، لكن وأنا راجعة لها ومعايا جثة أبويا، كنت شـــاعرة بحاجة غريبة بتحصل لي، ما كنتش عارفاها ولا فاهماها، كانت أول مرة أحس بيها، عارف؟ أول ما المضيفة قالت: "إن إحنـــا دخلنا الأجواء المصرية" حسيت بقلبي مش في مكانه، وأول ما

حطيت رجلي على أرض المطار، حسيت إن فيه حاجة جت ودخلت جسمي مرة واحدة، وكأنها كانت فارقتني لما سافرت ورجعت لي لما رجعت، وما أخدتش في بالي، وعدّت الأيام، ورجعت هنا تاني، لقيت حبيي لمصر أكبر مني، أكبر من رغبتي في الحياة نفسها، إحساس قاسي قوي اللي بحس بيه دلوقتي.

-طب والحل يا صفاء؟ لو فكرتي ترجعي، مكتبك اللي هنا وكم القضايا اللي فيه والجامعة واسمك اللي بنتيه، زمان قلت لك ارجعي، ما كنش ده بقى حالك لكن دلوقتي كل شيء اتغير انتي بَنيتي نفسك وبقى فيه ناس ملزومة منك.

-عارفة كل اللي بتقوله وهو ده اللي مقيدني وتاعبني.

-إنتي شوفتي فتحي؟

ابتسمت وقد عرفت مغزى كلامه فقالت: ولا مرة، اختفى، حضر أيام العزاء الأولى، وبعد كده سمعت إنه راح يشوف مصنعه اللي بيبنيه.

- إيه ده عنده مصنع؟ هو للدرجة دي بقى غني؟

- فتحي اشترى الورشة اللي كان شغّال فيها، وبقى عنده أكثر من معرض في أماكن كثير، أنا نفسي شفت واحد منهم في القاهرة، طول عمره فنان وبيحب شغله جدًا.

-يعني انتم الاثنين شغلكم هو أهم حاجة في حياتكم، نجحتم فيه بدرجة إنكم أصبحتم مشاهير ويشار ليكم بالبنان، بجد مش عارف لحد دلوقتي كان صح فراقكم، ولا كان غلط، كان يستاهل نجاحكم تضحوا بهواكم، ولا ما يستاهلش ..مش عارف!!

-إحنا صحيح نجحنا، بس فاتنا الكثير وخاصة أنا، فـــاتني أكون ست ليا بيت وأولاد، فاتني أشوف فتحي سنين وسنين، فاتنى أشوف الأيام والسنين وهى بتخط كل يوم خط في وشه وفى عمره، فاتنى أعيش مع أهلي وأحضر أفراحهم وأشاركهم أحزانهم وأشوف أولادهم وهم بيكبروا يوم بعد يـــوم، حـــتى صفاء بنت فتحي خلتني أحس بشوق كبير إن يكون ليا بنـــت زيها لما ضمتها في صدري ولما اتأملت ملامحها اللي حسيت إنها شبهي وكأنها بنتي أنا.

-سمى بنته على اسمك؟

-أنا برضه استغربت زيك كده، لما مراتـــه قالـــت لي: إن ابنتها اسمها صفاء.

-قابلتيها؟ وكلمتيها؟ كده من غير غيرة أو خوف حتى؟

-أغير من إيه؟ وأخاف من إيه؟ دا أنا أشفقت عليها وهـــي بتكلمني، عينيها كانت بتقول لي زى ما إنت قلت لي: زمـــان "متعذب عايش وياها جسم من غير روح ميـــت مـــافيهوش حياة"، كل الناس دي بتتألم بسببي.

هوني على نفسك، كفياكي تعذيب وعتاب،كل اللي بيحصل واللي حصل كان لازم يحصل،إنتم الاتنين بتحبوا نفسكم زيادة عن اللزوم وكان لازم توصلوا للنهاية دي، لأنكم ببساطة لـــو كنتم مع بعض،ماكنش حد فيكم عمل حاجـــة، عـــذابكم في الحب هو اللـــي كـــان دافـــع للنجـــاح،إنتي بـــس فـــتحي

السكة وهو مشي الطريق زيك بالضبط، بس هو كان أضعف منك، ماقدرش يبدأ الطريق وأنت بدأتيه وفتحتيه قدامه وهو ببساطة خطى أول خطوة وحررك من قيدك وقال لك "انطلقي".

-بس أنا بحبه.

-عارف، وبرضه هقول لك: "بحدك ونجاحك اللي صنعتيهم طول السنين اللي فاتت ما يستاهلش منك تبيعيهم كده بسهولة وترجعي وتهدمي بيت عمره سنين وسنين حرام عليكي"، وصمت برهة ثم أردف قائلا: "لسّه العمر قدامك يا صفاء ممكن تعيشي حياتك اللي فاتتك، وتقابلي إنسان تأنسي له وتوديه مش شرط تعشقيه".

-كلامك الجميل الطيب هو اللي بيصبرني على آلامي، مش عارفة من غيرك كنت هعمل إيه، ولحد إمتى هتفضل واقف جنبي وأنا مش قادرة أكون لك عون في أي حاجة أو أخدمك بأي شيء.

-صداقتك أجمل خدمة، ثم لا داعي لأن أذكرك بأن جميلك عليا لا أقدر على نسيانه أو تقديره مهما فعلت.

-إنت لسه برضه معتقد إن أنا السبب؟

-أمال مين؟

-قلبك الطيب وعقلك المتفتح وربك الكريم اللي بيحبك وأراد إنه يهديك للإيمان وللحق، إن الدين عند الله الإسلام.

-وأنا بدعيه ليل نهار إنه يهديكي وينور بصيرتك يا صوفي.

ابتسمت ابتسامة صادقة وهي تقول: إنت أجمل إنسان في الدنيا دي.

-طب يلا بقى مريم زمانها ماتت من الجوع وهي طابخة لك أكله بتموتي فيها.

-بجد؟ طب هي إيه؟

-لا لما نوصل وتشوفي المفاجأة.

مرت الأيام ونسيت صفاء بعض جراحها بالانشغال في بحث جديد، يضاف إلى أبحاثها القيمة وإلى مجدها العلمي، ونشر البحث في عدة مجلات ودوريات متخصصة ولاقى ترحيبًا كبيرًا في الأوساط القانونية المتخصصة، واختيرت صفاء ضمن لجنة من القانونين المهمين في باريس لوضع قانون جديد ودراسته قبل الموافقة عليه من الحكومة ومن الشعب الفرنسي، ونشر اسمها وصورتها ضمن اللجنة في أكبر الصحف الفرنسية وأوسعها انتشارًا، مما دعا التلفزيون المصري ليجري معها حوارًا يُذاع في مصر ورحبت صفاء جدًا واستعدت لإجراء الحوار.

وجلست صفاء إلى مذيعة شابة جميلة جمالاً مصريًا خالصًا، وكأنهم اختاروها خصيصًا كواجهة مصرية تأتي لهم بأخبار من قلب أوروبا، رحّبت صفاء بطاقم العمل، وجلست إلى المذيعة في مكتبها، لقد كانت تعيش في شقة صغيرة لم تشأ تغييرها

أبدًا، بحجة أنها تعيش بمفردها، فلماذا تسكن ببيت كبير رغم غناها وثروتها؟

قالت المذيعة: نحن في مصر فخورون أشد الفخر بوجود أستاذة مصرية لها هذا الاحترام والتقدير في قلب فرنسا.

-أشكرك.

-ممكن حضرتك تشرحي لينا إزاي وصلت لهذه المكانة؟

سردت صفاء بعض التفاصيل عن طريق كفاحها في إيجاز.

-هل هناك تضحيات؟

سرحت برهة قبل أن تجيب: كثيرة.

-ممكن نعرفها؟

-أولها إني ضحيت بصحبة الأهل ورضيت بالغربة وآلامها، وثانيها إني تفرغت تمامًا لعملي ونسيت حياتي الشخصية، أو بمعنى أدق تناسيتها.

-معقول واحدة بمكانة حضرتك وعلمها لم ترتبط أو تلتقي بحب؟

-معقول، ليه لأ؟

-بس مش قادرة أقتنع إن حياة باريس وناسها لم يقدروا أن يأخذوا من وقتك أي شيء.

-هم أخدوا كتير لكن ماقدروش ياخدوا قلبي.

-يبقى قلب حضر.......

قاطعتها صفاء بحزم شديد لا يخلو مـــن الاحتـــرام والأدب يكفي هذا.

-آسفة، لكن شخصية زى حضرتك الناس في مصر تحـــب تعرف عنها الكثير اللي ممكن يستفيدوا منه.

-لا أعتقد إن حياتي الشخصية ممكن تفيدهم في شيء.

-هل تفكرين في العودة إلى مصر؟

-أفكر الآن أكثر من ذي قبل وبشدة، لكن ظروف عملي في الجامعة ومكتب المحاماة الذي يعمل به نحو ثلاثون شخـــصًا يعوقون فكرة عودتي.

-وإنْ طلبت مصر منك العودة؟

-لن أتأخر، فهي بلدي، بل هي عمري اللي عشته واللـــي ماعشتوش، وما بيعرفش قيمة الوطن إلا اللي عاش متغرب عنه.

-أكيد يا دكتورة مصر بتحب كـــل أولادهـــا وخاصـــة الناجحين أمثال حضرتك وتتمنى إنهم يكونوا علـــى أرضـــها وأكيد مش هيتأخر نداها.

-وأنا تحت أمرها.

وانتهى البرنامج الذي شاهده ملايين المصريين وعلى رأسهم أسرة صفاء بل وبلدها بأكملها وحبيبها الذي قـــام بتـــسجيل البرنامج ليراه بين حين وآخر ويستمتع برؤيتها ولـــو صـــورة أمامه.

آخر كلمات المذيعة لصفاء مش هيتأخر نداها كانت تسرن في أذنها، وكأن المسئولين في مصر استمعوا لحديث المذيعة وطبقوه، لقد تلقت صفاء دعوة شخصية من عميد كلية الحقوق بالقاهرة للعمل بالكلية وبأعلى راتب يليق بمكانة الأستاذة الكبيرة التي هي في الثانية والأربعين، وحققت نجاحات لم يسبقها إليها أحد في مصر كلها، وطارت بالدعوة وقبلتها على الفور ودون تردد أو تفكير، وذهبت تزف البشرى لصديقها الوحيد أحمد وزوجته مريم اللذين استقبلا الخبر بدهشة لا مثيل لها، ولكن فرحتها الغامرة والتي يريانها لأول مرة منذ عرفاها منعتهما من أن يُبديا أي اعتراض.

استقالت صفاء من الجامعة التي حزن المسئولون فيها وعلى رأسهم الدكتور جيرارد على مفارقتهم لأستاذة مثلها، وأخبروها أنها في أي وقت تُقرر العودة فمكانها محفوظ، أما المكتب فتركته تحت إشراف أحمد وفي يد جو المتصرف الأول فيه، وهي سوف تتابع كل شيء من مصر، وقبل سفرها وعن طريق الإنترنت، اشترت فيلا صغيرة في إحدى المدن الجديدة المجاورة للقاهرة، اتجهت لبيتها في القاهرة بمجرد نزولها أرض مصر وكانت قد تركت مهمة فرش الفيلا لأخيها، فقام فتحي بانتقاء الأثاث كله على ذوقه الذي يعلم تمام العلم كم تعشقه، ورفضت العودة لبلدها فهي مازالت تخشى رؤيته.

بعد يومين من عودهما، اتجهت إلى كلية الحقوق جامعة القاهرة، أعرق كلية في مصر، تلك الكلية التي تخرج فيها أعظم الشخصيات في تاريخ مصر، شخصيات كتبت بنضالها كل حرف من حروف التاريخ، وجامعة القاهرة أول جامعة في مصر، جامعة فؤاد الأول سابقًا، هل تصدقين ذلك يا صفاء؟ هل تتخيلين ذلك؟ أنت هنا في جامعة القاهرة العريقة.. شيء لا يصدق؟ قال صوت في داخلها: "لقد درست وعملت من قبل في أعرق جامعة وأفضل جامعة في باريس، السوربون".

فقالت: وماذا يعني هذا؟ صحيح السوربون رائعة، ووهو إنجاز أن تكون من ضمن فريق الأساتذة فيها، ولكن أن تسعى جامعة القاهرة لصفاء لكي تكون مدرسة بها، فذلك كان شيئًا عظيمًا وحلمًا لم يكن ضمن أحلامها.

وتصدّر خبر عودهما بعض الصحف التي سعت لإجراء أحاديث معها، ودخلت صفاء بسيارهما الجديدة من باب الجامعة العريقة التي كانت تحلم قديما بأن تكون من طلاهما فإذا بها تدخلها مُدرسَة.

واستقبلوها استقبالاً حافلاً، وعلى رأس مستقبليها كان رئيس الجامعة وعميد الكلية وجميع المدرسين بالكلية، وسعدت صفاء جدًا بهم وأثنوا عليها بشدة حتى اعتراها الخجل منهم،

وحاولت التواضع أمامهم بالإشادة ببعض أبحـــاث الأســـاتذة المتميزين، وذكرها بالاسم لتبين لهم كم تسعى هـــي لمعرفـــة الجديد مما يقدموه، وكم هو مفيد لها ولغيرها مـــن المهـــتمين بالقانون الدولي في العالم بأسره.

ونالت شخصية صفاء إعجاب الجميع دون اســـتثناء، بـــل ومن أول لقاء حَرص البعض على التقرب منها وخاصةً النساء كالدكتورة أميمة عثمان أستاذة القانون الجنائي، والـــدكتورة مديحة الصاوي أستاذة الشريعة، كذلك تقرب منها الـــدكتور رشاد أبو طالب أستاذ القانون الدولي، والتي أشادت هي ببحثه أمام جموع الحاضرين.

وتقرر أن تدرس صفاء مادة القانون الدولي لطلبـــة الفرقـــة الثالثة في الفصل الدراسي الأول الذي كان على وشك البدء.

أيام قليلة وبدأت الدراسة وانتظم الطلبة في الحـــضور بعـــد الأسبوع الأول من بدء الدراسة كما هي العـــادة في كليـــات مصر على عكس هناك، حيث الدراسة كانت تبدأ جـــادة في أول يوم.

دخلت المدرج فوجدته خاويًا، إلا من بعض الطلبة، حيتهم وقالت: احترامًا لكم ولحضوركم دخلت المحاضرة ولكني أريد أن أرى الجميع هنا لأني جديدة وأريـــد أن تتعرفـــوا إلي و إلى أسلوبي الذي سوف أتبعه في تدريس المادة معكم، لهـــذا أنـــا أعتذر اليوم عن إعطاء المحاضرة، حتى يتسنى للجميع الحـــضور الأسبوع القادم.

والآن ممكن استعراض الموضوعات التي ستشملها مادتنا، لم تزد عن نصف ساعة ثم انصرفت وقد تركت انطباعًا سيئًا لدى الطلبة الحاضرين فلقد تخوفوا منها بشدة.

وفى اليوم المقرر لها، كانت في الكلية منذ الثامنة صباحًا، مع أن موعد المحاضرة في التاسعة، ولكنها اعتادت دائمًا الـــذهاب مبكرًا حتى تستعد جيدًا للمحاضرة.

وولجت قاعة المحاضرات كعادتها تنظر في الأرض حتى تصل للمنضدة المخصصة لها لتلقى عليها بأوراقها، ثم تستدير لتواجه الطلبة وفي أثناء دخولها ألقت عليهم تحية الصباح بالفرنـــسية، فأفاقت على رد الطلبة عليها يبادلونها التحية فقالت: آسفة يـــا جماعة، اعتدت لسنوات أن أدرس للطلبـــة بالفرنـــسية علـــى العموم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، رد الطلبة تحيتـــها فقالت: أحب أعرفكم بنفسي أنا الدكتورة صفاء محمود أستاذ القانون الدولي، أول مرة أدرس في مصر لقد كنت مدرســـة في كلية الحقوق جامعة السوربون.

وشاهدت الدهشة على وجوه الطلبة وكذلك تخوفهم مـــن الوافدة الجديدة بعلم أوروبا.

ضحكت وهي تقول: تعرفوا الطلبة في مصر ما اتغـــيروش كثير عن زمان، لسّه زى ما هم، على فكرة ماتقولوش خوجاية وجاية تفرد عضلاتها علينا، أنا عارفة كويس إيه بيدور في دماغ كل واحد فيكم، أنا فلاحة من مصر وخريجة جامعة طنطـــا،

يعني لم أتشرف بكوني خريجة تلك الكلية العريقة التي تدرسون بها الآن، ولكن يشرفني أن أكون ضمن طاقم أساتذتها، المهم لا أحب أن يضيع وقتنا يجب أن أتكلم سريعًا عن كيفية تـــدريس تلك المادة.

بداية أنا ما عنديش كتاب، كل كتبي بالفرنسية، المحاضرات تحت أمركم اللي يحب يصور الورق أهلاً وسهلاً واللي يحـــب يكتب ورايا برضه أهلا وسهلا، وإن كنت أفضل تكتبوا ورايا، باقي حاجة واحدة في نهاية كل محاضرة هقول عنـــوان صـــغير مطلوب منكم تروحوا المكتبة، وتبحثوا في الموضوع، وتقدموا لي ورقة بحث، وسأقبلها وإن كان بحثا من صـــفحة واحـــدة، وسأقرؤها جميعا، ولن أقبل بالتكرار والتشابه، قد تظنون أنـــني لن أقرأ ألفي بحث، ولكن أنا فاضية، ما ورايش حاجة غيركم، مكتبي في باريس أديره من هنا، فيه بدل المحامي ٣٠، هتقولـــوا "جاية لنا بأسلوب برّه تطبقه هنا" هرد وأقول "إن ده ما كنش أسلوبي هناك بالعكس أنا كنت بدخل أقول المحاضرة وأطلـــع لكن هناك الطلبة رايحة عشان تتعلم وتدرس وتفهم..هم مـــن نفسهم كانوا بيبحثوا ويتناقشوا مع بعض ومعايا ومـــع كـــل أستاذ مش كل غرضهم نيل شهادة يعلقوها على الحيطة".

نسيت أقول لكم إيه عقاب أي بحثين متشابهين، أو مـــن لا يقدم ورقة البحث كل أسبوع، بكل بساطة أولاً مايـــدخلش محاضرتي مرة ثانية، وثانيًا: مالوش امتحان عنـــدي، ومفـــيش مخلوق يقدر يراجعني في قراري، ومش هحس إني ظلمته ومش هسامح حد، اتفقنا؟ أعتقد ذلك.

بدأت صفاء في شرح أولى محاضراتها، ولكم أعجب الطلبة بأسلوب شرحها وقدرتها على توصيل المعلومة رغم خـــوفهم منها ومن تنفيذ تهديداتها!

وفى الأسبوع التالي، تسلّمت الأبحاث التي عكفـــت علـــى قراءتها طوال الأسبوع حتى موعد المحاضرة التالية، وفى إحصاء بسيط، استطلعت صفاء قدرات طلابها، وذهبت للمحاضــــرة ودخلت القاعة بكل ثبات، ألقت التحية ثم أمـــسكت بورقـــة وقرأتها، كانت أسماء عشرة من الطلاب والطالبـــات أمـــرتهم بالوقوف، ثم قالت: حذرت من تشابه الأبحاث وانتم أبحـــاثكم نقل مسطرة، وإن غيرتم في الترتيب، لكن أنا عرفت وفى المقابل اتفضلوا برّه، ومـــالكوش درجـــات عنـــدي، ولا هتـــدخلوا الامتحان.

حاول الطلبة معها، فلم تستمع لأي منهم، قسوتها كانـــت فظيعة ولكن هكذا يتعلمون جميعًا ألا يتهاون أحد منـــهم، ثم نادت اسمين آخرين، محمد السلاموني، ولمياء عبد العليم الصياد، قام الاثنان وهما يرتعدان خوفًا فقالت صفاء: أنتما؟

فأجابا الاثنين في نفس اللحظة وبخوف شديد: نعم.

صفّقت صفاء، فاندهش الاثنان ومعهمـــا الطلبـــة كلـــهم فقالت: مفيش داعي للدهشة، أنتما رائعان بحق، أفضل بحـــثين على الإطلاق، في الأسلوب، والترتيب، وتجميع الموضـــوعات أنتما أوائل الدفعة مش كده.

قال محمد: أنا الأول.

بينما نظرت لمياء في الأرض وقالت: أنا مش من الأوائل.

-ممكن أعرف ليه؟ سألت صفاء.

لمياء:ظروف.

-مفيش حاجة اسمها ظروف، فيه حاجة اسمها أسباب ونتائج، صمتت الفتاة و لم ترد، وعلى الفور أدركت صفاء ما بنفسها فاحترمت صمتها وقالت: المهم إن بحثك وبحث محمد ممتازين، وياريت يبقى فيه حد تاني زيهم، لكن للأسف الفارق بين بحثيكما وأبحاث الآخرين كبير، كأننا نتكلم عن مائة في المائة وخمسة في المائة، هل ترون النسبة معي، الجميع باستثنائكما كان كمن يقضي واجبًا فقط دون متعة أو رغبة، أما أنتما فشيء مختلف.

وبعد المحاضرة طلبت من محمد ولمياء الحضور إلى مكتبها وقد فعلا، وقبل أن تجلس إليهما، دخل العشر طلاب المغضوب عليهم وحاولوا معها حتى ترجع في قرارها.

فقالت: عمري ما منعت طالب من دخول امتحاني، لكن إنتم استهترتم بكلامي، يعني بتسخروا مني.

قاطعوها: لا والله.

-دلوقتي بتقاطعوني وأنا بتكلم.

-آسفين.

-كل ما بتغلطوا كل ما بيزيد أسفكم، وفى النهاية هتبقـوا أشخاص مبتذلة ملهاش كرامة اعتادت الأسف، على العموم أنا هجربكم مرة ثانية بس. الأسبوع الجاي هاخد منكم ورقـتين بحث، بتاع النهارده، والبحث اللي نقلتوه من بعض، وأقـسم بالله إن كانت الأبحاث نسخة من بعض لهكـون الـسبب في رفتكم من الكلية، اتفضلوا من هنا يلا.

وخرج الطلبة وهم يتنفسون الصعداء.

وجلست صفاء مع محمد تتعرف عليه، كان أبـوه وأمـه مدرسين، وهو أكبر إخوته، وأرادت أن تتعرف إلى لمياء ولكن الفتاة صمتت، فأمرت محمد بالخروج حتى تجلس مـع الفتـاة بمفردها.

فقالت:أنا كان ممكن أبقى الأولى، أنا جايبة جيد مرتفع، ما أفرقش عن محمد غير بعض درجات في السنتين اللي فاتوا.

-إيه مشكلتك يا لمياء؟

-مشكلتي في بيت وأسرة وأب وأم، لكن أنا ماعنديش حد من دول، أبويا سافر يشتغل برّه مارجعش، وأمي بتشتغل طول اليوم عشان تجيب اللقمة ليا أنا وأخواتي، وتدفع إيجار البيـت، وبعد الكلية بشتغل في صيدلية من اللي بتسهر طوال الليل مـا بلحقش أذاكر فيها كويس.

-أولاً شغلتك دي مش عجباني.

-طب وهعمل إيه، دي الشغلانة الوحيدة اللـي عرفـت ألاقيها بعد الظهر.

-بس يا بنتي لازم تخافي على نفسك بالليل، ودي صـــيدلية يعني ممكن يجيلك مدمن، مسطول، أي حد بالليل.

-بس أعمل إيه؟

-أنا كنت بشتغل وأنا طالبة بس اخترت شغلانة صح.

-اشتغلتي إيه حضرتك؟

-سكرتيرة في مكتب محامي.

-حضرتك؟

-أيوه أنا، على العموم أنا هفكر في الموضـــوع ده، وهـــرد عليكي الأسبوع الجاي قبل ما تمشى ممكن تقـــولي والـــدتك بتشتغل إيه بالضبط.

نظرت الفتاة في الأرض ثم قالت: في البيوت.

-أنا مش عاوزاكي تخجلي من حاجة، أمك ســـت بتنفـــع نفسها وتنفعكم، مش أحسن ما كانت تمشى في طريق حرام، المفروض تفخري بيها.

-أنا صعبان عليا حالنا، قبل ما أبويا يسافر كان حالنا غـــير دلوقتي كنا عايشين فوق الأرض مش تحتها.

-ممكن تسيبي لي عنوانك؟

-عنواني أنا؟!!

-أيوه من فضلك.

-حاضر، وكتبته لمياء للأستاذة وانصرفت.

وبدأت صفاء تفكر كيف تخرج بهذه الفتاة من بؤرة الضياع إلى النور؟ كيف تنشلها من بيئة وحياة قد تقضي عليها؟

ولكن كيف ذلك؟ إنها لا تعرف أحدًا من المحامين لكي تتوسط لها، فتعمل عنده، كما أنه ليس من اللائق أن تطلب منها أن تعمل والدتها لديها، فتزيد من إحساس الفتاة بالمرارة، واهتدت إلى أنه إذا أُغلق الباب الوحيد الذي تفكر فيه في وجهها، ستجعلها تعمل لديها كسكرتيرة خاصة، تنظّم لها أوراقها، ومواعيدها رغم أنها ليست بحاجة لمن يعينها على ذلك.

وقبل أن تطلب منها ذلك، تحققت بالفعل من المكان والبيئة التي تحيا فيها لمياء لذا وجب عليها أن تطرق الباب الأول الذي فكرت فيه في أثناء زيارتها للأستاذ الدكتور سيد، صاحب العون الكبير لها والأب الروحي الذي طالما شعرت بالامتنان الشديد له.

جلست معه في حديقة فيلته الأنيقة، وقالت: أود أن أطلب منك طلبًا يا أستاذي العزيز.

-تؤمري يا صفاء.

-ممكن تتوسط لي لدى أحد المحامين لتعيين فتاة كسكرتيرة للمكتب فترة بعد الظهر؟

-إيه دي؟ صفاء تانية؟

-ممكن تكون، بس حياتها صعبة شويتين، وخفت عليهـــا، وخاصة إنه ممكن يكون ليها مستقبل مع قليل من الرعاية.

-بسيطة يا دكتورة تتعين في مكتبي.

-إيه ده مش حضرتك قفلته؟

-تفتكري أيمن اللي كان بيشتغل معايا زمان؟

-طبعًا.

-أيمن كان محامي ممتاز ومازال، أخذ المكتب وقضاياه وكبر بيه وأصبح محامى مشهور، ممكن أكلمه يعينها عنده، بل ممكن أكلمه ييجي دلوقتي حالاً، وكلمه الأستاذ وأتى على الفـــور، وقضى يوما جميلا مع أستاذه ومحبوبته السابقة وأخذت صـــفاء منه وعدًا بتعيين لمياء لديه من الغد.

ولم تنتظر للأسبوع التالي كما حددت لها، بل أرســـلت في طلبها في الصباح وأخبرتها، وفى المساء كانت بصحبتها لـــدى أيمن في مكتبه، وقد تسلّمت عملها على الفور وبراتب جيـــد أيضا.

واطمأنت صفاء على الفتاة، وشعرت بأنها راضية عن حالها الآن.

(٢٩)

بدأت صفاء في الاندماج والامتزاج مع الطلبة الذين أحبوها بشدة واعتادوا أسلوبها، وبدأ الجميع حضور محاضراتها، ليس خوفًا، وإنما حبًا لها ولطريقة تبسيطها للمادة.

وفى أحد الأيام، أنهت محاضراتها، وجلست في مكتبها تقرأ أبحاث الطلبة، فإذا بنقر خفيف على بابها، أمرت صاحبه بالدخول، فدلفت للحجرة فتاة رقيقة استأذنتها في الحديث إليها، فقالت لها: فيه حاجة؟

ارتبكت الفتاة وعلت حمرة الخجل وجهها وهى تقول: مفيش..بس أصلي معايا رسالة لحضرتك؟

-رسالة من مين يا ترى؟ وقبل أن تجيب الفتاة دعتها للجلوس.

جلست الفتاة ثم قالت: من بابا.

-بابا ويعرفني منين؟

-أنا لما قلت له إن حضرتك بتدرّسي لينا، قال لي إنه يعرفك وطلب مني إنك تسمحي وتقابليه.

-بابا اسمه إيه يا حبيبتي؟

-اسمه المستشار عماد سعيد.

-إنتي بنت عماد.. معقول؟ بس أكيد مش الكبيرة.

-إنت السبب ماتنساش.

قضت وقتا طيبًا آخر مع ذكريات ماضيها، وفى وسط دفء الأسرة الذي لم تعرف له طعمًا منذ أكثر من عشرين عامًا،

ثم عادت إلى فيلتها وحيدة لا أحد معها ولا صوت يؤنسها، غير صوت الوحدة القاتلة، عادت وهى تتعجل الصباح لتذهب لعملها.

وقارب الفصل الدراسي على الانتهاء، بل إنه انتهى وبدأت الامتحانات، وفى اليوم المحدد لامتحان مادتها، كان الطلبة قبل دخوله مذعورين خائفين، ولكن انظر إليهم بعد الامتحان، إن فرحتهم غير مسبوقة، وتوافدوا إلى مكتبها ليشكروها على الامتحان، ناسين أن تحصيلهم بجد هو سبب فرحتهم بالامتحان وليس لأنها أتت بأسئلة سهلة، وما إن انتهت الامتحانات حتى استعدّت صفاء لرحلة سياحية داخلية في قلب مصر مع صديق عمرها أحمد وزوجته وطفليهما الذين دعتهم خصيصًا لقضاء العطلة معها.

واستقبلتهم في مصر استقبالاً حارًا، يحمل شوقها الكبير لهم وشوقهم لها، وأقاموا في منزلها، وفى اليوم التالي لوصولهم شاهدوا معظم معالم القاهرة من قلعة صلاح الدين للمتحف فالأهرامات والصوت والضوء، وتنزهوا في النيل، وزاروا بانوراما حرب أكتوبر ودار الأوبرا، يومان في القاهرة قبل أن

-جد؟!!

-أه بنتي الكبيرة اتجوزت من سنتين، نسيتي إني اتجوزت بدري؟

-صحيح خطفوك.

قاطعتهما ابنته سمر لتستأذن في الذهاب لمحاضرتها، وتركتهما يواصلان الحديث.

-كان لازم أتجوز، عشان ما أعيش على أمل مفقود.

-طول عمرك عملي يا عماد.

-لكن مش خسارة عمرك اللي ضاع عشان إنسان ما يستهالش؟

-أرجوك يا عماد.

-لسّه برضه عندك استعداد تتخانقي عشانه؟

-وأضحي بحياتي كلها عشانه.

-حتى بعد ما سابك واتجوز يا صفاء؟

-فتحي ما سابنيش، أنا اللي سيبته، ولو كنت مكانه كنت اتجوزت أنا كمان.

-طب ليه ما اتجوزتيش؟

-عشان ما قدرتش أكون لحد غيره.

-ياه عليكي! هتفضلي أغرب واحدة شـفتها في حيـاتي كلها.

-سيبك مني، أخبار ناس زمان إيه؟

-أنا زي ما إنت عرفتي، شريف ساب المحاماة واشـتغل في التجارة وربنا فتحها عليه من وسع، داليـا وسـهر اتجـوزوا ومازلت بقابلهم كتير، بقوا أصحاب مراتي، وكمان أنا صديق شخصي جدًا لأزواجهم، وكلنا أصبحنا من سكان القاهرة.

-إنت ما تعرفش أد إيه أنا سعيدة بمقابلتك دي.

-أنا الأسعد لكن عندي ليكي مفاجأة لازم تـشوفيها لمـا تيجي معايا دلوقتي.

-على فين؟

-على بيتي.

-بس...............

-من غير بس يلا بينا.

وانطلقا إلى شقة عماد في الحي الهادئ الذي يسكن فيـه، وهناك وجدت في استقبالها الرجل العجوز، الأسـتاذ الكـبير الذي أعطاها أولى فرص حياتها، ومهّد لها الطريق لتسير فيه و لم تقف للآن. فاندفعت نحو الرجل تحتضنه وهـو فـرح جـدًا بلقائها، فبرغم سنوات عمره الطويلة لم يجد أحدًا مثلها.

قال عماد: من لقى أحبابه نسى أصحابه.

-إنت السبب ماتنساش.

قضت وقتا طيبًا آخر مع ذكريات ماضيها، وفى وسط دفء الأسرة الذي لم تعرف له طعمًا منذ أكثر من عشرين عامًا،

ثم عادت إلى فيلتها وحيدة لا أحـــد معهـــا ولا صـــوت يؤنسها، غير صوت الوحدة القاتلة، عـــادت وهـــي تتعجـــل الصباح لتذهب لعملها.

وقارب الفصل الدراسي على الانتهاء، بل إنه انتهى وبدأت الامتحانات، وفى اليوم المحدد لامتحان مادقما، كان الطلبة قبـــل دخوله مذعورين خائفين، ولكن انظر إليهم بعد الامتحان، إن فرحتهم غير مسبوقة، وتوافدوا إلى مكتبها ليـــشكروها علـــى الامتحان، ناسين أن تحصيلهم بجد هو سبب فرحتهم بالامتحان وليس لأنها أتت بأسئلة سهلة، وما إن انتهت الامتحانات حتى استعدّت صفاء لرحلة سياحية داخلية في قلب مصر مع صديق عمرها أحمد وزوجته وطفليهما الذين دعتهم خصيصًا لقـــضاء العطلة معها.

واستقبلتهم في مصر استقبالاً حارًا، يحمل شوقها الكبير لهم وشوقهم لها، وأقاموا في منزلها، وفى اليـــوم التـــالي لوصـــولهم شاهدوا معظم معالم القاهرة من قلعة صلاح الدين للمتحـــف فالأهرامات والصوت والـــضوء، وتنزهـــوا في النيـــل، وزاروا بانوراما حرب أكتوبر ودار الأوبرا، يومان في القاهرة قبـــل أن

ينطلقوا إلى الأقصر وأسوان التي كانت صفاء تـــشاهدها لأول مرة، بينما أحمد كان قد أتى لمصر في زيارة سابقة وهو شــــاب صغير، حين كان مُغرمًا بالرحلات وتمتعا بباقي الأســـبوع في المدينتين الساحرتين ليقضوا بعدها ثلاثة أيام في ربــــوع شــــرم الشيخ، قبل أنْ ينطلقوا إلى فرنسا، ومعهم صفاء التي ســـافرت لتتابع مكتبها وقضاياها هناك، خاصة أها سوف تدرس الجـــزء الثاني من الفصل الدراسي لطلبة الفرقة الثانية، حيثُ تتـــشارك وأستاذ آخر في تدريس المادة، وسعدت بتلك الحياة الجديـــدة التي تجمع بين مصر وفرنسا في آنٍ واحد.. في تلك الأثناء، كان فتحي في إيطاليا، يوقِّع عقود تعاون مشترك بين مصنع لإنتـــاج الأثاث ومصنعه، فقد اتفق على فتح سوق للمصنع الإيطالي في مصر وكذلك فتح سوق لمصنعه هناك، هذا بعـــد أن شـــاهد تصميمات عدة رأى أن بعضها يتماشى مع الذوق المـــصري، كما أنه منذ سنوات وسنوات ومن قبـــل أن يمتـــهن المهنـــة، والنجارون في مصر ينفذون موبيليات من كتالوجات إيطاليـــة ويعرف مدى حب الناس للذوق الإيطالي، كانت تـــصميماقم سهلة وتنفيذها ميسورًا، وإنما هو يبغى من وراء هذا التعـــاون انتشار الأثاث الذي يصنعه في مصر بتصميم مهندسين مصريين وتنفيذه هو وعماله، هناك، رغم أن فتحي صار رجل أعمـــال، إلا أنه مازال يعشق قطعة الخشب والتعامل معها كفنان نحـــات

يعمل على منحوتته حتى تصير كتلة فنية، صائغ يُشكّل ذهبه ليصبح قطعة حُليّ تزيّن جيد حسناء، هكذا هي قطعة الأثاث التي يصنعها، تحفة فنية تبرز المكان الذي توضع فيه وتزينه.

لذا فهو مازال يعمل بيديه وسط عماله، سواء في الورشة القديمة أو في المصنع وعاد من ايطاليا، لعمله وبيته.

عادت من فرنسا، رجعت لعملها دون أنْ تفكر في أنْ تطأ قدمها أرض بلدها،

بدأت في تدريس منهج القانون الدولي لطلاب الفرقة الثانية الذين كانوا مؤهلين نفسيًا لاستقبال صفاء، بعد أن سمعوا عنها من طلبة الفرقة الثالثة، لذا كانوا في قمة تعجبهم ودهشتهم عندما وجدوا أسلوبًا آخر غير الذي سمعوا عنه، لم تشأ صفاء أن يأخذ الطلبة عنها فكرة عدم التجديد فيحفظوا أسلوبها ويأمنوها، هي تريدهم دومًا في حاجة لأن يبحثوا، حتى لا يصيبهم الملل وتفقد العملية التعليمية مغزاها.

الأيام تمر بها بين فرنسا ومصر،وفجأة ودون إنذار،فقدت أستاذها وصاحب الفضل الكبير، رحل أبوها الثاني، هكذا الكل يتركها ويرحل،وأثّر فيها جدًا موت الدكتور سيد،حتى إنها ارتدت الأسود مدة طويلة، وغابت عنها البسمة وصارت تلازم أرملته العجوز معظم الوقت،ثم تهرب إلى فرنسا وتعود تنغمس في حزنها من جديد.. لم يخفف عنها سوى إخوتها الذين

يأتون بين الحين والآخر ليزوروها كلما سنح الوقت، كــذلك عماد ووالده الذين وقفا إلى جوارها حتى تخطّت تلك الأزمة.

مرّ عام ونصف على وجودها في القاهرة، ولكنــها تغيــب الآن في فرنسا مدة إجازة الصيف، قبل أن تستأنف الدراســة وفي أثناء وجودها بفرنسا شعرت ذات صباح بانقباض شديد، وتمثلت أمامها صورة فتحي أكثر من مرة، وخشيت أن يكون هناك مكروه ألّم به، وحاولت نبذ الفكرة، ولكنها سرعان مــا عاودتها، فاتصلت مسرعة بأخيها الذي كان صوته حزينًا جدًا فسألته: فيه إيه؟ مالك؟

-مفيش حاجة إنتي عاملة إيه؟

-أنا كويسة الحمد لله، فتحي ماله يا سيد؟

-كنت عارف إنك لازم تعرفي من غير ما حد يقول لك.

قاطعته مسرعة: ماله يا سيد؟

-مراته تعيشي إنتي، بيصحيها الصبح ما صحيتش، كانــت ملاك يا صفاء، ست مفيش في طيبتها ولا حنيتها.

-الله يرحمها، مسكين يا فتحي مسكين.

-حالته صعبة قوي.

لم تكمل المكالمة، لقد تركت لعينيها العنان لتبكي وتبكي، ليس حزنًا على المرأة المتوفاة، وإنما مشاركة لحبيبها، فهي تبكي ألمه وحزنه، فلقد عاشر المرأة عشرين عامًا، تحملت فيها مــا لم

تتحمله امرأة أيًا كانت، إلا إذا كانت تحب، لقد أحبته، بــل عشقته، وهي تعلم أنَّه لا مكان لها بقلبه العاشق الواله بــامرأة بعيدة تفصلها عنه مسافاتٍ طويلة، ضَحت بحبه لأجل نفــسها لكنه يعشقها ويهواها.

وأرسلت تلغراف عزاء من فرنسا، ولكنها لم تــستطع أن تعود لمصر في تلك الآونة، حتى لا يقال إنها ظهرت في الصورة بعد وفاة زوجته، وكأنها كانت تنتظر موتها، اكتفت بتلغــراف العزاء.

عادت صفاء بعد شهرين إلى مصر، وهي تستبعد فكرة أنْ تعود لبلدها، وكانت ترفض كل طلبات إخوتها لزيارتهم وتتعلل بعملها ومشاغلها، حتى جاء يوم كانت تعمل في مكتبها بالكلية، دخلت عليها السكرتيرة تخبرها أن قريبًا لها يود مقابلتها، وتعجّبت صفاء من هذا القريب و لم تشغل بالها، وطلبت منها أنْ تدخله، وما إن ولج من الباب حتى فغرت فاها وتلاحقت الأنفاس وارتعدت الأوصال وارتعشت الشفاه وسقط منها القلم، وهمت بأن تقوم من مكانها فلم تحملها قدماها، فإذا بيده تعينها لتقف أمامه وجها لوجه، غير مصدقة، صافحته بقوة وهي تحدق في عينيه وتعانقهما عناقًا قويًا، ثم ارتمت في حضنه، تذوب وتذوب حتى صارت داخل جسد صاحبه وانهمرت دموعها ودموعه لتشترك في هذا العناق الملتهب بعد فراق طويل وشوق خمسة وعشرين عامًا، في سرعة البرق عادت صفاء للوراء شابة في العشرين وليست امرأة في الخمسين من عمرها، حاولت أن تنطق اسمه ولكن حُبس صوتها وأبى أن يخرج، ظلت بحضنه تخشى مفارقته مرة أخرى، لم يكن فتحي أقل حالاً منها بل إنّ شوقه لها يفوق شوقها بمراحل، إنّ حُبه لها لم ينقص بل كان يزداد يومًا بعد يوم.

مازالت لم تنطق و لم ينطق، أخذت حقيبتها ومفاتيحها وأخذته من يده وانطلقت به خارجة دون أنْ تعبأ بكلام

السكرتيرة عن موعد محاضرتها، طارت صفاء بصحبته، ركبت وهو سيارته واتصلت بسائقها ليلحق بها إلى المنزل، لم يكن بمقدوره هو الآخر الحديث، إنه لا يشعر إلا بها ولا تشعر إلا به، تفجّر هوى السنين هكذا مرةً واحدة، كل مخزون الأعوام الماضية تَجسّد أمام أعينهما فلم يعد أي منهما يرى سوى الآخر.

سار بالسيارة إلى بيتها، وطوال الطريق لم يتبادلا كلمة واحدة، فقط ينظر إليها، يراها بين حين وآخر وهي تتطلّع إليه وهو يقود.

دخل معها هو فيلتها الصغيرة، نظر حوله بإعجاب للمكان وأخيرًا نطق: جميلة.

فردت بابتسامة: ومملئة بفنك، أعرفه متى أراه.

-لقد اخترتُ كل قطعة هنا بنفسي.

وعاد الصمت يغلّف المكان قبل أنْ يستدير لها، فمضت لحضنه مجددًا وهي تقول: وحشتني.......... وحشتني قوى.

زفر زفرة قوية وهو يعتصرها أكثر وأكثر:"دلوقتي بس حسيت إن الحياة رجعت لي مرة ثانية، وإني عايش من جديد".

ابتعدت قليلاً عنه لتنظر في عينيه وتقول: "نفس العينين ما اتغيروش هم دول كانوا صُحبتي في أيام غربتي، صورتك كنت بصحا وأنام عليها وهي في حضني سنين وسنين، كل أحلامي

كانت معاك، كل أفراحي اتمنيت تكون شريكي فيهـا ومـا كانت تكمل إلا لما أروح البيت وأبص لـصورتك وأحتفـل معاها وأكلمها لحد ما يغلبني النوم وأنام".

-حالك ما يختلفش عن حالي كتير، وإن كنت بعاني من قيد يمنعني أحمل صورتك معايا فين ما أروح، أو أحطهـا جنـب سريري، كنت بحطها في رأسي وفي خيالي وفي خزنتي مع كل صورك وأخبارك في الجرائد وشريط فيديو للبرنامج اللي اتزاع ليكي في التلفزيون.

-عارفة إنك كنت بتعاني أكتر مني ألف مرة، وإن مراتـك كان ليها عليك حق.

صمتت برهة ثم قالت: البقاء لله.

-ونعم بالله، شكرًا على البرقية.

-ما قدرتش آجي بنفسي.

-آه لو عرفتيها، كانت ملاك، اتحملت كتير قوى يا صفاء، الوحيدة اللي شالت ذنبي وذنبك رغم إن ما كنش ليها ذنب!

-عارفة يا فتحي ويوم ما قابلتها أشفقت عليها وجـرحتني نظرة عينيها.

وطفر الدمع من عينيه، فاقتربت منه وبأناملـها مـسحت دموعه وهى تقول: "بعد النهارده مش هنبكى تانى يا فتحـي

مش هنسمح لعينينا حتى تفكر يوم في البكا كفيانـــا، نفـــسي أفرح من قلبي زى زمان، نفسي أرجّع الضحك لحياتي أيام مـــا كنت معاك".

-إنتي اللي اخترتي الحياة دي.

-ماتلومنيش، أنا من أول سنيني هناك وأنا حاسة بالنـــدم، بس كان الوقت اتأخر وبقى ليك زوجة وبنت، كان رجوعي مستحيل، عشت سنين في ندم وألم وكل ما أفتكـــر حياتـــك كزوج وأب أرجع لساقية العمل وأشتغل... وأشتغل..لحد مـــا ياخدني الوقت وأنام، كنت بعمل شغل يومين في يوم واحـــد ولما يسألوا "إمتى عملتي ده؟" ولا يقولوا "إدي لنفسك راحـــة وانسي الشغل" أقول لنفسي: "أنساه مع مين؟ وإزاى؟ ده هـــو سلوتي".

-ليه ما اتجوزتيش يا صفاء؟ ما تقوليش عشان بتحبيني، أنا اتجوزت وأنا بحبك أكتر من حبك إنتي لي.

-عارفة، ومش هقول لك: "ماحاولتش"، أنـــا حاولـــت وحاولت مرات كتيرة، وكل واحد أفتكر إن هـــو ده اللـــي هيكمل معايا حياتي ويبدأ خلاص الموضوع يدخل في الجـــد، تلاقيني أناديه باسمك وأكلمه على إنه إنت، وألاقي صـــورتك بقت مكانه وكأني كنت بدوّر فيهم عليك!

-معقول ده؟!

-من عشر سنين اتعرفت على رجل أعمال مصري هنـــاك، أرمل وله طفلين اتقرب مني بعد ما جـــه للمكتـــب بقـــضاياه

للشهرة الكبيرة لمكتبي هناك، يعني جاني عشان أنا محامية شاطرة وليا اسم، وعرض عليا الجواز وكنت هوافق بالفعل لكن بشرط.. تعرف إيه هو؟

-إيه؟

-أسيب الشغل اللي عشت بيه وليه وضحيت بأغلى حاجة في حياتي عشانه.

ضحك فتحي، فقالت: بتضحك؟! أنا يومها اتصرفت مع الراجل بشكل أقسم لك إنه للآن يعتقد إني مجنونة ولولاك لما استطعت العودة لحياتي.

-إزاي؟

-لما اتصلت بيا وكنت تعبانة وقلت لك إن اتصالك دا هيخليني أقف على رجلي تاني.

-بحبك.

-ياه! ياه! من زمان وأنا نفسي أسمعها وأقول لك إني بحبك... بحبك قوى يا فتحي يا فنان.

-تتجوزيني يا صفصف؟

اتسعت عيناها عن آخرهما وهي لا تصدق ما تسمع، وحاولت أن تنطق إلا أنّ الكلمات لم تطاوعها، فأعاد على مسامعها السؤال وبعد برهة قالت: هو أنا أطول يا فتحي أتجوزك وأنا في السن دي؟

-سن، سن إيه؟!! ده أنا عمري كلــه بــستنى اليــوم ده، وبعدين مين فينا اللي يطول؟ هو أنا كنت أحلم أتجوز واحــدة عملاقة زيك؟

-أنا جنبك صفاء بتاعة زمان اللي نسيت يعني إيه الفرحــة اللي بجد والحزن لدمعة من عيون أي حد من يوم ما ســابتك، صفاء اللي بتشوفك في وش أي راجل، واللي أكلها الندم لأنها يوم فاتتك عشان شيء زايل ومش مضمون، نسيت إن الحــب هو أهم وأجمل ما في الوجــود، وإن لازم نــضحي بالغــالي والرخيص عشانه ما نضحيش بيه!

وصمتت قليلاً وهي تتطلع إلى عينيه ثم قالت: نفسي أعيش بقية عمري في حضنك وما أفارقهوش أبدًا.

-في يوم من الأيام قلت لك حضني مفتوح لك في أي وقت ترجعي فيه، ولسّه عند وعدي وكلمتي، ومش حضني بس اللي مفتوح لك، دي حياتي كلها مفتوحة لك يا أجمل ما في حياتي.

وعاد الصمت يُلقي ظلاله وهي تلقي بنفــسها في حــضنه ودموعها تبلل وجهه.

-صفاء، مش عازيك تبكي أبدًا.

-فرحتي بيك هي اللي خلتني أبكي.

-عارفة أنا عاوز إيه دلوقتي؟

-أؤمر يا عيوني.

-آكل، جعان........ جعان قوي.

-يا حبيبي، تليفون واحد وأجمل وأشهى أكل يكون عندنا دلوقتي.

-لا عايز آكل من إيديكي زى زمان.

-بس خايفة مايعجبكش.

-إنتي أي حاجة تلمسها إيديكي تبقى أجمل ما في الوجود.

-من عينيا يا حبيبي.

-هساعدك.

-لا إنت تقعد كده باشا وكل حاجة تيجي لحدك.

-لا، وياكي، ومن النهارده مش هنتفارق، إيدي على إيديكي.

-حاضر.

-أيوه كده اسمعي الكلام.

ودخلا سويًا المطبخ وأعدا طعامهما بنفسيهما، ثم جلسا يأكلانه كما كانا يفعلان دائمًا في الماضي البعيد.

كانت تطعمه بيديها كطفلها، كان لا يأكل إلا إذا سبقته هي إلى الطعام وكأنه يطمئن إلأى أنها أكلت أولاً حتى يهنأ بطعامه، ثم تمتد يده بالطعام لها، تكلما كثيرًا ومر الوقت بهما سريعًا ولكنهما لمْ يشعرا به، فلقد توقفت في نظرهما كل

الساعات وصمتت الدقائق والثواني ولمْ يُفكر أيّ منهما في أنْ ينظر لساعته أبدًا.

ولكن الليل الذي أتى مسرعًا جعله ينظر في ساعته وهو يقول: معقول الساعة بقت تمانية؟ لازم أمشي.

-لا. تمشي تروح فين؟

-الولاد يقلقوا عليا، وهم ما يعرفوش أنا فين، كنت الأول بعتمد على وجود أمهم معاهم.

-عشانهم بس هسيبك، لكن بعد كده لا يمكن أسيبك أبدا يا قدري.

أتت لحظة الفراق، لم يكن أيّ منهما يريد أن يترك الآخر، ولكن كان يجب عليهما أن يمضيا كلٌّ إلى طريقه، وأخيرًا تركا بعضهما ووعدها أنه سيحدثها في التليفون ما إنْ يصل وفي أثناء الطريق، سيحدثها عبر تليفونه المحمول، وأمضت صفاء الليلة وهي تكاد تطير فوق السحاب، غير مصدقة ما يحدث، لقد ظنت أنها تحلم، ولكن صوته ما زال في أذنها ومحادثته لها طوال الليل، لقد استيقظت في الصباح وهي تمسك بسماعة التيفون في يدها، إذن ما حدث حقيقة واقعة.

وأول شيء فعلته حين صحت أن اتصلت بأحمد في فرنسا، روت له ما حدث، شعر أحمد بفرحتها التي لم يشعر بها يومًا هكذا نقلت له عبر صوتها إحساسها الرائع بالسعادة، ولكنه فرح لها! وسعد من أجلها!

قامت صفاء تنظر لدولاب ملابسها، تلك الملابس التي اشترتها من أرقى المحلات في باريس، ومعظمها ماركات عالمية، انتقت رداءً يحمل ألوانًا مبهجة ونظرت للمرآة، فشعرت بأنها عادت للوراء ثلاثين عامًا مرة واحدة، وأحست بجمالها يعود مرة أخرى، وأنّ تجاعيد وجهها التي ظهرت مؤخرًا قد ذهبت، وتوجّهت للكلية وهي ترسم ابتسامة على وجهها لا مثيل لعذوبتها.

كل من قابلها ذلك اليوم لم يكن ليصدق عينيه، أهذه الدكتورة صفاء صاحبة الوجه العبوس، والعيون الذابلة، أتلك هي حقًا؟!

وبدأ الجميع يسألونها وهي لا تجيب، وإنما تكتفي برسم ابتسامة لا تشفي فضولهم.

وأعطت محاضرة قصيرة لطلبة الدراسات العليا لديها ثم انصرفت إلى مكتبها، حدثته هاتفيا فقالت: وحشتني.

-إنتي أكتر، إنتي فين؟

-في الكلية، وإنت؟

-في الورشة، ما تيجي النهارده.

-آجي إزاي، وصمتت برهة ثم أردفت قائلة: طب وإخواتك وأولادك وأمك اللي بتكرهني؟

-ومالهم دول كلهم؟

-لو شافوني وشافوا حالي النهارده هيعرفوا من غـــير مـــا أتكلم.

-هو إنتي كمان؟

-قصدك إيه؟

-من الصبح وكل ما حد يشوفني يسألني: "فيه إيه؟" وعلى رسهم صفاء الصغيرة، وأخوكي سيد مش فاهم فيه إيه؟

-الهوى المداري بان.

-مش فاهم، عمرنا ما كنا بنخاف النـــاس، ليـــه دلـــوقتي هنخاف منهم ونعملهم حساب.

-خلاص يا حبيبي هاجي لك ولو في آخر الدنيا.

وصلت صفاء البلدة، وطرقت باب بيت أبيها، ولم يصدّق أخوها سيد حين رآها أمامه، فهو يقيم في الدور الثاني من البيت بعد زواجه وموت أبويه، أصبح يعيش في الطابقين، وذلك بموافقة إخوته وخاصة عزت أخوه الذي استقر في الخارج، رحبَ سيد بها بشدة وفرح بزيارتها، وفهم ما حلّ بها حين رآها ورأى فتحي هذه الصباح.

ودخلت صفاء حجرتها التي كانت كما هي لم تتغير، جلست في مكانها المعتاد لتجده يفتح شباكه وينظر إليها، وعلى وجهه ابتسامة عذبة ثم قال: أنط وأجيلك؟

-تقدر؟!!

-إنتي عارفة كويس إني اقدر.

-عارفة يا مجنون.

-بس المرة دي مش هاجي لك سرقة هاجي من الباب.

-وأنا مستنياك.

وطرق فتحي بابها وفتح له سيد ورحب به وهو يقول: كنت عارف إنك هتيجي.

-جاي لك في طلب ويا ريت توافق.

-أنا عينيا ليك يا أبو صفاء.

خرجت لحظتها من حجرتها، فتوجه نحوها وهـــو يقـــول: تقبل تجوزني أختك؟ قالها وهو يمسك بيدها بين راحته ويطبـــق عليها بشدة.

-بتسألني يا فتحي وأنا عارف أد إيه استنيتوا اليوم ده؟ طبعًا موافق، ومن غير تردد، ألف ألف مبروك.

نظر فتحي لعينيها وهو يمسك كتفيها بكلتا يدي،ه وهـــو يقول لها: مبروك يا أغلى حاجة في حياتي.

نظر إليهما سيد والدهشة والفرحة تملأ عينيه، وقـــال: أول مرة أشوف فتحي بتاع زمان النهارده، فتحي اللـــي نـــسيت شكل بسمته وصوت ضحكته.

وكادت زوجة سيد تطلق زغرودة، غير أن سيد كتمها قبل أن تطلقها وقال: -إيه نسيتي فاطمة؟

وأفاق فتحي من نشوته على تلك الحقيقة المرة، فهو أرمل له زوجة متوفاة من ثلاثة أشهر فقط، وله طفلان حزينان.

وسأله سيد: أخذت رأي صفاء وفادي؟

نظر فتحي في الأرض دون أن ينطق، فأردف سيد: طبعا ما عملتوش حساب حد، ونسيت أد إيه كـــانوا بيحبـــوا أمهـــم ومرتبطين بيها، نسيت إن صفاء بنتك ما تختلفش كـــتير عـــن صفاء حبيبتك في قوتها وجبروتها، وكأنك كنت بتـــربي فيهـــا وتزرع كل صفاء.

صرخت صفاء قائلة: كفاية يا سيد.

والتفتت إلى فتحي وقالت: أنا مش عاوزة الجوازة دي لــو على حساب ولادك، أنا اتعودت على بُعْدَك، ويكفيني إنــك لسه بتحبني زى ما بحبك، ويمكن أكثر، يكفيني كمان أسمــع صوتك عشان أعيش بقية عمري.

-لا يا صفاء، لا، مش هنضحي تاني، كفاية بقى، وإذا كان على ولادي أنا هقدر عليهم.

وانطلق خارجًا نحو منزله، صعد شقته وجد كــلا منــهما يجلس في حجرته، فدعاهما إلى بهو الشقة وقال: اقعدوا عــاوز أكلمكم في موضوع.

صفاء:خير يا بابا.

حاول فتحي استجماع شجاعته ليتكلم، وهواه الذي فــاق الحدود جعله يشعر بقوة وشجاعة لا مثيل لهمــا فقــال: أنــا هتجوز.

وارتسمت علامات الدهشة على وجهيهما ممتزجة بآثــار الغضب وخاصة على وجه صفاء التي قالت بلهجة تحمل بعض السخرية: على طول كده؟ مش بدري شوية؟

تناسى فتحي سخريتها وقال: بالعكس، أنا استنيت كثير، كتير قوى، سنين طويلة لحد ما جه الوقت المناسب.

غضبت الفتاة وقالت: حب قديم بقى؟ مين دي؟

وقبل أن يجيب تابعت قائلة: ما تقولش.. أبقى غبية إن مــا عرفتهاش.. أكيد الدكتورة صفاء.. صح يا والدي؟ الــدكتورة

اللي سمتني على اسمها وعشت تحبها وما راعتش أبدًا شعور أمي اللي كانت كل حتة فيها وكل تصرف من تـــصرفاتها بيقـــول بحبك، وأنت ولا حاسس بيها، كنت بسمع حكايات أصحابي عن أباهتهم وأمهاتهم، وهم كل زوج فيهم فيه شيء مشترك ما بينهم، وأد إيه بيفهموا بعض وبيحبوا بعض، بيحكـــوا عـــن حاجات عمري ما لاحظتها في أبويا وأمي، وإنما لاحظـــت أم عاشقة وأب في وادي تاني، ولما كبرت وبقيـــت أسمـــع عـــن حكاوي فتحي وصفاء، فهمت وعرفت ليه أمي كانت دايمـــا تناديني باسم الدلع وما تحبش تناديني باسمي، اسمي اللي كرهتـــه لما عرفت أد إيه بيوجعها كل ما تسمعه، وكأنك مـــا كنـــتش حاسس باللي بتعمله يوم ما سمتني الاسم ده، اتجوزت أمي ليـــه لما أنت عايش على ذكرى الهانم الغايبة من سنين؟

-"كفاية يا صفاء" قالها فادى.

لقد أخطأت في حق أبيها وهو صامت يتحمل كلماتها التي لها وقع كضرب السياط.

وأخيرًا قال: عارف إن كل كلمة قولتيها ليكي حق فيهـــا، بس إنتي عمرك ما هتعرفي إحساسي إلا إذا جربتي يوم تحبي، أو لو جربتي عمرك كله يرتبط بحياة إنسان واحد اتولـــد معـــاك، كبرتي معاه يوم بيوم وسنة بسنة، بتاكلوا وتشربوا مع بعـــض، بتتعلموا في نفس المدرسة في نفس الفصل في نفس الكلية، كل حياتكم مشتركة مبتفترقوش إلا ســـاعات النـــوم، وأول وش

تشوفيه وشه، أول كلمة تبدئي بيها يومك تبقى ليه، إنسان بيجري في دمك وهو الهوا اللي بيدخل ويخرج من صدرك.

إنتِ ما تعرفيش يعني إيه صفاء في حياتي، أنا عارف إني غلطت في حق أمك وهو ده كان سبب عذابي لسنين وسنين وإحساسي بالذنب كان هيقتلني، عشان كده ما فكرتش لحظة أروح لصفاء رغم إنها رجعت مصر من مدة طويلة، وكنت كل ما أفكر أروح لها، أفتكر أمك وعذابها السنين اللي فاتت وإنها ما تستحقش مني كده، أنا أول مرة أشوف صفاء من خمسة وعشرين سنة إمبارح.. إمبارح بس، بس إمبارح........... إمبارح!!

وانسابت دموعه فجرى نحو حجرته وأغلقها خلفه وهو يقول: صعب اللي أنا فيه ده!

لم يكن من السهل عليه أن يبكي أمام أطفاله، أو أن يروي لهما عن قصة هواه ولكن ما بيده حيلة!

وسمع طرقًا على الباب، ثم دخل فادي وقال له: مبروك يا بابا ألف مبروك ولما أشوف طنط صفاء هبارك لها بنفسي.

احتضنه فتحي: الله يبارك فيك يا حبيبي، صفاء هتفرح بيك قوي، هي تحت في بيت جدك محمود.

- خلاص أنا هروح لها على طول، المهم أشوفك سعيد يا أحسن أب في الدنيا.

وخرج الفتى مسرعًا ليتوجه لصفاء التي قابلها وهو يبتسم ابتسامة شاحبة وهو يقول: أنا بحب أمي وحزين لفراقها جدًا، لكن يهمني أشوف أبويا سعيد زى ما شفته النهارده الصبح، كان واحد جديد بس جميل قوى، عشان خاطري خليه كده على طول يا طنط.

فرحت صفاء بكلمات الولد ذي الثمانية عشر ربيعًا واحتضنته بقوة وهى تشكره.

فقال لها الفتى: مبروك...... ألف مبروك.

وتركها وصعد لشقتهم، ودخل حجرته وأغلقها خلفه، وأمسك بصورة أمه وبكى، ظل يبكي كثيرًا حتى تعبت عيناه.

أما صفاء فكان شعورها بالغضب قويًا بشكل غريب، ولكنها لا تُنكر أنَّ كلمات أبيها أثَّرت فيها ونفذت إلى قلبها، ولكن ذكرى أمها يجب أنْ تُحترم مهما كان الأمر.

وظل فتحي حبيس حجرته باقي اليوم ونصف النهار التالي، فقال فادى لها: حرام عليكي يا صفاء، ارحمي ضعف أبوكي.

-وليه هو ما يرحمش ذكرى أمنا اللي اتعذبت كثير بسبب حبه ده؟

-يعني يرضيكي حاله كده؟

-هو اللي عمل في نفسه كده.

-ما تبقيش قاسية زى الزمن اللي قسي عليه، كل شيء قسمة ونصيب يا صفاء، واللي حصل لأمنا ده قدرها وحظها

في الدنيا، وهي اتحملت وما اعترضتش، يبقى ليه إحنا نعترض؟ ده كله أمر ربنا، اسعدي أبوكي يا صفاء، ارسمي الضحكة بتاعة امبارح على وشه تاني، عشان خاطر أمك اللي إنتي بتحبيها، اللي كانت دايما بتحب ضحكته اللي كانت عاملة زى هلال العيد ما تظهرش غير مرة في السنة.

فكرت صفاء قليلاً في كلمات أخيها، قبل أنْ تتوجه إلى حجرة أبيها وتدخلها مطأطأة الرأس وهي تقول: بابا أنا آسفة، ما كنش من حقي أعترض، دي حياتك وإنت حر فيها تعمل اللي إنت عايزه.

رُدت الروح إليه من جديد فقال: يعني موافقة يا صفاء؟

-موافقة.. بس بشرط ما تعيشوش هنا.

-طبعًا، طبعًا، قالها وأخذها في حضنه وهو يقول: شكرًا يا حبيبتي شكرًا، كنت عارف أد إيه بتحبيني.

وسكت قليلاً ثم قال: أنا هغير هدومي وأروح أفرّح صفاء بسرعة.

رأت الفتاة أباها كطفل، أو على الأكثر شابًا في العشرين من عمره، فرح بالزيجة المُقدم عليها، وعلى استعداد لفعل أي شيء لينال رضا عروسه، وفجأة خرج من الحمام وهو يتناول طاقما من دولاب ملابسه ويقول لها: حلو ده يا صفصف؟

-جميل يا بابا، جميل قوي.

-ده إنتي اللي جميلة يا روح بابا.

واتجه صوب بيتها، طرق بابه بشدة، فقابلتـــه فأخـــذها في حضنه وطار بها وهو فرح غير مصدق وهو يقول: وافقوا يـــا صفاء، وافقوا.. أنا مش قادر أصدق نفسي، أنا وإنتي أخـــيرًا هيجمعنا مكان واحد بعد كل سنين البعاد، مبروك يا روحي.

- مبروك يا حبيبي مبروك.

وبدآ يخططان للحياة سويا، ولكن كيف؟ فهي لا يمكن أن تعيش في شقته، وهذا شرط ابنته ودون أن تشترط فهذا بيـــت أمها، ثم عملها في القاهرة، يجب أن يكون هناك حلٌ وسط.

فادى كليته في القاهرة، فهو يـــدرس في كليـــة الاقتـــصاد والعلوم السياسية، ويقيم في المدينة الجامعية، إذن فمن مصلحته الإقامة في القاهرة، وليست مشكلة بالنسبة لفتحي أنْ يقيم هو الآخر هناك، فهو بحاجة لمتابعة مستمرة لمصنعه في العاشر مـــن رمضان، أما الورشة فهي في يد سيد، بقيت صفاء التي رفضت الإقامة مع زوجة أبيها، كما أنها ما زالت تدرس بكلية التجارة في طنطا، لذا كان الاتفاق أن تعيش مع جدها وجدتها مؤقتًـــا، وحاول فتحي أن يُقنع صفاء بأن يشترى لها شـــقة، ولكنـــها أصرت على الإقامة في فيلتها الجديدة.

وافق فتحي ووضع باسمها في البنك مبلغًا كبيرًا، مهرًا لهـــا، رغم رفضها ذلك وقولها إنه هو مهرها وكل حياتها، إلا أنه قال لها هذا هو الشرع والقانون يا أستاذة القانون، واشـــترى لهـــا شبكة من الماس قيمة جدًا، وطارت صفاء لباريس لتبتاع فستانًا

أنيقا من أرقى بيوت الأزياء، لم يكن فستان زفاف وإنما فستان سهرة أبيض اللون، وعادت مع أحمد وأسرته وتلميذها جون الذي أصر على حضور حفل زفافها بنفسه، وتم عقد القران في بيت أسرة صفاء القديم، ومساء اليوم التالي، اتفقا أن يقيما حفلاً في فليتها يدعوان إليه كل أحبائهما ثم يتركان الجميع ويتوجهان إلى الإسكندرية كما كان يحلم فتحي قديمًا.

(٣٢)

كان المأذون يعقد القران وكل منهما ينظر للآخر، وكأنهما يخشيان الفراق لحظة أو النظر لأحد آخر، ويكرران ما يقولـــه المأذون بسعادة لا مثيل لها على وجه الأرض وفي قلوب البشر كافة.

وبعد القران، أخذها بسيارته وطارا إلى القـــاهرة ليقـــضيا السهرة في أفخر مكان في القاهرة بصحبة أحمد وزوجته اللذين تركا أطفالهما مع أولاد فتحي. وجون الـــذي ســـعد بـــالجو الغريب عليه، ظن فتحي أنّ أحمد فرنسي حين رآه واحتار حين عرف اسمه، فأخبرته صفاء بأنه فرنسي مسلم، قـــضوا ســـويًا سهرة جميلة، ثم شعر أحمد بالإرهاق، فأراد الانصراف، ولكن صفاء أصرت أن تذهب معه وزوجته لبيتها، ولكن أحمد رفض إفساد السهرة عليها، وأصر على حجز حجرة له ولزوجتـــه في هذا الفندق، ثم يأتيان إليها في الصباح الباكر، ووافقت صـــفاء على هذا الحل بصعوبة، فصعدا لحجرتهما وتركاها مع محبوبهـــا الذي أراد أن يعرف سر تعلقها الشديد بهذا الرجل، حكـــت صفاء حكايتها له مع أحمد منذ أن تعرفت عليـــه أول مـــرة في باريس وحتى تلك اللحظة.

-كان بيحبك يا صفاء؟

-أيوه.. بس مش حب.. تقدر تقـــول كـــان إعجـــاب بشخصية جديدة عليه، لون من البشر ما عرفوش قبل كده.

-طب وإيه اللي رجعه لحياتك بعد فسخكم الخطوبة؟

-تصالح مع نفسه، وعرف إني قدمت لـه هديـة بالـدين الجديد اللي عشقه وهواه وبنى من أجله مركزًا من أهم المراكز الإسلامية في فرنسا. إنه يشعر أنني صاحبة الفضل في هذا.

ومن بعدها ونحن نتعاون كثيرًا، وكان شـريكي في قـضية الدفاع عن الإخوة الفلسطينيين، بل هو صاحبها في الأصـل، لأنه منذ إسلامه وهو يدافع عن كل مسلمي العالم والمتـهمين منهم، وهو الذي كلمتني في بيته آخر مرة حين شعرت بتعبي، بل بنكستي لحظة أحسست بأن كل شيء صنعته لا قيمة له يوم أراد المصري المهاجر أن أتركه لكي أتزوجه، يومهـا أخـذني لبيته وظل يقرأ القرآن إلى جواري وزوجتـه تطبـبني، حـتى اتصلت فأعطاني السماعة وهو يقول: "دواؤك" وهو من كـان يدفعني للعودة إليك بشتى الصور ولكني كنت أخشى أن أهدم بيتك.

-في الأول غِيرت منه... أما دلوقتي فأنا بحترمه جدًا.

-ولسّه لما تعرفه كويس هتحبه جدًا.

-المهم إني دلوقتي مش مصدق السعادة اللي أنا فيها، بحبك، ونفسي أصرخ بأعلى صوت وأقول بحبك يا أجمل وأعظم ست في الكون كله.

وأخذها من يدها وخرج إلى حديقة الفندق يسيران تحـت ضوء القمر وقال لها: نفسي يشاركني اللحظة دي زي ما كان

بيشاركني لحظات أسايا وعذابي، يا ترى كان بيقول لك كـــل كلمة قولتها له.

-يا ترى هو وصل لك كل رسالة حملتها له، ياما قلت لـــه وحكيت، وشكيت، واتأسفت، وقلت له حرَّمت، بس يرجعْ لي وأرجع له. يا ترى قال لك؟

نظر لعينيها مباشرة واحتضنها بقوة وهو يقـــول: نفـسـي الزمان يرجع بينا لورا وما أفارقكيش لحظة واحدة.

ثم اقترب منها واقتربت حتى تلامست شفاهما، وذهبـــا في قبلة طويلة لأول مرة في عمرهما كله، يختلساها من الزمن ومن الناس من حولهما، فلم يعد أي منهما يشعر بشيء إلا بنفسيهما والهوى الذي يطير بهما فوق السحاب ويحملهما ليعانقا النجوم ويسامرا القمر.

لم يكن أي منهما يريد لليوم أن ينتـــهي، أو أن يتـــرك أي منهما الآخر، صارت لحظة الفراق أصعب من أن يُقدما عليها ولو حتى فراق ساعة، وعندما سطع ضوء النـــهار توجهـــا إلى فيلتهما ليناما قليلاً.

سويعات قليلة قبل أنْ يستيقظ، نام يحلم بها واستيقظ على صوتها وهي تقول"

- الإفطار جاهز يا مولاي.

-مليكتي بنفسها حضرت الفطار؟

-بل جاريتك يا ملك ملوك الدنيا.

طبع على جبهتها قبلة خاطفة، قبل أن ينهض من الســرير وهو يقول: لازم أروح البلد عشان أجيب الناس دي كلها من هناك.

-إنت مش هتروح في أي حتة، أنا اتصلت بــيهم وســيد أخويا عارف المكان كويس هو وإخواتي، وهييجــوا كلــهم ومعهم إخواتك وأمك وأبوك وولادك، وزمانهم قرّبوا يوصلوا، أحمد ومراته كمان تحت والطباخين بيشتغلوا في المطبخ،كله تمام يا مليكي.

-كل ده حصل وأنا نايم؟ هي الساعة كام؟

-الساعة عشرة ونص الصبح.

-إنتي صحيتي إمتى عملتي كل ده؟

-أنا ما نمتش، هو أنا أقدر أنام في يوم زى ده؟ ده عمــري بيبتدي من النهارده.

-يا روحي، بموت فيكي.

-بعد الشر عليك يا عمري.

-طب بدلتي أنا سبتها هناك.

-عارفة هتيجى معاهم.

-طب عايز أغيّر هدومى بتاعة امبارح دي.

-أنا عاملة حسابي.

قالتها وهي تتجه نحو أحد المقاعد بالحجرة، حملت الكيس الموضوع عليها وقدّمت له طاقمًا جديدًا اشترته بنفسها له، ليرتديه وكأنها كانت تعلم.

-الله ده جميل جدًا، ومش من هنا.

-من باريس، جبته معايا وأنا جاية.

-أعمل فيكي إيه؟ إنتِ الدنيا وما فيها.

-اقعد كده اتكلم، وضيع الفطار، يلا غيّر هدومك وأنا مستنياك تحت بسرعة.

-حاضر جاي على نار.

ونزلت صفاء وعلى وجهها ابتسامة رائعة ولكنها لم تـرُق لأحمد فقال لها: مالك يا صفاء؟

-أبدًا مفيش.

-ما تكدبيش على، مش هي دي ابتسامة اليومين اللي فاتوا.

-بصراحة حاسة قلبي مقبوض وكأن الفرحة دي كتير عليا خايفة أصدقها وأبص حواليا ما ألاقيهاش!

-صفاء، كله بإيد ربنا ما تقوليش كده تاني يا صوفي، فاهمة، قولي يا رب.

-يا رب.

قالتها وذهبت لتباشر ترتيبات الحفل بنفسها، وفي الظهيرة، كان البيت قد صار خلية نحـل، فـإخوة فتحـي الخمسـة وأولادهم، بالإضافة لأمه وأبيه وابنه وابنته، وأخوهـا سـيد وزوجته وطفليه، وأختها سمية وزوجها وأولادهـا الثلاثـة، لم يتغيب سوى أخيها عزت الذي اختار الغربة مقامًـا، وأحمـد وطفليه وزوجته بالطبع، وجون الذي بين حين وآخر يشكرها على هذا اليوم الجميل.

وتناول هذا الجمع الغفير طعام الغداء في حديقـة الفـيلا، والسعادة تطل من عيونهم، والفرحة تسبق حديثهم، وضحكهم وأحاديثهم لا تنقطع، هذا غير الموسيقى التي تنطلق من المكـان وبنات العائلة اللاتي يتبادلن الرقص واحـدة تلـو الأخـرى، والنساء كن يتغنين بأغنيات الأفراح القديمة التقليدية والجميـع مبتهج.

كان موعد الفرح مبكرًا في السادسة، وفي الخامسة صعدت صفاء لحجرتها لتلبس هي وفتحي الذي ارتـدى ملابسـه في الحجرة المجاورة سريعًا، ونزل للناس الذين وصل بعضهم، فلقد دعت الأستاذ سعيد وابنه عماد وزوجته وسهر ابنته وعميـد الكلية وبعض زملائها من أساتذة القسم وزوجة الدكتور سيد وأيمن، ظلت صفاء ساعة وأكثر وهي تتأهب لتلك اللحظـة، ارتدت فستانها وأتمت زينتها، لم يكن باستطاعتها أن تكـون عروسًا صغيرة تذهب للكوافير وتتزين، ولكنها أبدًا لم تكن أقل من هؤلاء العرائس بهذا الفستان الأبيض ومساحيق الوجه الـتي جعلتها شابة في العشرين.

ونزلت صفاء السلم الداخلي لذي كان فتحي يقف عند نهايته، ينتظرها وعيناه تمتلآن بإعجاب لا مثيل له، رأت فيهما نظرة رأتها مرة واحدة من قبل، ولامته عليها، أما الآن فهي من حقه، كان طائرًا في السماء، سابحًا بين أمواج هواه، استقبلها بلهفة وهو يمسك يديها على الدرج الأخير ولثمها وهو يقول: إيه الجمال ده كله؟

-صحيح حلوة؟

-حلوة شوية عليكي.

كان على حق فعلا، فجمالها صعق كل الحاضرين، حتى بدت الشابة الصغيرة المثيرة -التي كانت تثير إعجاب الجميع، تلك التي جرى خلفها الكثير من الرجال و لم تلتفت لأحد- وليست امرأة في الخمسين من عمرها، وبكل سعادة، كانت صفاء تطير بين الموجودين لترحّب بهم، وأخذت فتحي من يده وقالت: فيه ناس هنا تعرفهم كويس.

تعجب فتحي وقال: مين دول؟

-تعالى بس.

وسلّمت على الأستاذ سعيد وقبّلت جبهته، وسلّمت على عماد وزوجته وابنته، قالت: لسه ما عرفتش مين دول؟

-الوشوش مش غريبة عليا، وخاصة حضرتك وأشار لعماد.

-تخونك عشرة أربع سنين.

نظر فتحي لصفاء وقال: كفاية حيرة بقى..قولي لي.

قالت: الأستاذ سعيد أول من فتح لي مكتبه أشتغل فيه.

قال مسرعًا: أبو عماد.

نظر إليه عماد: وأنا عماد.

قالت صفاء: المستشار عماد وزوجته وابنته سهر، رحّب بهم فتحي بشدة وشكر حضورهم.

وظل يتحدث إليهم بينماترحّب هي بضيوفها الآخرين.

قال لها أحمد: جميلة مظاهر الفرح عندكم.

-يوه! إنت شوفت حاجة، هو ده فرح؟ دا إحنا نقعد نستعد للفرح شهر، ونعمل كحك، وبسكوت، ويوم للحنة، ويوم للفرح.

-معقول ده؟

-أمال إيه؟ في يوم هحكي لك.

أخذها فتحي من يدها وهو يقول: "إيه ده بقى؟ هو إحنا مش هنعرف نقعد مع بعض شوية ولا إيه؟ مش عارف أكلمك".

-مش قادر تصبر شوية؟ أيامنا جاية يا حبيبي.

-مفيش وقت، اللي راح كتير قوي، مش أد اللي جاي.

-من عيوني، كل طلباتك أوامر بس تعـــالى معايـــا لحظـــة واحدة.

أخذته واتجهت نحو أمه وأبيه، ركعت أمامها ليصبح وجهها في مقابلة وجه أم فتحي، وهي تجلس على مقعدها وقالت لها: سامحتيني يا خالتي؟

قالت السيدة والدموع تترقرق في عينيها: ساعة ما شـــفت ابني رجع من تاني ابني اللي كنت أعرفـــه ونـــسيت شـــكله، سامحتك يا بنتي، ربنا يهنيكم.

انحنت صفاء على يديها تقبلها، وقبلت رأسها ورأس حميها وأخذت أكثر من صورة لها ولفتحي بجوارهم.

ثم وقفت مع فتحي يشربان شربات الفرح، بعد أن دعـــوا الجميع ليتناولوا العشاء، طعام العُرس، وبعد أن تأكدا مـــن أن الجميع أكل وشرب، وقفا يحتسيان كوبيهما وهمـــا ينظـــران لبعضهما ويتبادلان الابتسام، دون أي حديث، وكأن الكـــلام قد انتهى، فقالت: يعنى ما بتقولش حاجة؟

-أصل بسمع عينيكي وبردّ عليها.

-وقالت لك إيه عيني؟

-كلام كتير وبين كل كلمة وكلمة بتقول لي بحبك.

-مش بس عيني اللي بتقولها، قلبي بيقولها، وإيدي ولـــساني وكل حتة فيا بتقول بحبك، بحبك، بحبك قوي.

-خايف يا صفصف.

-من إيه يا عمري؟

-حاسس إن كل ده كتير عليا قوي.

-وأنا كمان، بس أنا عارفة إن من حقنا نفرح ونسعد شوية بقى.

-عندك حق لازم نفرح.

وفجأة شعر فتحي بدوار فقالت له: مالك يا فتحي؟

-مش عارف حاسس إني مش مظبوط.

وأخذ نَفسًا عميقًا ما إن أخرجه حتى سقط على الأرض، فلم يأخذ غيره، سقط بين يديها لتجد جسمه باردًا كالثلج، لقد رحل فتحي الذي شعر أنه لم يكن لديه وقت!

صرخت صفاء: فتحي!!

والتف الجميع حوله، أخذته في حضنها وهي تقول:ف..... ف...... فتحي والدموع تتساقط من عينيها شلالات ودقات قلبها تتسارع حتى كادت تقف.

آه، آه يا فتحي.

الجميع غير مصدق ما يحدث، فجأة تحوّل الفرح الكبير الهادر إلى مأتم وصراخ ودموع، سكتت الموسيقى وانقلبت الزغاريد صراخًا، لم يكن أحد ليصدق ما يحدث، وإن كان

قدرآه في فيلم، لظنه فيلمًا مأساويا شديد المأساوية ولكان قد غادره ومضى! وإنما ما حدث ليس فيلمًا لتغلق الشاشة عليه، إنه حقيقة، حقيقة زلزلت كل أصحابها.

-خدني معاك يا فتحي خدني معاك ما تسبنيش كده

انطلقت الكلمات من فم صفاء التي كانت تهذي بكلمات غريبة وهي تنظر لجموع الحاضرين، ثم قالت:كنت زمانْ عايشة على أمل إني في يوم هرجع له، والنهارده كنت عايشة على أمل إن هقضي معاه بقية عمري، طب بكره أعيش على إيه؟ وليه؟ ولمين؟ خدني معاك..كفاية عليا وحدة، واحتضنته أكثر وأكثر وهي تقول له: بص لي يا فتحي... كلمني... قول لي حاجة، قول لي إنك هترجع، قول إني مش هعيش لوحدي تاني، قول إن السنين رجعت لورا أيام ما كنا عايشين سوا، فاكر يا فتحي لما كنا بنروح المدرسة سوا؟ كنت بتمسك إيدي خايف عليا من الناس، كنت بتحميني أما حد يضايقني، مين يحميني يا فتحي؟ قوم يا فتحي نفتح شبابيكنا، وتنط من شباكك عشان تقعد على سور شباكي ونتكلم سوا، رحت فين يا حبيبي رد عليا!!!

اقترب أحمد منها، وحملها على النهوض، ودموعه تسبقه فقالت: أنا صحيح غلطت في يوم وندمت.. صح يا أحمد؟ أنا ندمت كتير.. ليه عقاب ربنا صعب كده ليه؟ أنا ما أستحقش كده!!

-حرام يا صفاء اللي بتقوليه ارحمي نفسك ما تعترضيش على أمر الله.

-مش قادرة أصدق إني رجعت عشان أقتله!

نظرت لأخيها وقالت: فاكر يا سيد لما قال لـك اتـصل بصفاء لأنها عيانة ولاقيتني بجد عيانة.

-فاكر يا صفاء كل حاجة، عارف إنه كان بيحس بيكـي وإنتي بتحسي بيه، فاكر يوم ما سبتي محاضراتك وجـيتي زى المجنونة بتسألي عليه، ولما عرفتي إنه في المستشفى دراعه انكسر جريتي جري ومفيش حد قدر يبعدك عنه ولا حتى الـدكتور، ولما عييتي ووقعتي قدام البيت صرخته عليكي صحّت الـشارع كله، وأسبوع كامل وهو ما بيتنقلش من جنب سريرك حـتى عشان ينام، فاكر يوم ما عرفتي إنه خطب وهيتجوز من غير ما حد يقول لك، فاكر يا صفاء.

قالها والدموع تتلاحق في سرعة من عينيه ثم واصل قولـه: فاكر صاحب عمري اللي إيده كانت دايما ممدودة بالخير، آه يا فتحي آه يا صاحبي، كان بيشتغل زى الآلة عشان ينسى لكن عمره ما نسى، جه عليا وقت وكرهتك بسبب عذابه، وإنـه بقى شخص غريب غير اللي نعرفه.

سقطت صفاء مغشيًا عليها، وكان عماد قـد اسـتدعى طبيبًا للتأكد من موت فتحي، فإذا به يحاول إفاقة صفاء الـتي أفاقت قليلاً، فأخذت تهذي من جديد، فحقنها الطبيب بعقـار مهدئ أنامها، وخاصةً بعد صراخ صفاء الصغيرة في وجههـا وقولها لها: إنتي اللي قتلتي أبويا.. أنا بكرهك.. بكرهك.

الكل في لوعة وألم ولكن حزن أبيه وأمه وإخوتـــه وأولاده، لا يعادل ذرة في حزن صفاء التي كانت تعتبر وجوده كوجـــود قلبها داخلها وعقلها في رأسها، فكيف لأي منهما أنْ يتـــرك جسدها إلا بموتها؟ لماذا تحيا بدون قلب أو عقل؟! بل كيف تحيا بدونهما؟!!!!!

قدّم ضيوف الفرح -أو المأتم!- تعازيهم وانصرفوا وهم في حالة ذهول مما يجري، ويكفي أنهم رأوا امرأة واحدة شـــابة في العشرين ثم عجوزًا تعدت المائة في أقل من لحظات قليلة! وكأن رجلها هو سر شبابها وفرحها وعمرها، وأفاقت صفاء لتجـــد نفسها على سريرها القديم وقد تبدّل ثوبها الأبيض بآخر أسود قبيح، ونساء المعزين من حولها كثيرات، وصوت المقرئ يتردد عبر المكان، قامت صفاء وخرجت من البيت، ذهبت إلى بيته، إلى حجرته القديمة -التي ظل يحافظ عليها كما هي، حتى أثاثها المتهالك- لمْ يمنعها أحد، لم يقف أمامها أحد، دخلت إلى هناك وألقت بنفسها على سريره، تتلمس رائحته في المكان، تحدثـــه وكأنها تراه من حولها حتى كادت تجن.

(٣٣)

لم تشعر بالأيام التي تمر من حولها، لأنها لا زالت تحيا معـــه، لمْ تكن تأكل أو تفكر في أي شيء غير أنْ تبقى معه في تلـــك الحجرة التي بها بعض أشيائه التي ظلـــت تحتـــضنها وتبللـــها بدموعها.

أسبوع كامل وهي على تلك الحالة حتى دخلت أم فتحـــي وأبوه وأخوها وأولاد فتحي يحاولون إخراجها مـــن الحجـــرة، فلقد شعروا بأنها على وشك الجنون، ولكنها أبت بـــشدة أن تبرح مكانها.

فاقترب منها فادى وقال لها: أنا وأختي خلاص ما عدش لينا حد غيرك.. تقبلي تبقى أمي؟ لو إنتي كمان رحتي مين غـــيرك يبقى معانا يا ماما؟

أول مرة في حياتها تسمع هذه الكلمة التي نفذت إلى قلبـــها سريعًا، فاحتضنت الفتى الذي يشبه أباه بشده.

قال لها ودموعه تلاحقه: بابا مات وهو مطمـــن إنْ إنـــتي هتبقى جنبي أنا وصفاء الصغيرة، ليه عايزة تسيبينا وتسيبي ولاده اللي ممكن يفكروكي بيه؟ أنا عارف إن إحنا مش هنعوّضـــك عنه، لأن ما فيش حد أبدًا زيه، لكن إحنا من ريحته.

-مين قال إنك مش زيه؟ ده إنت هو، نفس الوش والروح والطيبة والرقة.

وعادت لتحتضنه من جديد، واقتربت منها صفاء الصغيرة وهى تقول: أنا آسفة، ما كنتش أعرف إنك بتحبيه بالشكل ده زى ما هو بيحبك وعذب أمي سنين بحبك.

-سامحيني يا بنتي...أنا دفعت تمن غلطتي سنين ندم... لكن عمري ما نسيته أبدًا ولا قدرت أتجوز غيره.

نظر إليها أبو فتحي وقال: يا بنتي، أنا إن عشت النهارده مش هعيش بكره وبرضه أم فتحي، وإخواته مشغولين، مفيش حد غيرك لولاده، دول أمانة في رقبتك، أمانة سابها فتحي حبيبك.

-ما حدش فيكم هيوصيني على ولادي، بس يا ريت صفاء تسامحني وترضى عني.

-يا ماما.. بابا كان بيحبك جدًا... ما أقدرش أكره حد بابا بيحبه.

-يا نور عيني.

أخذتهما في حضنها وهى تواصل بكاءها المحموم، الذي لمْ ولن ينقطع، فمن يعرف فتحي يبكيه العمر بأكمله، فما بالك بمن تهواه وتعشقه حتى الثمالة.

وتلقت صفاء خطابًا من أحمد يعتذر عن سفره بسرعة لارتباطاته الشخصية، ولكنه وعدها بالحضور في أقرب إجازة، لذا اتصلت به صفاء تطمئنه عليها وتوصيه بمكتبها، كان في نيتها أنْ تعود لفرنسا مرة أخرى، ولكن بعد الأمانة التي

وضعوها في عنقها، لابد أن تحملها وتصونها حتى آخر يوم في عمرها، وكعادتها، ألقت بنفسها في دوامة العمل بعد شهر كامل قضته في حالة من عدم التوازن الذي أفقدها القدرة على التفكير، ولكن تلك المرة بغير حماس أو أمل.

قالت صفاء لطفليها: هنعيش زى ما كان بابا عاوز أنا وفادى في القاهرة وصفاء هنا عشان الكلية وخميس وجمعة معانا في القاهرة، الورشة في إيد عمك سيد، أما المصنع عمك فريد بيشرف عليه وإنتِ وفادى هتباشروه، أما نصيبى

اللي المحامى بيقول عليه في ثروة أبوكي، هيبقى باسمك إنتِ وأخوكي، هوزعه عليكم بالتساوي.

قاطعتها صفاء قائلة: بس دد حقك.

-لا مش حقي.. وكمان المهر اللي أبوكم دفعه لي.. هارده ليكم، شيء واحد عاوزة أخده معايا، ذكرياتي وياه، عاوزة كل ورقة وصورة تخصني وتخصه، هو قال لي إنه عاينها في خزنة الورشة.

وخلعت صفاء الكبيرة من رقبتها سلسلة ذهبية أهدتها لصفاء الصغيرة وقالت لها: كان نفسي أجيب لك حاجة أغلى من كده.

-بس دي جميلة قوى متشكرة.

-طول عمره كان بيديني الهدية ويقول لي: "نفسي أجيب لك حاجة أغلى من كده" رغم إن كل حاجة كان بيجيبها كانت أجمل وأحلى حاجة في الدنيا.

ولمح فادى في صدرها سلسلة فضية صغيرة فصرخ: السلسلة دي نصبا معايا عمر بابا ما قلعها إلا لما......وصمت لم يكمل.

فهتفت صفاء: هاها... هي فين؟

تناولتها منه وقالت وهي تنظر إليها: "يوم أهداني إياها اتفقنا على ألا نخلعها أبدًا".

وسافرت صفاء ومعها فادى ليبدآ حياة جديدة، حياة ليس بها روح، لأن روحها ذهبت، وإنْ كانت الحياة التي تشارك فيها الصغيرين غريبة عليها بحق، و لمْ تجربها من قبل، حاولت أنْ تقترب منهما وتخالطهما، وخاصة أنَّ فادى كان نسخة مصغرة من أبيه، أما صفاء فهي تشبهها هي بشكل كبير، ظلا معها شهورًا، حاولا التأقلم والعيش سويًا، رغم أنَّ دموع صفاء لم تنقطع ليلة واحدة وهي تحتضن صورته وملابسه وتبكي.

وفى إجازة الصيف بعد انتهاء الامتحانات مباشرة، أخذهما صفاء، وذهبت هما إلى باريس، وعاشا معها في شقتها الصغيرة، وزارا مكتبها الشهير هناك، وأسرة أحمد، شاهدا أجمل معالم باريس السياحية بصحبتها، ونجحت صفاء في أنْ تعيد الابتسامة لليتيمين اللذين فارقا أهلهما صغارًا.

بدآ يفتحان قلبيهما لها، حتى صفاء التي ظلت كثيرًا متحفظة معها، ولكن كلما رأت أنها نفسها لا تختلف عن هذه السيدة كثيرًا، تلين معها بعض الشيء.

وحاولت صفاء أن تلقنهما الدرس الذي تعلمتــه ووعتــه وحفظته عن ظهر قلب، مهما يكن طموحــك ورغبتــك في الحياة، فلا تدع هذه الرغبة تهزمك، وتحرمــك مــن العــيش كإنسان، كمخلوق من حقه أنْ يتنفس عبير الحــب والحيــاة وسط عائلة يشقى من اجلها، وبمسئولياتها، ولا يعــيش أبــدًا كالآلة، حتى وإنْ حقق قدرًا ضئيلاً مما يصبو إليه ويتمناه، فقدر النجاح الضئيل، خير من النجاح الكبير في ظل الوحدة وفقدان الحب.

إنَّ من يُضحي بالحب أولىَ به أنْ يدفن في التراب مــن أنْ يحيا ليعذب محبيه ويعذب نفسه.

فقفص الأنانية لا يسع غير صاحبه.

تمت بحمد الله ٢٠٠٤/١/٨